الدكتور
عبد الحميد محمود مُتولى

اللآلى الحسان

فى تفسير سورة من القرآن

وهى الأعراف

اللآلئ الحسان

في تفسير سورة من القرآن

وهي الأعراف

الدكتور

عبد الحميد محمود متولي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

بكلية الدراسات الإسلامية - جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

• إهـــداء •

الحمد لله العليّ الأعْلى الذى خلق فسوى والذى قَدَّر فهدى، حمداً يليق بِجلال وجهه وعظيم سلطانه، ونشكره سبحانه أجْزل الشكر وأوْفاه وأسْناه.

ونُصلى ونسلم على حبيبه ومُصطفاه محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن والاه واهتدى بهداه.

وبعـد

إلى كل العاشقين لِلعلم والدين، إلى كل العالمين والمتعلمين على حد سواء، فى مشارق الأرض ومغاربها، فى أنحاء المعمورة.

نُقدم هذا الجهد المتواضع، وهو جَهْد المقل، وقبسة من نور الحق المبين، فى تفسير تحليلى وروحى لِسورة من سور القرآن المكى، وهى سورة الأعراف، والتى زَخرت بالعديد والعديد من الصفات الإيمانية الخالِصة، التى يجب أن يتحلى بها المؤمن فى علاقاته ومعاملاته، وما حوته من قصص الأنبياء مع أقوامهم.

لعل الله العلى القدير، أن ينفع بها ذِكرى والذكرى تنفع المؤمنين.

نسأل الله العليَّ الكبير، أن يتقبلها بِقبول حسن، وهو سميع الدعاء مُجيب النِّداء.

ونُصلي ونسلم على البشير النذير، وعلى آله وصـحبه أجمعين إلى يوم الدين.

وسلامٌ على المرسلينَ، وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله رب العالمين.

المؤلف

المقدمـــة

الحمد لله الذى جعل كتابه العزيز، دستوراً للأنام فى بيان الأحكام، شاملاً لما شــرع لِعباده من الحلال والحــرام، وشافيًا للســقام، وهو العروة الوثقى التى لا انفصام لها، على طريق الحق والحقــيقة والرشاد والسداد، لِخير العباد بمشيئة الله سبحانه فى الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد لِرب العباد.

ونُصلى ونسلم على خـيرِ خلق الله، وصفـوةِ رسلِ الله محـمد بن عبـد الله صلوات الله وسلامـه عليه ـ آتاه الله الحِكمـة وفصلَ الخطاب، وعلَّمه ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه عظيمًا.

وسلام على عباده الـذين اصطفى، وعلى من اهتدى بِهداهم ونهج نهجهم إلى يوم الدين، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم، وسَلِّم تسليمًا كثيرًا.

وبعـــد

فكتاب الله المبين، هو دستور الأخلاق النبيلة والآداب العالية الرفيعة التى تربى الأمم والجماعـات، تربية فاضلة مسـتقيمة راشدة، بمشـيئة الله تعـالى، وتأخذ بـنواصيـهم إلى الســؤدد، والنجاح والـفلاح فى الدنيـا والآخرة، بمشيئة الحنان المنان.

فيقول تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[1]ـ التى هى أصلح وأنجح وأفلح فى الدنيا والآخرة بمشيئة الله تعالى.

(١) من الآية رقم ٩ من سورة الإسراء.

ويقول عـز من قائل: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[١]ـ فهو الهادى إلى سواء السبيل.

وفيما جاء فى فضل القـرآن الكريم، حدثنا حسين بن على الجحفىُّ قال: سمعت حمـزة الزيات عن أبى المختار الطائى عن ابن أخى الحارث الأعور عن الحـارث قال: مررت فى المسـجد، فإذا الناس يخـوضون فى الأحاديث، فدخلت على عَلِىٍّ، فـقلت يا أمير المؤمنين ألا ترى أن الناس قد خاضـوا فى الأحاديث، قال: وقد فعلوها؟ قـلت نعم. قال: أما إنى قد سـمعت رسـول الله ﷺ، يقول: ألا إنهـا ستكون فـتنة، فقلـت ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله، فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحُكْم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قَصَمه الله، ومن ابتغى الهـدى فى غيره أضلَّه الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهـو الصراط المسـتقيم، هو الذى لا تزيغ(*) بـه الأهواء، ولا تلتـبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلمـاء، ولا يَخْلَق على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه، هو الـذى لم تَنْته الجن إذ سمعته، حتى قالوا: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴾.

من قال به صـدق، ومن عمل به أجر، ومـن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم. خذها إليك يا أعور»[٢]. يعنى اعمل بنصائحها.

---

(١) من الآية رقم ٨٩ من سورة النحل.

(*) لا تزيغ لا تميل ولا تضل عن الحق.

(٢) الجامع الصحيح وهو سنن الترمذى لأبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة ص١٧٢، ص١٧٣، ٤٦- كتاب فضائل القرآن - ١٤ - باب ما جاء فى فضل القرآن رقم ٢٩٦ .

وكتاب هذا شأنه جدير بالاهتمام والحفظ، والاشتغال، بمدارسته وتفسيره بمشيئة الله تعالى، ولمثل هذا فليعمل العاملون.

من أجل ذلك يُسعدنا أن نقدم فى الصفحات التاليات تفسيرًا تحليليًا وروحيًا، لِسورة الأعراف المكية بمشيئة الله تعالى.

سائلين الله جل فى علاه، أن يتقبلها بقبول حسن، وأن ينفع بها، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير.

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير.

المؤلف

الباب الأول

التعريف بالسورة ومتعلقاته

١- هى السورة السابعة فى الترتيب المصحفى، والرأى الراجح عند العلماء «أنها مكية وحروفها ١٤٢١٠ وكلماتها ٣٣٢٥، وآياتها مائتان وست»[١]- نزلت بعد سورة صٓ.

وقد اهتم العلماء بعَدِّ حروف السورة وكلماتها، وآياتها، لأن الإنسان يُثاب على قراءة كل حرف عشر حسنات، وألف حرف وميم حرف ولام حرف.

٢- علة تسمية السورة بالأعراف:

من المتفق عليه، أن تسمية السور فى القرآن توقيفى، حيث كان جبريل عليه السلام، ينزل بالآية أو الآيات، ويقول للرسول ﷺ - ضع هذه الآية أو الآيات فى موضع كذا من سورة كذا ويُسمى السورة باسمها.

وبذلك يكون البحث فى عِلة تسمية السورة من قبيل الاجتهاد.

فتسمى السورة بأبرز مَعْلم فيها، وقد يكون للسورة أكثر من اسم، وقد ترد تسمية بعض السور بأحاديث عن رسول الله ﷺ.

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى جـ٣ ص١٩٧ .

وعلى هذا يمكن القول، والله أعلم أن سورة الأعـراف سُميت بهذا الاسم، نظرًا لِورود قصة أصحاب الأعراف، وهو المكان المرتفع بين الجنة والنار، وما دار بينهم وبين أهل الجنة والنار من حديث ذكرته السورة.

٣- مناسبة السورة لما قبلها:

تعتبر سورة الأعراف كالتفصيل والشرح للقضايا الكلية التى عرضتها سورة الأنعام، فسورة الأنعام تعَرضت إجـمالا لأصول العقيدة، وكليات الدين، فجـاءت سورة الأعـراف كالشرح والتـفصـيل، لِقصص الأنبـياء ومصارع المخالفين من أقوامهم.

ووجه ارتباط أول الأعراف، بما سبقـها فى الأنعام، أنه قد جاء فى الأنعام ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ... ﴾[(١)].

وهذه لها ارتباط بقوله تعالى فى الأعراف: ﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ... ﴾[(٢)].

فهذا ارتباط واضح، وفى الأنعام، ذكر ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا... ﴾[(٣)]- وذلك لا يظهر إلا فى الميـزان، لذلك قال فى بدايات الأعراف: ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ﴾ من الآية رقم ٨ من السورة.

٤- ومن أهم مقاصد السورة ومميزاتها:

أ- هذه السورة اشتملت على المقاصد الإجمالية التى اشتملت عليها السور المكيـة، لإقامة الأدلة على وحدانية الله وعـلى صدق رسوله ﷺ، وأن يوم القيامة حق.

---

(١) من الآية رقم ١٥٣ من سورة الأنعام.

(٢) من الآية رقم ٢ من سورة الأعراف.

(٣) من الآية رقم ١٦٠ من سورة الأنعام.

والذى يتأمل السورة يراها، تهتم بعرض الحقائق فى أسلوبين بارزين: أحدهما أسلوب التذكير بالنعم، والآخر أسلوب التخويف بالعذاب والنِّقم.

ب- أما أسلوب التذكير بالنعم؛ فنراه واضحًا فى لفت الأنظار إلى ما يحُسونه من نعمة تمكينهم فى الأرض، ونعمة خلقهم وتصويرهم فى أحسن تقويم، ونعمة تمتع الإنسان بما فى هذا الكون من خيرات سخرها الله تعالى له.

جـ- وأما أسلوب التخويف بالعذاب، فالسورة زاخرة ونلمسه فى قصص الأنبياء مع أقوامهم فى قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى.

وقد استغرق هذا القصص أكثر من نصف السورة، وما آل إليه أمر أولئك الأقوام الذين لم يستجيبوا لِنصائح المرسلين إليهم.

وتسوق الآيات هذه الوقائع، ليس مجرد عرض أسلوب قصصى، وإنما تعرضها فى صورة معركة مع الجاهلين، ولذلك تعرضها فى مشاهد ومواقف، وتواجه بها ناسًا أحياء، كانوا يواجهون هذا القرآن، فيواجههم، ويخاطبهم بالعبر مذكرًا ومُنذرًا.

إن القرآن الكريم لا يقص قصة، إلا لِيبين بها حالة، ولا يقرر حقيقة إلا ليغير بها باطلا، وفى هذا ذكرى، والذكرى تنفع المؤمنين.

هذا عرض سريع، لما اشتملت عليه السورة من توجيهات حكيمة، وآداب عالية، ومقاصد سامية، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

وبهذا ينتهى الحديث عن التعريف بالســورة ومتعلقاته، وأنها مكية، وعدد آيهـا وحروفها وكلمـاتها وتسميـتها، ومناسـبتها لما قـبلها، وأهم مقاصدها ومميزاتها.

ثم ننتـقل بعدها إلى المبـحث الأول فى بداية الســورة بالتســمـيـة، والحروف المقطعة، والتنويه بعظم هداية القرآن، والميزان.

المبحث الأول

بداية السورة بالتسمية والحروف المقطعة والتنويه بعظم هداية القرآن، والميزان

ويضم الآيات من أول السورة ﴿الٓمٓصٓ﴾ آية رقم ١.

إلى آخر الآية رقم ٩ بقوله تعالى ﴿... بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾.

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ
وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ
قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ
۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝٥ فَلَنَسْأَلَنَّ
الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ
۝٧ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ
خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾

تمهيد:

بداية السورة بالتسمية، كسائر سور القرآن، ما عدا التوبة ثم بالحروف المقطعة، وقد سبقتها فى هذا المضمار البقرة وآل عمران.

ثم تحدث عن القرآن الكريم، وأنه كتاب هداية لك يا رسول الله، (صلى الله عليك وسلم)، ولقومك فاتبعوا هدايته، لكى يرجح ميزان حسناتكم، وضرب لنا العظات من الأمم السابقات التى كذبت وأهلكت، وفى ذلك ذكرى، والذكرى تنفع المؤمنين.

أ- المفردات:

- ﴿ ... فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ... ﴾ من الآية رقم ٢ من سورة الأعراف، أى لا يضيق صدرك من تبليغه، خوفًا من تكذيب قومك، وفيها من البلاغة حذف مضاف، صدرك أنت يا رسول الله (صلى الله عليك وسلم) أو من يدعو الناس كذلك.

وقال النيسابورى: «حرج يعنى شك، فالشك ضيق الصدر»[1]ـ يعنى مُغْلق.

- ﴿ .. مِّن رَّبِّكُمْ .. ﴾ من الآية رقم ٣ من سورة الأعراف.

التعرض لوصف الربوبية ـ مع الإضافة لضمير المخاطبين، لمزيد اللطف بهم، وترغيبهم فى امتثال الأوامر.

- ﴿ .. وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ .. ﴾ ـ من الآية رقم ٣ من سورة الأعراف.

يعنى لا تتخذوا أولياء من دون الله، كالأوثان والرهبان.

ـ ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا .. ﴾ ـ من الآية رقم ٤ من سورة الأعراف.

والمراد بالقرية أهلها، وكم: يعنى كثيرًا من القرى.

ـ ﴿ .. فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا .. ﴾ ـ من الآية رقم ٤ من سورة الأعراف.

بياتًا يعنى ليلاً.

---

(١) غرائب القرآن للنيسابورى جـ٣ ص١٩٨ .

- ﴿ .. أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ - آخر الآية رقم ٤ من سورة الأعراف.

قائلون: يعنى وقت القيلولة، وهى النوم فى وسط النهار، وخص هذين الوقتين؛ لأنهما وقت السكون والراحة.

وهناك طباق بين بياتًا وقائلون.

- ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ .. ﴾ من الآية رقم ٥ من سورة الأعراف.

دعواهم يعنى تضرعهم.

- ﴿ .. فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ .. ﴾ من الآية رقم ٨ من سورة الأعراف، ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ .. ﴾ من الآية رقم ٩ من سورة الأعراف.

بينهما طباق المعنى وعكسه، وثقلت موازينه يعنى رجحت حسناته على سيئاته - وخفت موازينه، يعنى رجحت سيئاته على حسناته.

ب- المناسبة:

واستفتاح هذه السورة بتلكم الآيات بالحروف المقطعة وأنه أنزل على رسوله الكتاب لينذر به، مقصودها إنذار من أعرض عمن دعا إليه الكتاب فى السورة الماضية «الأنعام» - من التوحيد والاجتماع على الخير والوفاء، لما قام على وجوبه من الدليل فى الأنعام وتحذيره بقوارع الدارين»[1]- فى الدنيا والآخرة - فالقرآن الكريم جاء للدنيا والآخرة معًا - وبهذا ينتهى المبحث الأول فى بداية السورة.

---

(١) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى جـ٣ ص٣.

المبحث الثانى

التفسير للآيات من أول السورة

من الآية رقم ١ إلى آخر الآية رقم ٩

من أول قوله تعالى: ﴿ الٓمٓصٓ ﴾، إلى آخر قوله تعالى: ﴿ ... بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ - آخر الآية رقم ٩ من سورة الأعراف.

﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝٥ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ۝٧ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩ ﴾

١ - افتتاح السورة بالتسمية «بسم الله الرحمن الرحيم» - وهى مُفتتح جميع سور القرآن الكريم، ما عدا سورة التوبة، وهى دليل بداية سورة ونهاية أخرى.

جاءت التسمية فى أوائل السور ما عدا التوبة، ولم تأت فى أواخر السور، ولا فى وسطها، اللهم إنها جزء من آية من سورة النمل: ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾[1].

---

(١) الآية رقم ٣٠ من سورة النمل.

يعنى أن الخطاب من نبى الله سليمان عليه السلام إلى ملكة سبأ فى اليمن.

وكلا اللفظين رحمن ورحيم من صِيغ المبالغة على وزن فعلان وفعيل، فهما من أسماء الله الخالق البارئ.

ويقول الراغب فى معنى الرحمة والرحمن:

«والرحمة رِقَّة تقتضى الإحسان إلى المرحوم.

وقد تستعمل تارة فى الرقة المجردة، وتارة فى الإحسان المجرد عن الرقة، نحو رحم الله فلانًا.

وإذا وُصف به البارى، فليس يُراد به، إلا الإحسان المجرد عن الرقة.

فالرحمة من الله إنعام وإفضال، ومن الآدميين رِقَّة وتعطف.

لما خلق الله الرحم، قال أنا الرحمن وأنت الرحم، شققت اسمك من اسمى، فمن وصلك وصلته، ومن قطعك بتته»[1] يعنى قطعته.

يقول البقاعى: فى تفسير الرحيم «أنه الهادى لأهل الاصطفاء، إلى لزوم طريق الوفاء»[2]ـ والإخلاص والاستقامة بمشيئة الله تبارك وتعالى.

٢- حكمة بداية السورة بالحروف المقطعة ـ الحروف الهجائية.

ـ قوله تعالى: ﴿الٓمٓصٓ﴾ الآية رقم ١ من سورة الأعراف.

وقد أطال الباحثون فى الحِكم من وراء، هذه الحروف المقطعة.

ويبلغ عدد السور القرآنية التى بدأت بهذه الحروف، تسعًا وعشرين سورة، وهى عدد حروف المعجم.

---

(١) مفردات الراغب ص١٩٦ .

(٢) نظم الدرر للبقاعى جـ٣ ص٣.

وقد سبقت هذه الحروف قبل سورة الأعراف، فى كل من البقرة وآل عمران.

وعلى وجه الجملة، فقد انقسمت آراء العلماء بشأنها إلى رأيين:

الرأى الأول: رأى علماء السلف، ومن وافقهم:

المقصود منها غير معلوم، فهى من المتشابه الذى استأثر الله تعالى، بتمام علمه، وقد سُئل بعض الصحابة عن ذلك؛ فقال: إن لكل كتاب سِراًّ، وسر هذا القرآن فواتح السور.

وقال آخر إن لكل كتاب صَفوة، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجى.

واعترض الخلف على هذا الرأى بما يأتى:

كيف يخاطب الله عباده بما لا يعلمون ولا يَفْهمون، أليس فى ذلك تكليف بالمحال، وأجيب عن ذلك بما يأتى.

يجوز أن يكلف الله عباده، بما لا يعقلون، وذلك حتى يعرف منهم الانقياد والطاعة، والإيمان المطلق، بكل ما يأتى به الله تعالى، فما يعرفونه من القرآن يعملون به، وما لم يعرفوه يؤمنون به.

فالقرآن فى جملته واضح، ولا يضره أن يكون فيه بعض فواتح السور، لا يعرفها بعض الناس.

كما أن هذه الفواتح، لا يتعلَّق بها تكليف شرعى من أمر أو نهى، سوى التعبُّد بقراءتها، لينال القارئ لها ثواب الإيمان بها وبقراءتها.

وأجيب أيضًا بأن فهم هذه الحروف، لم يَنْتف عند كل الناس، لأن الرسول ﷺ ـ كان يعرف المراد منها، وكذلك بعض صحابته الكرام.

الرأى الثانى لِعلماء الخلف، ومن وافقهم:

يرى أصحاب هذا الرأى، أن المقصود منهـا معلوم ومعروف، وأنها ليست من المتشابه الذى استأثر الله تعالى بِعلمه، ولهم فى ذلك تأويلات كثيرة منها:

- أن الغرض من هذه البداية بالحروف المقطعة، الإيقاظ والتهيج لمن سمعها من الفصحـاء، وتنبيه المعاندين فى كل زمان ومكان، وكأن لسان حال هذه الســور، يقول: إن القرآن من عنـد الله، وهو مؤلف من جنس هذه الحروف الهـجائية التى تؤلفـون منها خطبكم وقـصائدكم، ومع هذا تعجـزون عن معـارضتـه أو الإتيان بِمـثله، أو حتى سـورة منه أو آية، فالغرض من ذلك الإعجاز، وهذا أقرب التأويلات.

- وقيل إنها حـروف مُقطعة، بعضـها من أسماء الله، وبعـضها من صفاته، فمثلا قوله الٓمٓ أصلها لا أنا الله أعلم»[1]- والٓمٓصٓ، «أنا الله أعلم وأُفصل»، وهكذا والله أعْلم.

- وقيل إنها جاءت للقسم بها، فالله تعالى يقسم بأى شيء.

- وقيل إنها جاءت هكذا، فاصلة للدلالة على انقضاء سورة وبداية أخرى، فلم تأت فى وسط السور ولا فى أواخرها.

- وقيل إنها أسـماء لبعض السور التى جـاءت فيها، بدليل اشـتهار بعض السور بالتسمية بها مثل صٓ.

وقد اعـترض على هذا التـأويل بما يُفنده، ولابد من التـسمـية من الابتعاد عن الجهالة، فقد اشتركت بعض السور فى الافتتاح بـ الٓمٓ مثل:

البقرة وآل عمران ولقمان والعنكبوت والروم والسجدة مثلا.

- قال النيسابورى: «عـن ابن عباس معنى الٓمٓصٓ: أنا الله أعـلم وأفصل، وقال السُّدى أنا الله المصور - ترمز إلى صفات لله تعالى.

(١) معانى القرآن وإعرابه للزجاج جـ٣ ص١٣٥ والبرهان للزركشى جـ١ ص١٧٣ إلى ص١٧٦ .

إن جعلنا هذه الحروف بدل جملة، فلا محل لها من الإعراب، وإن كانت اسْمًا للسورة، جاز أن يكون الٓمٓصٓ مبتدأ، وكتاب يعنى به السورة خبره، والجملة بعده صفة له، وجاز أن يكون الٓمٓصٓ خبر مبتدأ محذوف، وكذا كتاب، أى هذه الٓمٓصٓ هو كتاب أنزل إليك»[1]ـ وهذه النواحى الإعرابية دقة دقيقة، من الإعجاز القرآنى ـ فسبحان من هذا كلامه.

وهذا الاستفتاح بالحروف المقطعة، بِداية يُشير بها الحق سبحانه وتعالى، إلى أن هذا القرآن مؤلف من جنس الأحرف العربية التى يستخدمها البشر، ثم يُعجزهم أن يأتوا بكلام مثل كلام القرآن، ولا بآية واحدة من آياته.

٣- قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ...﴾ من الآية رقم ٢ من سورة الأعراف.

والمراد بالكتاب: القرآن الكريم، والمعنى هذا القرآن أنزله الله إليك، لتبلغه للناس؛ فلا يكن فى صدرك ضجر ولا حُزن ولا هَمٌّ، مما سوف يُسببه لك هذا التبليغ من عِناد الناس واعتراضهم عليك، ووقوفهم ضدك، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾[2]ـ أى يضيق صدرك بالاستهزاء والتكذيب من قومك.

وإنما قيل أُنْزل بالبناء للمجهول، لأن الفاعل غنى عن الذكر، ولأن المقصود هو الاهتمام بالإنزال، وللدلالة على رِفعة شأن هذا الكتاب.

(١) غرائب القرآن للنيسابورى جـ٣ ص١٩٧، وص١٩٨ .

(٢) آية رقم ٩٧ من سورة الحجر.

وتنكير حرج يدل على التقليل، أى فلا يكن فى صدرك أدنى حرج، وتعلق الجار والمجرور فى قوله ﴿مِنْهُ﴾ «بحرج» أو بمحذوف تقديره كائن منه.

وقد فسر البيضاوى الحرج بالشك؛ فقال: أى شك منه؛ فإن الشاك حرج الصدر، أو ضيق القلب من التبليغ مخافة أن يكذب فيه، ويُقصر فى القيام بِحقه، وتوجيه النهى إليه للمبالغة، والفاء تحتمل العطف، فكأنه قيل، إذا أنزل إليك لِتُنذِرَ به؛ فلا يحرج صدرك منه»[١] فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.

ومن فسر الحرج بالضيق، راعى مدلول الكلمة الأصلى، ومن فسره بالشك راعى الاستعمال المجازى، ولذا قال الآلوسى:

«قوله تعالى: ﴿فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ...﴾، أى شك وأصله الضيق، واستعماله فى الشك مجاز علاقته اللزوم، فإن الشاك يعتريه ضِيق الصدر»[٢].

وعلى هذا فالله تعالى، ينهى نبيه عن أى ضيق أو شك فى التبليغ بالقرآن.

ولفظ كِتاب مرفوع، على أنه خبر لمبتدأ محذوف، تقديره هذا كتاب، والمص اسم للسورة.

وتنكير كِتاب للتفخيم والتعظيم، أو أن «كتاب» خبر المص وجملة أنزلناه فى محل رفع صِفة كتاب.

---

(١) أنوار التنزيل للبيضاوى جـ١ ص٣٤١ .

(٢) روح المعانى للآلوسى جـ٨ ص٧٥ .

ولما تكلم عن الكتاب وإنزاله، والنهى عن الضيق، بيَّن علة إنزاله، فقال تعالى: ﴿ ... لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ من الآية رقم ٢ من سورة الأعراف.

أى أنزلنا إليك القرآن؛ لِتنذر به قومك وسائر الناس، وتذكر وتعظ به المؤمنين الذين لا يفوتهم الانتفاع بإرشادك - والإنذار هو الإعلام المقترن بالتخويف من سوء عاقبة المخالفة.

واللام فى لِتنذر للتعليل، ولام التعليل تنصب المضارع، والفاعل ضمير مستتر يعود إلى النبى ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

أى لا تدع التذكير والموعظة، فإن القلوب المؤمنة، تنتفع وتتأثر بالموعظة الحسنة.

«ومحل ذكرى فى قوله: ﴿ ... لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ من الآية ٢ الأعراف، يحتمل محل ذكرى، الحركات الثلاث، النصب بإضمار فعلها، كأنه قيل لِتنذر به وتذكر تذكيراً، لأن الذكرى اسم بمعنى التذكير.

ورفع ذكرى عطف على كتاب، أو لأنه خبر مبتدأ محذوف، وجر ذكرى للعطف على محل لِتنذر، أى للإنذار والذكرى»[٢]- هذه النواحى الإعرابية المتعددة من إعجاز القرآن الكريم، وأنه ليس من كلام البشر.

ثم أمر القرآن الناس، باتباع تعاليم الإسلام التى جاء بها محمد ﷺ - وليوجههم إلى ما يصلحهم؛ فيقول:

---

(١) آية رقم ٥٥ من سورة الذاريات.

(٢) تفسير الكشاف للزمخشرى جـ٢ ص٩٨ .

٤- قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ـ الآية رقم ٣ من سورة الأعراف.

أى اتبعوا أيها الناس مِلَّة الإسلام، وأحِلُّوا حلاله وحَرِّموا حرامه وامتثلوا أوامره، واجتنبوا نواهيه، واتبعوا سُنَّة نبيكم، لأن الذى أنزل عليكم هذه الشريعة، هو ربكم وخالقكم ومربيكم، ومُدبر أموركم ورازقكم، واللطيف بكم، والعليم بما فيه مصلحتكم، وحذارِ من أن تتركوا شريعة الإسلام، التى تدعوكم إلى إفراد الله بالعبودية، وتتخذوا معه شركاء يُزينون كلم الأباطيل، ويصرفونكم عن الدين القويم.

فالآية الكريمة كلام مُستأنف، خوطب به كافة المكلفين، لِحضهم على إفراد الله بالعبودية، ونَهيهم عن اتباع أحد من الخلق، فيما يتعلق بالأمور الدينية التى وضحتها الشريعة الإسلامية.

و ﴿مَا﴾ فى قوله اتبعوا ما أنزل، فى محل نصب مفعول به، والجملة بعدها صلة لا محل لها من الإعراب.

وينهاهم سبحانه عما يضرهم ويُضلهم فيقول:

ـ ﴿.. وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ آخر الآية رقم ٣ من سورة الأعراف.

معناها قليلاً ما تذكرون، أو زمنا قليلاً تتذكرون، فهو منصوب على أنه نَعْت لِمصدر محذوف، أو لِظرف زمان محذوف، وما مزيدة لِتأكيد القِلَّة.

وكلمة (دونه) ـ تُوحى بحقارة كل ما عدا الله تعالى من الآلهة والأولياء.

ثم ساق لهم بعد ذلك، على سبيل الإنذار والتخويف جانبًا من العذاب الذى نزل بمن سبقوهم؛ بسبب ظلمهم وعِنادهم فقال تعالى:

٥- ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا...﴾ من الآية رقم ٤ من سورة الأعراف.

أى وكثير من القرى أهلكناها، بِمخالفة رسلنا وتكذيبهم فأعقبهم بِذلك خِزى الدنيا، موصولا بِذُلِّ الآخرة.

وكم هنا خبرية بمعنى كثير، وهى فى محل رفع على الابتداء، والجملة بعدها فى محل رفع خبر «ومن قرية» تمييزكم، وإسناد الهلاك إلى نون العظمة، يدل على شِدة الإهلاك والعذاب لأنه مِن القوى العزيز.

والقرية تُطلق على مكان اجتماع الناس.

ـ وقوله سبحانه: ﴿.. فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ آخر الآية رقم ٤ من سورة الأعراف.

وبياتًا: أى ليلاً، ومنه البيت؛ لأنه يُبات فيه، يقال بات يبيت بيتًا وبياتًا.

وقائلون: من القائلة، وهى القيلولة، وهى نوم نصف النهار، وقيل هى الاستراحة نصف النهار إذا اشتد الحرُّ، وإن لم يكن معها نوم.

وعطف الجملة بالفاء، يدل على التعقيب والسرعة فى نزول العذاب، وبياتًا مصدر واقع موقع الحال، بمعنى بائتين، والجملة بعدها معطوفة على أنها حال.

والمعنى: وكثير من القرى الظالمة أردنا إهلاكها، فنزل على بعضها عذاب، فى وقت نوم أهلها بالليل كما حصل لِقوم لوط، ونزل على بعضها فى وقت استراحة أهلها بالنهار، كما حصل لِقوم شعيب.

وإنما خُصَّ هذان الوقتان بنزول العذاب، لأنهما وقت غَفْلة واستراحة؛ فيكون نزول العذاب فيهما أشد وأوجع.

٦- وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ آية رقم ٥ من سورة الأعراف.

أى فما كان دعاؤهم واستغاثتهم وقت نزول العذاب بهم، إلا قولهم إنا كنا ظالمين، فى فعل ما نهانا الله عنه، وترك ما أمرنا به، ولن ينفع هذا التحسر والتَّندم، فى رَفْع العذاب عنهم، وكان الأجدر أن يكون تصحيح الأخطاء، قبل نزول العذاب بهم.

ودعواهم اسم كان، والمصدر المؤول من أن وما دخلت عليه (أن قالوا) فى محل نصب خبرها.

وهنا وضح أن هلاك الأمم سببه بَغْيُها وفسادها، وانحرافها عن الطريق المستقيم، وتلك سنة الله التى لا تتخلف، وأن الظالمين حينما يُفاجأون بالعقوبة يتحسرون، ولا يذكرون ما ارتكبوه من جرائم، وذلك لن ينفعهم، لأن ندمهم وتحسرهم قد فات وقته، وكان الأجدر بهم، أن يتوبوا عندما جاءتهم النذر، وقبل حلول العذاب.

ومن العِبر التى نأخذها أيضًا من هذه الآيات، أن العاقل هو الذى يُحافظ على أداء الأوامر، واجتناب النواهى ولا يأمن صفو الليالى، بل يعيش حياته وصلته بِربه مَبنية على الخوف والرجاء، فإنه لا يأمن مكر الله إلا الخاسرون.

وبعد أن بين القرآن ما أصاب الظالمين من عذاب دنيوى، عقَّبه ببيان ما سيحل بهم من عذاب أخروى فقال:

٧- ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ آية رقم ٦ من سورة الأعراف.

والذين أرسل إليهم، هم عامة الناس، هل قبلتم دعوة الرسل، وعملتم بما أُمرتم به أم لا.

فيكون السؤال تعنيفًا وتعذيبًا.

أو هم الذين قبلوا الدعوة، فيكون السؤال للتشريف والتكريم.

وقوله تعالى: ﴿.. وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ آخر الآية رقم ٧ من سورة الأعراف.

أى نسأل المرسلين، سؤال إنعام وتشريف عن التبليغ، وعن إجابة أقوامهم لهم.

فمن سؤال المرسل إليهم من الناس بقوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾(١).

وهذا توبيخ للمشركين، أى ويوم يناديهم الله، ويسألهم ماذا أجبتم رُسُلى، هل صدَّقتموهم أم كذبتموهم.

وعن سؤال المرسلين يقول تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾(٢).

أى اذكروا أيها الناس، ذلك اليوم الرهيب، يوم القيامة حين يجمع الله الرسل والخلائق للحساب والجزاء، فيقول ما الذى أجابتكم به أممكم؟

---

(١) آية رقم ٦٥ من سورة القصص.

(٢) سورة المائدة آية ١٠٩ .

وما الذى رد عليكم قومكم حين دعوتموهم إلى الإيمان، قالوا لا عِلم لنا إلى جانب عِلمك يا رب، فأنت تعلم ما لا نعلم، فهو سبحانه علاَّم الغيوب.

- وفى قوله تعالى: ﴿.. وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ آخر الآية رقم ٦ الأعراف.

وعلة تأكيد الفعل بالنون «ولنسألن» - ليناسب حالة الإنكار التى عليها المعاندون.

ويمكن أن يقول قائل:

كيف يُثبت الله تعالى هنا فى سورة الأعراف، السؤال للكافرين وينفيه فى آية أخرى، فى قوله تعالى:

﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ﴾[1].

ويُجاب عن ذلك بأن المراد بالسؤال فى الأعراف، سؤال التقريع والتوبيخ، والسؤال المنفى فى سورة الرحمن، هو سؤال الاستعلام، ويوم القيامة فيه مواقف، فهم يُسألون فى موقف الحساب، ولا يسألون فى موقف العِقاب.

٨- والله تعالى يقرر الحوار، الذى يُتبادل بين المرسلين والمرسل إليهم، بقوله سبحانه:

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ آية رقم ٧ من سورة الأعراف.

---

(١) سورة الرحمن آية رقم ٣٩ .

أى فلنقصن على الرسل، حين يكلون الأمر إلينا، أو على المرسل إليهم جميعًا، ما كان منهم دون أن يَغيب عنا شيء، حال كوننا عالمين بكل شيء، ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[1].

أى ألا يعلم الخالق مخلوقاته، فهو الذى خلقها وأوجدها وهو اللطيف بعباده، يعلم دقائق الأمور وغوامضها، الخبير الذى لا يعزب عن علمه شيء.

ويقول ابن كثير فى الآية التى معنا فى الأعراف: «فلنقصن عليهم بعلم، يعنى أنه تعالى يُخْبر عباده يوم القيامة، بما قالوا وبما عملوا، من قليل وكثير، وجليل وحقير، لأنه تعالى شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا يغفل عن شيء، بل هو العالم بِخائنة الأعين، وما تُخفى الصدور»[2]ـ فهو سبحانه القاهر فوق عباده والمطلع عليهم.

ثم بين سبحانه مظاهر عدله مع عباده يوم القيامة فقال:

٩ـ ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ آية رقم ٨ من سورة الأعراف.

الوزن: عمل يعرف به قدر الشيء، يقال وزنته وزنًا وزِنة ـ وهو مبتدأ، ويومئذ متعلق بِمحذوف خبره، والحق صفته، أى والوزن الحق يوم القيامة.

وكيفية الوزن فى الآية الكريمة غير معروف، لأنه من أعمال الآخرة، ولذلك يكون المقصود به، عمل يعرف به قدر الأشياء، ووزن الأعمال هو مقابلتها بالجزاء، وهذا ما يجب الإيمان به.

---

(١) الآية رقم ١٤ من سورة الملك.

(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٠١ .

وصحائف الأعمال تُوزن بميزان له لسان وكفتان، ينظر إليه الخلائق؛ إظهارًا للعدالة وقطعًا للمعذرة.

والمعنى: والوزن الحق ثابت فى ذلك اليوم، الذى يسأل الله فيه الرسل، والمرسل إليهم، ويُخبرهم جميعًا بما كان منهم فى الدنيا، فمن رجحت موازين أعماله، بالإيمان والعمل الصالح؛ فأولئك هم الفائزون بالثواب والنَّعيم.

قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾(١).

يعنى نقيم الموازين العادلة، التى توزن بها الأعمال من يوم القيامة، فلا ينقص محسن من إحسانه، ولا يُزاد مسيء على إساءته، وإن كان العمل الذى عمله زِنة حبة من خردل، جِئنا بها وأحضرناها، وحبة الخردل مثل فى الصغر، وكفى بربك مُحصيًا لأعمال العباد مُجازيًا عليها؛ فالعاقل يكون على أشد الخوف.

وقيل إن الوزن هنا، كِناية عن القضاء السوى، والعدل التام فى تقدير ما يمكن به الجزاء من الأعمال.

ولنا أن نؤمن به، وبما يجرى فى ذلك اليوم العصيب الهائل الشديد وكيفية مردها إلى الله، استأثر الله تعالى بتمام عِلمه بها.

قال الجمل: أليس الله تعالى يعلم مقادير أعمال العباد، فما الحكمة فى وزنها؟ قلت فيها حِكَم، منها إظهار العدل، وأن الله تعالى لا يظلم عِباده، ومنها: امتحان الخلق بالإيمان بذلك فى الدنيا، وإقامة الحجة عليهم فى العُقبى.

---

(١) آية رقم ٤٧ من سورة الأنبياء.

ومنها تعـريف العِباد بمـا لهم من خير أو شـر، وحسنة أو سيـئة، ومنها إظهار عـلامة السعادة والشقـاوة، ونظيره إنه سبحـانه أثبت أعمال العباد في اللوح المحفوظ، وفى صحائف الحفظة الموكلين ببنى آدم من غير جواز النسيان عليه»[١] ـ سبحانه.

فاستبقوا الخيرات والطاعات، إلى الله مـرجعكم جميعًا؛ فينبئكم بما كنتم تعملون، ومجازيكم الجزاء الأوفى - **﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ ﴾**[٢].

وأنه ليس للإنسان إلا عمله وسـعيه، وأن عمله سيُـعرض عليه يوم القيامة، ويراه فى ميزانه، فيفرح بأعماله الصالحة، ثم يُجْزى بعمله الجزاء الأتم الأكمل.

ـ وقوله تعالى: **﴿ .. فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾** آخر الآية رقم ٨ من سورة الأعراف.

هنا تفـصـيل للأحكام المتـرتبة علـى الوزن، وثقل الموازين المراد به رجحان الأعمال الحسنة على غـيرها، فهؤلاء هم الفائزون بجنات النعيم فَهنيئًا لهم.

وذكر الوزن، إنما هو من قبيل ضرب المثل.

والوزن: مبتدأ، ويومـئذ متعلق بمحذوف، والحق صفـته، والتقدير والوزن الحق ثابت يوم القيامة.

«وإتيان مـوازينه جمعًـا، لأن لِكل مكلَّف موازين عـديدة، فللبدن ميزان توزن به أعـماله، وللنفس ميزان يوزن به صفـاؤها، وللروح ميزان

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ٢ ص١٢٢ .

(٢) الآيات ٣٩، ٤٠، ٤١ من سورة النجم.

توزن به نعوتها»[1]- وهكذا ولكل درجات مما عملوا، واسم الإشارة: ﴿ ..أُولَـئِكَ.. ﴾ من الآية ٨ من الأعراف، للبعيد - ليفيد بعد علوهم وارتفاعهم، وقوله ﴿ .. هُمُ .. ﴾ - للتأكيد.

﴿ .. الْمُفْلِحُونَ.. ﴾ آخر الآية رقم ٨ الأعراف، هم الفائزون.

١٠- وبعد أن ذكر حال الفائزين الذين ثقلت موازين حسناتهم، عَقَّب بعدها بذكر حال الخاسرين الذين خفت موازينهم برجحان حال أعمالهم القبيحة على ما سواها: فقال تعالى:

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ الآية رقم ٩ من سورة الأعراف.

أى من رجحت سيئاته على حسانته، فأولئك الذين ألْحقُوا الخسار بأنفسهم بسبب الذى عملوا فى الدنيا، وظلموا بذلك أنفسهم.

- وقوله تعالى: ﴿ ... بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ آخر الآية رقم ٩ من الأعراف.

هذه متعلقة بخسروا - أى أن خُسرانهم لأنفسهم فى الآخرة - كان بسبب جحودهم لآيات الله واستهزائهم بها فى الدنيا.

ويمكن إيجاز الحكمة فى وزن الأعمال، مع أن الله يعلم بها فيما يأتى:

١- إظهار العدالة الإلهية، وأن الله لا يظلم أحدًا.

٢- امتحان الخلق بالإيمان بذلك فى الدنيا، وإقامة الحجة عليهم يوم القيامة.

(١) غرائب القرآن للنيسابورى جـ٨ ص٧٧ .

٣- تعريف الخلائق بما لهم وما عليهم.

٤- إظهار علامة السعادة والشقاوة.

٥- إظهار قدرة الخالق للمخلوقين.

وبذلك ينتهي المبحث الأول من السورة، وبدايتها بالحروف المقطعة، والتنويه بِعظم هداية القرآن واتباعه، وعدم اتخاذ أولياء من دون الله، والتذكير بإهلاك المكذبين، وسؤال الرسل وأقوامهم، والميزان العدل للأعمال، ومصير الفائزين ومصير المكذبين.

ثم ينتقل الحديث بعد ذلك في المبحث الثالث، إلى نعم الله على خَلقه، والحوار مع إبليس، وعدم سجوده لآدم، وطرده من رحمة الله تعالى.

المبحث الثالث

نِعم الله على خلقه والحوار مع إبليس وطرده من رحمة الله تعالى

ويضم الآيات من أول رقم ١٠ بقـوله تعالى: ﴿ وَلَقَـدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ.. ﴾ - إلى آخر الآية رقم ١٨ - بقـوله تعالى: ﴿ .. لأَمْلأَنَّ جَـهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (١٠) وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) ﴾.

تمهيد:

بعد أن تعرضت الآيات السابقات، لأهمـية الكتاب وضرورة تبليغه وأمر الناس باتباعه، ومتابعة الرسل؛ لأنه الحق الذى يقى من اتبعه عذاب الدنيا وذُل الآخرة، مع ذكر بعض النماذج لِذلك.

ثم أردفت الآيات بعد ذلك ذكر بعض نعم الله، على بنى آدم؛ وكثرة النعم توجب الطاعة، وبيان فضل آدم على سائر خلقه.

أ- المفردات:

- ﴿ **وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ..** ﴾ ـ من الآية رقم ١٠ من سورة الأعراف.

من التمكين والتمليك، وهيَّأنا لكم فيها، أسباب الرزق والمعايش.

- ﴿ **.. مَعَايِشَ..** ﴾ ـ من الآية رقم ١٠ من سورة الأعراف.

ومعايش: جمع مَعِيشة ـ وهى ما تكون به العيشة والحياة من المطعم والمشرب.

- ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ..** ﴾ ـ من الآية رقم ١١ من سورة الأعراف.

أى أوجدناكم من أصلاب الرجال، وصورناكم فى أرحام النِساء ـ على حَذْف مُضاف، أى خلقنا أباكم، وصورنا أباكم.

- ﴿ **.. اسْجُدُوا لآدَمَ..** ﴾ من الآية رقم ١١ من سورة الأعراف.

السجود لُغة التذلل والخضوع، مع انخفاض بانحناء.

وفى الشرع وضع الجبهة على الأرض بِقصد العِبادة.

- ﴿ **.. مَا مَنَعَكَ..** ﴾ من الآية رقم ١٢ من سورة الأعراف.

أى ما اضطرك ـ أو ما دعاك وحملك.

- ﴿ **قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا..** ﴾ من الآية رقم ١٣ من سورة الأعراف، والهبوط هو الانحدار، والسقوط من مكان مرتفع إلى ما هو أسفل منه، وهو إما حِسِّى وإما معنوى.

- ﴿.. إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ - آخر الآية رقم ١٣ من سورة الأعراف.

الصاغرين أى الأذلاَّء المهانين.

- ﴿قَالَ أَنظِرْنِي..﴾ - من الآية رقم ١٤ من سورة الأعراف.

وأنظرنى: أى أخرنى وأمْهلنى فى الحياة حتى النفخة الأولى.

- ﴿.. إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ - من الآية رقم ١٥ من سورة الأعراف.

المنظرين أى المهلين إلى وقت النفخة الأولى.

- ﴿.. فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي..﴾ من الآية رقم ١٦ من سورة الأعراف.

أى فبما أضللتنى وأوقعتنى فى الغواية، وهى ضد الرشاد والهداية.

- ﴿.. لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ - آخر الآية رقم ١٦ من الأعراف.

استعار الصراط المستقيم لِطريق الهداية الموصل إلى جنان النعيم.

- ﴿.. مَذْءُومًا..﴾ - من الآية رقم ١٨ الأعراف.

مذءوما يعنى مَعيبًا من ذم الشىء عابه - أو محتقرًا لعِينًا.

- ﴿.. مَّدْحُورًا..﴾ - من الآية رقم ١٨ أى مطرودًا مُبْعدًا.

ب- المناسبة:

يقول الرازى: «اعلم أنه تعالى لما أمر الخلق بمتابعة الأنبياء عليهم السلام، وبقبول دعوتهم، ثم خوفهم بعذاب الدنيا، وهو قوله ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا..﴾ من الآية رقم ٤ من السورة - ثم خوفهم بعذاب الآخرة من وجهين:

أحدهما: السؤال وهو قوله: ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ...﴾ من الآية رقم ٦ من السورة.

وثانيهما بوزن الأعمال وهو قوله: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ...﴾ من الآية رقم ٨ من سورة الأعراف.

ثم رغبهم بعد ذلك، فى قبول دعوة الأنبياء عليهم السلام فى هذه الآية بطريق آخر، وهو أنه كَثَّر نعم الله عليهم، وكثرة النعم توجب الطاعة فقال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ...﴾[1] من الآية رقم ١٠ من السورة».

يعنى هيأنا لكم فى الأرض أسباب الرزق والمعايش.

وفى قول الرازى هذا ربط جيد، وتمهيد مستفيض للدخول فى هذا المقطع من السورة الكريمة.

جـ- التفسير التحليلى للآيات من أول رقم ١٠ إلى آخر رقم ١٨ من السورة:

بعد أن تعرضت الآيات السابقات لأهمية الكتاب، وضرورة تبليغه وأمر الناس باتباعه، لأنه الحق الذى يَقى من اتبعه عذاب الدنيا وذل الآخرة.

أردفت الآيات بعدها، بذكر جانب من نعم الله على بنى آدم، وبيان فضل بنى آدم على سائر خلقه، فقال تعالى:

١- ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ - آية رقم ١٠ من سورة الأعراف.

---

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازى جـ١٤ ص٣١.

يُقسم الحق سبحانه وتعالى بأنه وحده، هو الذى مكن الناس فى الأرض وجعلها قرارًا، وجعلها مَقْهورة للإنسان؛ بِجوِّها وتركيبها وحجمها، ولولا ذلك ما استطاع هذا المخلوق الضعيف أن يقهر الطبيعة، ومن مظاهر التمكين ما أخرجه الله من باطن هذه الأرض من أنواع عديدة من المطاعم والمشارب والمعادن، وكل ذلك يستلزم شكر نِعم الله، الذى هيأ للإنسان خِلافة فى الأرض لينتفع بها، ويعيش عِيشة راضية دون سائر الحيوانات.

ولكن كثيرًا من الناس يُقابل هذه النعم بالجحود والكفران - يقول تعالى: ﴿ .. وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[1]- أى وقليل من العباد من يشكر الله على نِعمه، وفيه تنبيه وتحريض على شكر الله تعالى.

ولفظ قليلاً فى قوله تعالى: ﴿ .. وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ قليلا هذا منصوب، على أنه نعت للفعل المحذوف، وما زائدة لِتأكيد القِلَّة.

ثم يمتن الله على بنى آدم بِنعمة الخلق والإيجاد؛ فيقول تعالى:

٢- ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ .. ﴾ - من الآية رقم ١١ من سورة الأعراف.

وفضلا عن ذلك، فنحن الذى خلقنا أباكم آدم من طين غير مُصوَّر ثم صورناه بعد ذلك.

إن الخلق معناه الإنشاء من العدم، والتصوير معناه إعطاء الصورة الإنسانية لِذلك المخلوق، وهما مرتبتان فى النشأة لا مرحلتان، ولذلك

(١) من الآية رقم ١٣ من سورة سبأ.

فإن (ثم) لا تكون للترتيب الزمنى، ولكن للترقى المعنوى، والتصوير أرقى مرتبة من مجرد الوجود؛ فكان المعنى إنا لم نمنحكم مجرد الوجود، ولكن جعلناه وجودًا ذا خصائص راقية، كقوله تعالى: ﴿ .. الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾(١).

فإن كل شىء قد أعطاه الله خصائصه، ووظائفه، وهُدى إلى أدائها عند خَلقه، ولم تكن هناك فترة زمنية بين الخلق وإعطاء الخصائص، والهداية إلى أدائها.

وكذلك آدم أُعطى خصائصه الإنسانية عند خلقه، و«ثم» للترقى فى الرتبة لا للتراخى فى الزمن.

- والمعنى نحن الذى خلقناكم من ظهر آدم ثم صورناكم، ثم بين الحق سبحانه إكرامًا لهذا المخلوق، أن أمر ملائكته بالسجود لآدم، فقال تعالى: ﴿ .. ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ آخر الآية رقم ١١ من سورة الأعراف.

أمر الله ملائكته بالسجود لآدم، إكرامًا لِهذا المخلوق، فسجدوا امتثالا لأمره تعالى، إلا إبليس لم يكن من الساجدين.

والسجود لُغة التذلل والخضوع مع انخفاض بانحناء، وخُص فى الشرع بوضع الجبهة على الأرض بِقصد العبادة.

واختلف العلماء فى كيفية سجود الملائكة على رأيين:

الرأى الأول: وأرجح هذه الأقوال، أن السجود المأمور به فى الآية يُحمل على المعنى المعروف فى اللغة، أى أن الله تعالى أمرهم بِفعل تجاه

(١) من الآية رقم ٥٠ من سورة طه.

آدم يكون مَظْهرًا من مظاهر التواضع والخضوع له، تحية وتعظيمًا وإقرارًا له فى الفضل دون وضع الجبهة على الأرض الذى هو عِبادة، إذ عبادة غير الله شِرك تتنزه الملائكة عنه، وعلى هذا الرأى سار علماء أهل السنة.

الرأى الثانى: للمعتزلة، أن السجود كان لله، وآدم إنما كان كالقبلة يتوجه إليها الساجدون على سبيل التحية.

ولا شك أن أمر الله للملائكة، بالسجود لآدم هو لون من الابتلاء والاختبار لِيميز الله الخبيث من الطيب، وينفذ ما سبق به العلم واقتضته المشيئة والحِكمة.

وإبليس: اسم مُشتق من الإبلاس، وهو الحزن الناشئ عن شدة اليأس وفعله بَلَس، وهو اسم أعجمى ومنعه من الصرف للعلمية والعجمة، وهو كائن حَىٌّ.

والقرآن أخبرنا بأنه يرى الناس ولا يرونه؛ قال تعالى:

﴿ .. إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ .. ﴾[1].

أى إن الشيطان يُبصركم هو وجنوده، من الجهة التى لا تبصرونه منها، فهو لكم بِالمرصاد فاحذروا كيده ومكره، لأن العدو إذا أتى من حيث لا يُرى، كان أشد وأخوف.

وللعلماء فى كون إبليس من الملائكة قولان:

أحدهما: أنه كان منهم لأنه سبحانه أمرهم بالسجود لآدم، ولولا أنه كان منهم لما توجه إليه الأمر بالسجود، ولو لم يتوجه إليه الأمر

(١) من الآية رقم ٢٧ من سورة الأعراف.

بالسجود لم يكن عاصيًا، ولما استحق الخزى والنكال، لأن الأصل فى المستثنى أن يكون داخلا تحت اسم المستثنى منه، حتى يقوم دليل على أنه خارج عنه.

والثانى: أنه ليس منهم لقوله تعالى: ﴿ .. **إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ** .. ﴾[1].

فهو أصل الجن، كما أن آدم أصل الإنس، ولأنه خُلق من نار، والملائكة خُلقوا من نور، ولأن له ذرية ولا ذرية للملائكة.

وهذا هو الرأى الراجح أن إبليس ليس من الملائكة.

ففى هاتين الآيتين الكريمتين السابقتين، بيان لنعمتين عظيمتين من نِعم الله تعالى على عباده:

أولاهما: نِعمة التمكين فى الأرض، واتخاذهم إياها وَطنًا مُزودًا بضروب شتى مما يحتاجون إليه فى معايشهم، وما به قوام حياتهم وكمالها.

وثانيهما: نِعمة خلقهم من أب واحد، تجمعهم به رحم واحدة، وبسببها كانوا خُلفاء فى الأرض، وفى عمارة الكون، وفُضِّلوا على كثير من الخلق، فكان الواجب عليهم أن يقابلوهما بالشكر والإيمان.

ثم حكى القرآن الكريم الأسباب التى حملت إبليس على عدم السجود لآدم فقال سبحانه:

٣- ﴿ **قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ** .. ﴾ من الآية رقم ١٢ من سورة الأعراف.

---

(١) من الآية رقم ٥٠ من سورة الكهف.

أى قال الحق سبحانه لإبليس ما ألزمك واضطرك إلى أن لا تسجد لآدم، واللام فى ألا تسجد زائدة للتنبيه، على أن الموبَّخ عليه ترك السجود، وتوكيد لمعنى الفعل الذى دخلت عليه، ودليل زيادتها قوله تعالى: ﴿ .. مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. ﴾[1]- يعنى ما دفعك إلى عدم السجود.

والجملة الاستفهامية من سورة الأعراف ما منعك ألا تسجد فى محل نصب مَقول القول.

- وقوله تعالى: ﴿ .. قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ آخر الآية رقم ١٢ من سورة الأعراف.

أى قال إبليس مُعلِّلا السجود لآدم، أنا خلقت من النار وآدم خُلق من الطين، فأنا أشرف منه، ولا يحق أن أسجد له.

يقول ابن كثير: «وقول إبليس لعنه الله أنا خير منه الآية من العذر الذى هو أكبر من الذنب، كأنه امتنع من الطاعة، لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول، كأنه لعنه الله يعنى وأنا خير منه، فكيف تأمرنى بالسجود له؟ ثم بين أنه خير منه بأنه خُلق من نار، والنار أشرف من الطين، فنظر اللعين إلى أصل العُنصر، ولم ينظر إلى التشريف العظيم، وهو أن الله تعالى خلق آدم بِيده، ونفخ فيه من روحه، وقاس قِياسًا فاسدًا فى دعواه، أن النار أشرف من الطين؛ لأن الطين من شأنه الرزانة والحِلْم والأناة والتثبت، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح، والنار من شأنها الإحراق والطَّيش والسرعة، ولهذا خان إبليسَ عنصرُه،

(١) سورة ص من الآية رقم ٧٥.

ونفخ آدم عُنصره فى الرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد، والاستسلام لأمر الله والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة»[١]ـ والرجوع إلى الله بعد أن عصى ربه وأطاع إبليس فى الأكل من الشجرة.

ويرى بعض العلماء، أن هذه القصة فى أمر السجود لآدم، تُبين غرائز البشر، وطبائع الملائكة، وموقف الجن من بنى آدم، ويقول هذا البعض، ولم يكن هناك سؤال ولا جواب، وهذا مُخالف لظاهر الآيات، على أن ذلك أمر غَيْبى، يجب الإيمان به وتدع معرفة الحقيقة لله وحده، والله أعلم.

وقد حكى القرآن ما رد الله به على إبليس بقوله:

٤- ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ...﴾ من الآية رقم ١٣ من سورة الأعراف.

أى قال الله تعالى لإبليس، فاهبط من الجنة بسبب عِصيانك لأمرى وخروجك عن طاعتى.

وقيل إن الضمير فى مِنها يعود على المنزلة الطيبة، التى كان فيها إبليس قبل أن يطرده الله من رحمته، أى فاهبط من رتبة الملكية التى كنت فيها، إلى رتبة العناصر الشريرة، وقيل إن الضمير يعود على روضة كانت فى عدن، وفيها خُلق آدم عليه السلام.

فما يصح لك وأنت مخلوق أن تتكبر فيها، لأن هذا المكان لا يحق للمتكبرين أن يُقيموا فيه، ثم علل أيضًا للخروج بقوله تعالى:

- ﴿.. فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ ـ آخر الآية ١٣ من سورة الأعراف.

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٠٣.

وقوله ﴿ .. فَاخْرُجْ .. ﴾ تأكيد للأمر بالهبوط ومُتفرع عليه.

- وقوله تعالى: ﴿ .. إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾، أى الأذلاء المحتقرين، وبذلك نعرف أن إبليس طُرِد من الجنة بسبب الكِبْـر والاستعلاء والغرور، فكان من الصاغرين.

ويُبين الحق سبحانه مـاذا طلب إبليس قبل أن يُطرد من الجنة، بقوله تعالى:

٥- ﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ آية رقم ١٤ من سورة الأعراف.

أى قال إبليس يا رب أمْهلنى وذريـتى، إلى يوم يُبْعث آدم وذريته؛ فأشهد حياتهم وانقراضهم، لأجد الفُسْحة الطويلة لإغوائهم - فأجابه الله إلى طلبه.

٦- قوله تعالى: ﴿ .. إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ من الآية رقم ١٥ من الأعراف.

فـإبليس من المنظـرين، إلى وقت النفـخـة الأولى حـيث تُصْـعَق الخلائق.

- وقوله أنظرنى، مأخوذ من الإنْظار، بمعنى الإمهال والتأخير.

وقد يَسْأل سائل، لِماذا أجاب الله تعالى إبليس إلى طلبه؟

فيقـال إن الله أجابه إلى طلبه، لِمـا فى ذلك من الحِكمة، والإرادة والمشيئة التى لا تُخالف، ولا مُعقِّب لِحكمه.

- وقوله تعالى: ﴿ .. إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾، معناه من المؤخرين إلى يوم الوقت المعلوم، وهو وقت النفخة الأولى؛ فيـموت إبليس كما يموت غيره بمشيئة الله تعالى.

ثم حكى القرآن ما توعد به إبليس آدم وذريته من كيد وأذى فقال:

٧- ﴿ **قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾ آية رقم ١٦ من الأعراف.

قال إبليس: فبسبب إغوائك إياى من أجل آدم وذريته، أقسم لأقعدن لهم على صراطك المستقيم؛ فأصدنهم عنه وأقطعه عليهم، بأن أزين لهم طرق الضلال والغواية.

وبذلك تكون الباء للقسم أو للسببية، والإغواء خَلْق الغَىّ، بمعنى الضلال، وأصل الغَىّ الفساد، يقال أغواه وغواه يعنى أضلَّه.

٨- وبعد طلب إبليس الإنظار، واستجابة الله له، أقسم بأنه سوف يُغوى بنى آدم بقوله تعالى:

﴿ **ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ...** ﴾ من الآية رقم ١٧ من سورة الأعراف.

وقوله: ﴿ **ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ..** ﴾ - أى من قبل الآخرة، لأنها مُستقبلة آتية، وما هو كذلك فكأنه بين الأيدى، ﴿ **.. وَمِنْ خَلْفِهِمْ..** ﴾ - أى من قِبل الدنيا، لأنها ماضية بالنسبة إلى الآخرة، ولأنها فانية متروكة، ﴿ **.. وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ..** ﴾ أى من جهة حسناتهم وسيئاتهم، بحيث أُزين لهم السيئات، وأزهدهم فى الحسنات.

وفى حديث جامع لرسول الله ﷺ فى هذا الصدد قوله:

«إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بِطريق الإسلام، فقال أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟ قال: فعصاه وأسلم. وقعد له بِطريق

الهجرة، فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطول؟ فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، وهو جهاد النفس والمال ـ فقال: تُقاتل فتُقتل، فتُنكح المرأة ويُقسم المال؟ قال فعصاه فجاهد، قال رسول الله ﷺ: فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقًا على الله أن يُدخله الجنة، أو قُتل كان حقًا على الله عز وجل أن يُدخله الجنة، وإن غَرق كان حقًا على الله أن يُدخله الجنة، أو قُتل كان حقًا على الله عز وجل أن يُدخله الجنة، أو وقصته دابة، كان حقًا على الله أن يُدخله الجنة»[1].

وهكذا يتربص الشيطان لابن آدم، فى كل الأوضاع لِيُبْعده عن طريق الحق؛ فلنحذر.

وزيادة فى الإغواء والإضلال، الذى أخذه الشيطان على عاتقه، بيَّن أنه سوف يأتى بنى آدم من الجهات الأربع التى اعتاد العدو أن يهاجم منها، ولم يقل من فوقهم، لأن الفوق فيه رحمة الله، فلا يستطيع الشيطان أن يحول بين الإنسان وبين رحمة ربه.

ولم يقل من تحتهم، لأنه مكان السجود، وبسببه طُرِد إبليس من الجنة، وأيضًا لأن التحت مكان الاغتيال.

ومما ورد فى التحذير من الشيطان وكيده قوله تعالى:

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[2].

---

(١) مسند الإمام أحمد جـ٣ ص٧٨٣ أخبرنى سالم بن أبى الجعد عن سبرة عن أبيه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: .... الحديث.

(٢) الآية رقم ٦ من سورة فاطر.

أى إن الشيطان لكم أيها الناس عدو لدود، وعداوته قديمة فعادوه كما عادكم، ولا تُطيعوه، وكونوا على حذر منه، إن غرضه أن يَقْذف بأتباعه فى نار جهنم والعياذ بالله.

ومن دعوات الرسول ﷺ فيما رواه ابن ماجه.

«اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى الدنيا والآخرة، اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى، اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى، اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى، وأعوذ بعظمتك أن أُغتال من تحتى»(١).

دعوات ضارعات، للتعوذ بالله من كل طرق الشيطان وأحابيله.

وبعد أن حذر الله من إغواء الشيطان بكل طرقه، أتبع ذلك بأن سيكون أكثر الناس غير شاكرين بقوله تعالى:

- ﴿ .. وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ - آخر الآية رقم ١٧ من سورة الأعراف.

يعنى أن أكثرهم لا يكونون مُطيعين مستخدمين جوارحهم فيما خُلقت لأجله، فلا يكونون شاكرين لله على نِعمه، لأنهم اتبعوا الشيطان.

وقد رقت الملائكة لبنى آدم، بعد هذا الوعيد الشيطانى الذى أقسم به إبليس فى حضرة ربه، فقالت يا ربنا كيف يتخلص الإنسان من الشيطان مع استيلائه عليه من معظم الجهات، فأوحى الله تعالى إليهم، أنه قد أبقى للإنسان جهتى الفوق والتحت، فإذا رفع يديه إلى فوق

---

(١) سنن ابن ماجة - كتاب الدعاء، ١٤- باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى جـ٢ ص١٢٧٣ رقم الحديث ٣٨٧١ عن ابن عمر رضى الله عنهما.

بالدعاء على سبيل الخضوع، أو وضع جبهته على الأرض بطريق الخشوع غُفـرت له ذنوبه»[١]ـ وذلك من فضل الله الغفـور الرحيم، لِنسارع إلى الاستغفار.

ثم حكى القرآن ما توعد الله به الشيطان وأتباعه فقال سبحانه:

٩- ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ـ آخر الآية رقم ١٨ من سورة الأعراف.

أى قال المولى سبحانه لإبليس مُكررًا الأمـر بالخروج، فاخرج منها حالة كونك مذءومًا مدحورًا، فالنصب فى الكلمتين على الحال.

- ومذءومًا يعنى مُحتقرًا، ومدحورًا مطرودًا مُبْعدًا.

والـلام ﴿.. لَّمَن تَبِـعَكَ..﴾ ـ مُوطئة للقـسم، وجواب القسم لأملأن، ومعنى ﴿.. مِنكُمْ..﴾ ـ أى منكم ومنهم، فغلَّب المخاطب، ولكن العبارة تشـمل إبليس وذريته، والبشر الذين سـاروا فى ركبهم فى الضلالة.

والجملة بعد القول فى محل نصب مَقول القول، والضمير فى قوله ﴿.. مِنْهَا..﴾، كما سبق يُراد به الجنة، أو زمرة الملائكة أو الروضة التى فى عدن، والهبوط منها معنوى لا حسى والله أعلم.

وبذلك ينتهى المبحث الثـالث فى نِعم الله على خلقه، وكيف أنهم لم يشكروها، والحوار مع إبليس اللعين، وطرده من رحمة الله تعالى.

ثم ينتـقل الحديث بعدهـا إن شاء الله إلى المبحث الـرابع، بأمر الله تعالى لآدم بالسكنى فى الجنة، وعدم الاقتراب من أحد أشجارها.

(١) غرائب القرآن للنيسابورى جـ٨ ص٨٨.

المبحث الرابع

أمر الله تعالى لآدم بالسُكنى فى الجنة وعدم الاقتراب من إحدى أشجارها

ويضم الآيات من أول رقم ١٩ بقوله تعالى: ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ... ﴾ إلى آخر الآية رقم ٢٥ بقوله تعالى: ﴿ .. وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾.

﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) ﴾.

تمهيد:

بعد أن بينت الآيات السابقات، كيف طُرد إبليس من الجنة بسبب تكبره عن أمر ربه، وكيف توعد إبليس بنى آدم بالغِواية والإضلال،

والقعـود بالمرصاد، بكل طريق لِيصـدهم عن السبيل، وكـيف كرر الحق سبحانه طرده مذءومًا مطرودًا لعينًا.

جاءت الآيات التى بعـدها، والتى معنا الآن، لِتُبين أمـر الله تعالى لآدم بالسكنى والاستقرار فى الجنة، وعدم الاقتراب من إحدى أشجارها، ثم غِوايـة الشيطان لآدم وزوجـه، حتى أكلا مـن الشجرة، ولما اسـتطاع الشـيطان غِواية آدم وحـواء، أنزلهـما الله تعـالى من الجنة إلى الأرض، لِيحـقق مُراده، ومـا سبق به علمـه، من بداية معركـة الخيـر والشر بين الشيطان وذريته، وآدم وذريته لِيقضى الله أمرًا كان مفعولا.

أ- المفردات:

- قـوله تعـالى: ﴿وَيَــا آدَمُ..﴾ من الآية رقم ١٩ مـن سـورة الأعراف.

فيها إيجاز بالحذف، أى وقلنا يا آدم.

- وقوله: ﴿.. اسْكُنْ..﴾ من الآية رقم ١٩ من سورة الأعراف.

من السكنى وهى اللُّبث والإقامة والاستقرار.

- وقوله تعالى: ﴿.. وَزَوْجُكَ..﴾ - من الآية رقم ١٩ من سورة الأعراف.

والزوج يُطلق على الرجل والمرأة، والمراد به هنا حواء، حيث تقول العرب للمرأة زوج.

- وقوله ﴿.. الْجَنَّةَ..﴾ ـ من الآية رقم ١٩ من سورة الأعراف.

هى كل بستان ذى شجر، مُلتف الأغصان مُتشابك الفروع يُظلِّل ما تحته ويستره من الجَنِّ: وهو ستر الشىء عن الحواس.

- قوله تعالى: ﴿.. وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ..﴾ من الآية رقم ١٩ من سورة الأعراف.

عَبَّر عن الأكل بالقرب، مُبالغة فى النهى عن الأكل مِنها.

- قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ..﴾ من الآية رقم ٢٠ من سورة الأعراف.

الوسوسة: الصوت المكرر ـ والمراد هنا ما يجدونه من الخواطر التى تُزيِّن ما يَضر.

- وقوله: ﴿.. مَا وُورِيَ عَنْهُمَا..﴾ ـ من الآية رقم ٢٠ من سورة الأعراف أى ما سُتر وغُطِّى.

- وقوله: ﴿.. مِن سَوْءَاتِهِمَا..﴾ من الآية رقم ٢٠ من سورة الأعراف.

السوءة: ما يسوء الإنسان إظهارها، وانكشافها، وقيل الكلام كِناية عن إزالة الحرمة.

- قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا..﴾ من الآية رقم ٢١ من سورة الأعراف.

أقسم لهما بِجد ونشاط، وأكد الخبر بالقسم وبإن واللام، لِدفع شبهة الكذب.

- قوله: ﴿.. بِغُرُورٍ..﴾ ـ من الآية رقم ٢٢ من سورة الأعراف.

الغرور: الخِداع بالباطل.

- قوله: ﴿.. يَخْصِفَانِ..﴾ من الآية رقم ٢٢ من سورة الأعراف.

يعنى يرقعان ويَلزقان ورقة فوق ورقة، حتى يسترا ما ظهر من عوراتهما.

- قوله: ﴿ .. فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ .. ﴾ ـ من الآية رقم ٢٥ من سورة الأعراف.

بين الجملتين طِباق من المحسنات البديعية.

ب- المناسبة:

بعد أن بيَّنت الآيات السابقات، كيف طُرد إبليس من الجنة بسبب تكبره عن أمر ربه، وكيف توعد إبليس بنى آدم بالغواية والإضلال، والقعود بكل طريق مستقيم ليصدهم عنه، وكيف كرَّر الحق سبحانه طرده منها مذءومًا مطرودًا لعينًا.

جاءت الآيات التى معنا لِتبين أمر الله لآدم بالسكنى والاستقرار فى الجنة، وعدم الاقتراب من إحدى أشجارها، ثم غِواية الشيطان لهما حتى أكلا من الشجرة.

ولما استطاع الشيطان غِواية آدم وحواء، أنزلهما الله تعالى من الجنة إلى الأرض، لِيحقق مراده وما سبق به علمه، من بداية معركة الخير والشر بين الشيطان وذريته وآدم وذريته، ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ .. ﴾ ـ من الآية رقم ١٩ من سورة الأعراف.

جـ- التفسير التحليلى للآيات من أول رقم ١٩ إلى آخر رقم ٢٥ من سورة الأعراف:

١- قوله تعالى: ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ الآية رقم ١٩ من سورة الأعراف.

صَدَّر الحق سبحانه الكلام بالنِّداء، للتنبيه على الاهتمام بالمأمور به، وتخصيص الخطاب بآدم عليه السلام، للإيذان بأصالته بالتلقى وتعاطى المأمور به.

وخطاب الله تعالى موجه لآدم وزوجه، لِيعهد إليهما ربهما بأمره، وليمهد لهما بالخلافة فى الأرض، حيث أذن لهما بالمتاع الحلال، ووصاهما بالامتناع عن المحظور.

وقوله تعالى: ﴿ .. اسْكُنْ.. ﴾ ـ من السكنى، وهو اللُّبث والإقامة والاستقرار، دون السكون الذى هو ضد الحركة، «يعنى يلازم الإقامة على طريق الإباحة والتكريم»[1]ـ وذلك من فضل الله تعالى.

والزوج يُطلق على الرجل والمرأة، والمراد به هنا حواء، حيث تقول العرب للمرأة زوج.

والجنة: هى كل بستان ذى شجر مُلتف الأغصان، يُظلل ما تحته ويستره من الجَنِّ، وهو ستر الشىء عن الحواس.

واختلف علماء السلف والخلف فى حقيقة الجنة المقصودة فى الآية على رأيين.

أ- يرى جمهور السلف وأهل السنة أن المراد بها هنا دار الثواب التى أعدها الله للمؤمنين فى الآخرة، لأن هذا هو المتبادر إلى الذهن عند الإطلاق.

ب- ويرى جمهور الخلف والمعتزلة، أن المراد بها هنا بُستان بمكان مرتفع من الأرض خلقه الله لإسكان آدم وزوجه، وقد اختلفوا فى المكان

---

(١) روح البيان لإسماعيل حقى جـ٣ ص١٤٤.

الذى يقع فيه، ودليلهم أن الجنة ليست دار تكليف ولا عصيان ولا يَدخل فيها إبليس.

وعلينا أن نُومن بهـذا النص، دون الخوض فى تعيين الجـنة ومكانها والقطع بذلك، إذ ليس لهذه المسـألة تأثير فى العقيـدة، بحيث لا يترتب على الجهل به قدح فى الإيمان.

- وتوجـيه الخطاب إليـهـما فى قـوله: ﴿ .. فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا .. ﴾، لِتعميم التشريف، والإيذان بتساويهما فى مباشرة المأمور به، أى كُلا من مطاعم الجنة وثمارها أَكْلا واسعًا.

- وبعـد أن أذن الله تعالى لهـمـا بالأكل من ثمـار الجنة، نهاهمـا لِحكمة وإرادة عن الأكل من شجرة بِعينها فقال:

﴿ .. وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ آخر الآية رقم ١٩ من سورة الأعراف.

والقرب أى الدنو، والمنهى عنه هو الأكل من شجرة مُعينة.

والنهى عن القـرب للمبالغـة، ويترتب على الأكل من الشـجرة أن يكونا من الظالمين، فقد ظلموا أنفسهم بِمخالفة أمر ربهما.

والله تعالى نهى آدم وزوجه عن الأكل من شـجرة بِعينها، ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين.

«وقد اختلفـوا فى هذه الشجرة، وقد أبهم الله ذكرها وتعـيينها ولو كان فى ذكرها مصلحة تعود علينا لذكرها»[1]ـ وذلك لِحكمة بالغة.

---

(١) روح البيان لإسماعيل حقى جـ٣ ص١٤٤.

وقد ذكر فى شأن هذه الشجرة آراء، «وقيل هى السنبلة وقيل شجرة الكرم»[١]- وقيل التينة وغير ذلك.

والصواب أن يُقال إنهـا شجرة بِعينها من أشـجار الجنة، دون سائر أشجارها، ولا عِلم عندنا من قرآن وسنة بحقيـقتها أو نوعها، وهى فقط للابتلاء والاختبار، وكل ما يقال: إن علمها لا ينفع صاحبه، والجهل بها لا يضر كذلك.

- وإن أكـلا من الشـجـرة يُصبـحـا من الظالمين بقـوله تعـالى: ﴿..فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ - آخر الآية رقم ١٩ من سورة الأعراف.

والفـعل ﴿فَـتَكُونَا﴾ - يحتمل أن يكون مَـجْزومًا بالعطف على ﴿تَقْـرَبَا﴾ أو النصب عطفًا على أنه جـواب النهى، بأن مُضمـرة بعد الفاء»[٢].

و﴿.. مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ - آخر الآية رقم ١٩ من سورة الأعراف - شبه جملة فى محل نصب خبر تكونا.

والكون من الظالمين، مُتسبب عن القرب المنهى عنه.

وبدأ الشيطان يُمارس الغِواية، وبين القرآن بعد ذلك ما وقع فيه آدم وزوجه من أخطاء.

٢- فقال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ آية رقم ٢٠ من سورة الأعراف.

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشرى جـ٢ ص١٠٣.

(٢) تفسير أبى السعود جـ٢ ص٢٤٣ والفتوحات الإلهية جـ٣ ص١٧.

أى بدأ الشيطان يُمارس مهمة الغواية والإضلال، كما أخذ على نفسه وأقسم على ذلك.

فألقى إليهما إبليس الوسوسة، والوسوسة فى الأصل الصوت الخفى، ومنه قيل لصوت الحلى وسواس، والمراد بها هنا الحديث الخفىُّ الذى يُلقيه الشيطان فى قلب الإنسان ليُقارف الذنب.

- وقوله: ﴿ .. لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا .. ﴾ من الآية رقم ٢٠ من سورة الأعراف.

وورى من المواراة، وهى الستر، والسوءة فرج الرجل والمرأة من السوء.

وسُميت بذلك لأن انكشافها يسوء صاحبها، وقيل الكلام كِناية عن إزالة الحرمة.

والمعنى أن إبليس وسوس إلى آدم وحواء، بأن يأكلا من الشجرة المحرمة، لِتكون عاقبة ذلك أن يظهر لهما ما سُتِر عنهما من عوراتهما، وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر، وفى هذا تعبير صريح، بأن كشف العورة هو من الفواحش التى نهى الله تعالى عنها.

وقوله تعالى: ﴿ .. وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ ـ آخر الآية رقم ٢٠ من سورة الأعراف.

أى قال عطفًا على وسوس بِطريق البيان ـ كذبًا وافتراءً، ما نهاكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة، لئلا تكونا ملكين أو خالدين ها هنا، ولو أنكما أكلتما من الشجرة، لحصل لكما ذلك.

أى قال لهـما مـا نهاكمـا ربكما عن الأكل من هذه الشـجرة، إلا كراهيـة أن تكونا ملكين، أو تكونا من الخالدين الذين لا يموتون ويبـقون فى الجنة ساكنين.

واعتـمد الشيطان هنا على مـداعبة رغـائب الإنسان الكامنة فى أن يكون ملكًا مُخلَّدًا، وأن يكون صاحب ملك لا يَبلى.

ولما كان إبليس يعلم أن الله قد نهـاهما عن هذه الشجرة، وأن هذا النهى له ثِقله فى نفوسهما وقوته، فقد استعان على زعزعته بالحلف لهما بالله إنه لناصح لهما، صادق فى نصحه فقال تعالى:

٣- ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ آية رقم ٢١ من سـورة الأعراف.

فقد حكى القرآن أن إبليس لم يكتف بالوسوسة، أو بالقول المجرد، وإنما أضاف إلى ذلك القسم المؤكد.

أى أقسم لهما بالله، إنه لهما لمن الناصحين المخلصين الذين يسعون لِما فيه منفعتهما.

ونسى آدم وزوجه تحت تأثيـر الشهـوة الدافعة والقَـسَم المخدِّر، أنه عدوهما الذى لا يمكن أن يدلهما على خير.

وأن الله تعالى أمرهما أمرًا واجب الطاعـة، سواء عَرِفا عِلَّته، أم لم يعرفاها، نسيا ذلك كله ووقعا فى الخطأ والذنب.

ثم حكى القـرآن، كـيف نجح إبليس فى خـداع آدم وحـواء فقـال تعالى:

٤- ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ..﴾ - من الآية رقم ٢٢ من سورة الأعراف.

أى: فأنزلهما عن رتبة الطاعة، إلى رتبة المعصية وأطمعهما فى غير مطمع بسبب ما غرهما به من القسم.

ودلاهما مأخوذ من التدلية، وأصله أن الرجل العطشان يُدْلى بِدلوه فى البئر، ليشرب من مائها، فإذا ما أخرج الدلو لم يجد به ماء، فيكون مدليًا فيها بِغرور، والغرور إظهار النصح مع إبطان الغِش، وأصله من غررت فلانًا، أى أصبت غُرَّته وغفلته ونِلت منه ما أريد.

يعني استزلهما الشيطان إلى الأكل من الشجرة بغروره وخداعه وإظهار النُّصح وإبطان الغش، وإطماعهما أن يكونا ملكين أو خالدين لا يموتان، وبِقسمه أنه ناصح لهما.

- وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ...﴾ من الآية رقم ٢٢ من سورة الأعراف.

ثم بين القرآن الكريم الآثار التى ترتبت على هذه الخديعة من إبليس لآدم وزوجه، فقال تعالى:

- ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ...﴾ من الآية رقم ٢٢ من سورة الأعراف.

أى فلما خالفا أمر الله تعالى: بأن أكلا من الشجرة التى نهاهما الله تعالى عن الأكل منها، أخذتهما العقوبة وشُؤم المعصية، فتساقط عنهما لِباسهما، وظهرت لهما عوراتهما، وشَرعا يلزقان من ورق الجنة ورقة فوق أخرى على عوراتهما لِسترهما.

ولما ذاقا الشجـرة، وقد نُهيا عن الأكل منهـا، ظهر لهما أنهـما قد زلا، وبدت منهما سـوأة المعصية، فاسـتحوذ عليهما الخـوف والحياء من ربهما، فأخذا يـفعلان ما يفعل الخائف من الاستتـار والاستخفاء، وذلك بِخصف أوراق الجنة عليهما ليستترا بها وما لهما إذ ذاك حيلة.

وأهبط الله آدم وزوجـه إلى الأرض «وعلّمه صنعـة الحديد، وأمـره بالحرث والزرع والسّقى، والطحن والعجن والخبز»[1] وهكذا.

وآدم عليـه السلام، قـد وقع فى خطأين، الأول منهمـا الأكل من الشجرة التى نُهِيا عن الأكل منها، والثانى أنهما أطاعا الشيطان وهو لهما عدو مبين.

فلما سَمِعا النداء الربانى بتقريعهمـا ولَوْمِهما، ألهمهما الله أن يتوبا إليه، فقال سبحانه:

﴿قَـالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُـسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْـفِـرْ لَنَا وَتَرْحَـمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ آية رقم ٢٣ من سورة الأعراف.

اعتراف من آدم وحواء بالخطأ، وطلب التوبة والرحمة من الله تعالى ـ بِخلاف إبليس الذى طلب الإنظار، وهذه هى خصـائص الإنسانية التى توصل الإنسـان بربه، وتفتح فى وجـهه أبواب الرحـمة، إنه الاعـتراف والندم والاستغفار مع اليقين بأنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

قال أبو حيان: «قال الضحاك هذه الآية هى الكلمات التى تلقى آدم من ربه، وقيل سعد آدم بِخمسة أشياء، الاعتراف بالمخالفة والندم عليها، ولوم النفس والمسارعة إلى التوبة وعدم القنوط من رحمة الله تعالى.

---

(١) تفسير الطبرى جـ٧ ص١٤٢.

وشَقِى إبليس بخمسة أشياء: لم يُقر بالذنب، ولم يندم ولم يلم نفسه، بل أضاف إلى ربه الغواية وقَنط من الرحمة»[1]ـ وهذه علامات الضلال، نسأل الله تعالى أن يُجنِّبنا إياها من فضله وكرمه.

- وقوله تعالى: ﴿ .. وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ آخر الآية رقم ٢٣ من سورة الأعراف.

وقوله: ﴿ .. لَنَكُونَنَّ .. ﴾ ـ جواب قسم محذوف، والتقدير والله إن لم تغفر لنا، واللام الموطئة للقسم قبلها دليل ذلك.

وقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا .. ﴾ أى أضررناها بالمعصية والمخالفة، وإن لم تغفر لنا ما سلف من ذنوبنا وترحمنا بقبول توبتنا، لنكونن من الخاسرين، أى لنصيرن من الذين خسروا أنفسهم فى الدنيا والآخرة.

وبعد هذا الصراع بين إبليس وآدم وزوجه، والذى تم بعصيان آدم لأمر ربه بالأكل من الشجرة، أمر الله تعالى بهبوطهم جميعًا إلى الأرض، بقوله تعالى:

٦- ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ الآية رقم ٢٤ من سورة الأعراف.

وقوله تعالى: ﴿ .. اهْبِطُوا .. ﴾ أى من الجنة ـ وقيل الخطاب لآدم وحواء وذريتهما، وإبليس وقبيله.

وجملة بعضكم لِبعض عدو فى محل نصب حال.

(١) البحر المحيط لأبى حيان جـ٥ ص٢٨.

والتقدير: اهبطوا إلى الأرض، حال كون العداوة لا تنفك بين آدم وذريته، وبين إبليس وذريته، ولكم فى الأرض موضع استقرار ومتاع، إلى حين انتهاء آجالكم.

ثم قرر الحق بعد إهباط آدم وزوجه وإبليس وذريتهما أن فى الأرض مُستقرهم، إلى حين انتهاء آجالكم بقوله تعالى:

٧- ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ آخر الآية رقم ٢٥ من سورة الأعراف.

ففى الأرض تموتون، ومنها تُخرجون للجزاء والحساب يوم القيامة بمشيئة الله تعالى.

كما فى قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾[1].

أى من الأرض خلقناكم أيها الناس، وإليها تعودون بعد مماتكم فتصيرون تُرابًا، ومن الأرض نخرجكم مرة أخرى للبعث والحساب بمشيئة الله تعالى.

يقول صاحب الظلال وهبطوا جميعًا إلى هذه الأرض آدم وزوجه وإبليس وقبيله، هبطوا لِيُصارع بعضهم بعضًا، ولِتدور المعركة بين طبيعتين وخلقتين، إحداهما ممحضة للشر، والأخرى مزدوجة الاستعداد للخير والشر، ولِيتم الابتلاء، ويجرى قدر الله بما شاء.

وكتب على آدم وذريته، أن يَستقروا فى الأرض ويمكنوا فيها وليتمتعوا بما فيها إلى حين، وفيها مماتهم ومنها خُروجهم للبعث

(١) آية رقم ٥٥ من سورة طه.

والحساب، ليعودوا إن فلحوا إلى الجنة التى حُرِموها»[١]ـ هكذا شاء قدر الله جل فى علاه.

فهل لنا من عِظة لنحترس من شر الشيطان وكيده.

وبهذا ينتهى المبحث الرابع، فى أمر الله تعالى لآدم بالسكنى فى الجنة، وعدم الاقتراب من أحد أشجارها، والذى ضم الآيات من أول رقم ١٩ إلى آخر رقم ٢٥ من سورة الأعراف.

وتنتقل الدراسة بعد ذلك إلى المبحث الخامس فى النداءات الأربع لبنى آدم، وحضهم فيها على تقوى الله تعالى، وحذرهم فيها من الشيطان وكيده.

(١) فى ظلال القرآن لسيد قطب جـ٣ ص١٢٧.

المبحث الخامس

النداءات الأربع لبنى آدم

حضهم فيها على تقوى الله تعالى وحذرهم من الشيطان

ويضم الآيات من أول رقم ٢٦ من سورة الأعراف بقوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا... ﴾ - إلى آخر الآية رقم ٣٦ بقوله تعالى: ﴿ .. أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧) وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٠) يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا

لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦) ﴾.

تمهيد:

وبعد أن قَصَّ القرآن على بنى آدم قصة خلقهم وتصويرهم، وما جرى بين أبيهم وبين إبليس، وكيف أن إبليس قد خدع آدم وزوجه خداعًا ترتب عليه إخراجهم من الجنة.

بعد كل ذلك أورد القرآن الكريم، أربعة نداءات لِبنى آدم حَضهم فيها على تقوى الله، وحذَّرهم من وسوسة الشيطان، وذكرهم بِنعمه عليهم لعلهم يذكرون.

أ- المفردات:

- القِسط فى الآية رقم ٢٩ من سورة الأعراف، هو العدل فى الأمور كلها، دون إفراط أو تفريط.

- ﴿ .. وُجُوهَكُمْ .. ﴾ من الآية ٢٩ من سورة الأعراف.

جمع وَجْه، وهو ما تقع به المواجهة، وبه يكون السجود، أو هو كناية عن توجه القلب وصحة القصد.

- ﴿ .. زِينَتَكُمْ .. ﴾ من الآية رقم ١٣ من سورة الأعراف.

المراد بها هنا الثوب الحسن، الذى تُستر به العورة، وبه يكون التزين والتَّجمل.

- ﴿ .. عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ .. ﴾ من الآية رقم ٣١ من سورة الأعراف.

- ﴿ .. عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ .. ﴾ - مجاز مرسل علاقته المحلية، لأن المراد بالمسجد هنا الصلاة والطواف، ولما كان المسجد مكان الصلاة - أطلق ذلك عليه.

- ﴿ .. الْفَوَاحِشَ .. ﴾ من الآية رقم ٣٣ من سورة الأعراف.

وهى جمع فاحشة، وهى كل فِعْلة مُفْرِطة فى القبح.

- ﴿ .. مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ .. ﴾ - من الآية ٣٣ من سورة الأعراف.

بين ظهر وبطن - طباق من المحسنات البديعية.

- قوله ﴿ .. وَالإِثْمَ .. ﴾ من الآية ٣٣ من سورة الأعراف.

هو الشىء القبيح الذى فعله يعتبر معصية - ويستوجب الإثم والذنب.

- قوله: ﴿ .. وَالْبَغْيَ .. ﴾ - من الآية ٣٣ من سورة الأعراف.

البَغى هو الظلم والتطاول على الناس وتجاوز الحد.

- قوله: ﴿ .. أَجَلُهُمْ .. ﴾ - من الآية رقم ٣٤ من سورة الأعراف.

والأجل هو الوقت الذى ضربه الله عليهم، واستأثر به علمه.

- وقوله: ﴿ .. سَاعَةً .. ﴾ من الآية رقم ٣٤ من سورة الأعراف.

هى أقل وقت يمكن فيه قضاء عمل من الأعمال.

- وقوله: ﴿ .. يَقُصُّونَ .. ﴾ - من الآية رقم ٣٥ من سورة الأعراف.

يعنى يتلون ويقرؤون آياتى.

ب- أسباب النزول:

ما رواه النيسابورى: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كانت المرأة تطوف بالبيت فى الجاهلية وهى عريانة، وعلى فرجها خِرقة، وهى تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله   وما بداه منه فلا أحله

فنزلت: ﴿ .. خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ .. ﴾ - من الآية رقم ٣١ من سورة الأعراف»[١].

بل كان الرجال كذلك يطوفون عرايا، ويقولون كيف نطوف من ثياب عصينا الله فيها؟!

جـ- المناسبة:

بعد أن وضحت الآيات السابقات، كيف خلق الله آدم وذريته، وكيف سجدت له الملائكة امتثالا لأمر ربها، وامتنع إبليس من السجود.

ونية الشر والسوء التى أعلنها إبليس فى حضرة ربه، تجاه آدم وذريته.

وكانت النتيجة أن أُخرج آدم من الجنة، بعد أن زين له الشيطان ولزوجه بالأكل من الشجرة المحرمة، وترتب على ذلك ظهور عوراتيهما، فبين الله لِبنى آدم هذه الحادثة حتى يأخذوا حذرهم، ووضح أنه بهم رحيم، حيث ألهمهم صُنْع اللِّباس الذى يستر العورات، والريش الذى يتزينون به، ودلَّهم على خير لِبَاس يتزين به المسلم وهو لباس التقوى.

(١) أسباب النزول للنيسابورى ص١٦٩.

«وكشف العورة مهانة وفضيحة، وأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى»[١].

ومفهوم هذه الآيات الكريمات، يدل على عدم إباحة كشف العورات.

د - التفسير التحليلى للآيات من أول رقم ٢٦ إلى آخر رقم ٣٦ من سورة الأعراف:

النِّداء الأول:

يذكرهم بِنعمه عليهم، حيث ألهمهم صُنْع ما يسترون به عوراتهم.

١- فقال تعالى:

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا...﴾ من الآية رقم ٢٦ من سورة الأعراف.

والسوءة: العورة، والريش لِباس الزينة، واستعير من ريش الطائر لأنه لِباسُهُ وزِينته.

نِداء من الحق سبحانه لِبنى آدم، يذكرهم بِنعمه عليهم، حيث ألهمهم صُنْع ما يسترون به عوراتهم من أنواع اللباس وما يتزينون به فى مناسبات التَّجمل والتَّعبد، وهذا هو المقصود بالريش.

والمراد بإنزال ما ذكر، أنه خلق لِبنى آدم مادة هذا اللباس التى تتكون من القطن والصوف والحرير والكتان وما إليها، وألهمهم بما خَلَق فيهم من غرائز طرق استنباتها، وصِناعتها بالغزل والنسيج والحياكة وما إليها.

---

(١) الكشاف للزمخشرى جـ٢ ص٧٤.

وفى ذلك دليل واضح على فَضْل الله وكرمه سبحانه.

والتعبير بأنزلنا، يُفيد خُصوصية البشر باللباس الذى يَسْتر العورة، وبالرياش التى يتزينون بها، أى أنزلنا عليكم لِباسين، لِباسًا يوارى سوآتكم، ولِباسًا يُزينكم، لأن الزينة من طَبيعة البشر، يقول تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً...﴾[1].

أى وخلق الخيل والبِغال والحمير، للحمل والركوب، وهى كذلك زينة وجمال.

ويجب على المؤمن أن يُقابل هذه النِّعم بالشكر، كُلما رُزِق منها بجديد.

«وعن أبى العلاء الشامى، قال لَبِس أبو أمامة ثوبًا جديداً، فقال حين يبلغ ترقوته الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى، وأتجمل به فى حياتى، ثم عمد إلى الثواب الذى خَلَقَ؛ فتصدق به كان فى ذِمة الله وفى جِوار الله، وفى كَنَفِ الله حيًّا وميتًا»[2]- يعنى تصدق بثوبه القديم.

وهذا اعتراف بِفضل الله ونِعْمته وشكر لها.

«وعن المختار بن نافع، حدثنى أبو مطر البصرى وكان قد أدرك عليا رضى الله عنه، أن عليا اشترى ثوبًا بِثلاثة دراهم، فلمًّا لَبِسه قال الحمد لله الذى رزقنى من الرِّياش ما أتجمل به فى الناس، وأوارى به عَورتى، ثم قال: هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقول»[3].

(١) من الآية رقم ٨ من سورة النحل.
(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل جـ١ ص٤٤.
(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل جـ١ ص١٥٧.

- وقوله تعالى: ﴿ .. وَرِيشًا .. ﴾ - من الآية رقم ٢٦ من سورة الأعراف.

يُحتمل أن يكون منصوبًا، من باب عطف الصِّفات، والمعنى أنه وصف اللباس بوصفين: مواراة السوأة والزينة، ويحتمل أن يكون منصوبًا بالعطف على المفعول به، والمعنى: أنزلنا عليكم لِباسًا، موصوفًا بالمواراة، ولِباسًا آخر موصوفًا بالزينة.

هذا فيما يخص ستر العورات الحِسية، وهناك لِباس آخر يُغطِّى فى الإنسان العورات الحسية والمعنوية، وهو لباس التقوى، وتعبير القرآن عنها باللباس، من باب المشاكلة للسياق وفى ذلك تصوير استعارى، وهذا لباس آخر أفضل وأكمل.

- فقال: ﴿ .. وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ .. ﴾ - من الآية رقم ٢٦ من سورة الأعراف.

أى أن اللباس الذى يصون النفس عن الدنايا والأرْجاس ويَسْترها بالإيمان والعمل الصالح، هو خير من كل لباس حِسى يتزين به البشر.

فاسم الإشارة هنا ﴿ذَٰلِكَ﴾ - يعود على ﴿لِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾.

وقد عبر القرآن هنا عن التقوى، بأنها لِباس، وعَبَّر عنها فى موضع آخر بأنها زاد، مُشاكلة للسياق الذى وردت فيه هنا أو هناك وذلك من باب تجسيم المعنويات وتنسيقها مع الجو العام الذى وردت فيه.

قال الزمخشرى: وقوله ﴿ .. لِبَاسُ التَّقْوَىٰ .. ﴾ - مبتدأ وخبره إما الجملة التى هى ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ . والمعنى: هو خير، أو يكون الخبر

﴿خَيْرٌ﴾ ، و﴿ذَلِكَ﴾ - صفة للمبتدأ، كأنه قال: ولباس التقوى المشار إليه خير»[١] - وتلك فلسفة القرآن الكريم المعجزة.

- وقوله تعالى: ﴿.. ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ - آخر الآية رقم ٢٦ من سورة الأعراف.

معناها: ذلك الذى أنزله الله على بنى آدم من النِّعم من دلائل قدرته وإحسانه عليهم، لعلهم بعد ذلك، لا يعودون إلى النسيان الذى أوقع أبويهم فى المعصية.

ثم أتبع القرآن الكريم النداء الأول بنداء آخر مُبالغة فى وعظ بنى آدم، وتذكيرهم بفضل الله تعالى عليهم فقال:

٢- ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ...﴾ من الآية رقم ٢٧ من سورة الأعراف.

وهذا نداء آخر لبنى آدم، حتى لا يغفلوا عن أنفسهم، ويتركوها غير مُحصنة بالتقوى.

والمعنى يا بنى آدم لا يَصرفنكم الشيطان عن طاعة الله، بأن تمكنوه من أن يوقعكم فى المعاصى، كما أوقع أبويكم من قبل فيها؛ فكان ذلك سببًا فى خروجهما من الجنة، التى كانا يتمتعان بنعيمها.

- وقوله تعالى:

﴿.. يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا...﴾ من الآية رقم ٢٧ من سورة الأعراف.

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشرى جـ٢ ص٩٧.

جملة حاليـة من أبويكم، أى أخرجهما من الجنة حـال كونه نازعًا عنهما لِباسهما، وأسْند النزع إلى الشيطان، لأنه كـان مُتسبِّبًا فيه، ثم أكد تحذيرهم من الشيطان بِجملة تعليلية فقال:

- ﴿ .. إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ... ﴾ من الآية رقم ٢٧ من سورة الأعراف.

أى إن الشـيطان وجنوده يـرونكم يا بنى آدم، وأنـت لا ترونهم؛ فالجملة تعليل للـنهى السابق وهو قوله ﴿ .. لا يَفْتِنَنَّكُمُ.. ﴾ - وتأكـيد للتحـذير، لأن العدو إذا أتى من حيث لا يُرى كان أشـد وأخوف، وإن عدواً يراك ولا تراه لشديد المؤنة إلا على من عصمه الله.

- وقوله تعالى: ﴿ وَقَبِيلُهُ ﴾ معطوف على الضمير المستتر فى قوله: ﴿ يَرَاكُمْ ﴾ المؤكد بقوله ﴿ هُوَ ﴾ - الذى يعود على إبليس.

- وقوله تـعالى: ﴿ .. إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ آخر الآية رقم ٢٧ من سورة الأعراف.

أى إنا صـيَّرنا الشـياطين قرنـاء للذين لا يؤمنون، مُسلطين عليـهم متمكنين من إغـوائهم، لأن حكمتنا اقتضت أن يكـون الشياطين، الذين هم شِرار الجن متجانسين مع الكافرين الذين هم شرار الإنس.

وبذلك نرى أن الآية الأولى التى ورد فيهـا النداء الأول، قد ذكَّرت بنى آدم بجانب من نِعم الله عليـهم، ثم جاءت هذه الآية الثانيـة مصدرة بِنداء آخر حـذرتهم فيه من وسوسة الـشياطين ومداخله، حتـى لا يقعوا فيما وقع فيه أبوهم آدم من قبل.

ثم حكى القرآن بعض القبائح التى كان يفعلها المشركون، ورد على أكاذيبهم بما يُدحضها فقال:

٣- ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا . . .﴾ من الآية رقم ٢٨ من سورة الأعراف.

والمعنى: إنهم كانوا إذا فعلوا ما تفاحش من الذنوب اعتذروا وحينما يُطالبون بالدليل على حل ما ارتكبوه، قالوا: آباؤنا كانوا يفعلونها، فنحن نقتدى بهم، والله أمرنا بها، والإخبار يتضمن التقليد لآبائهم، والتقليد باطل، إذ ليس طريقًا للعلم، فهم يقولون على الله ما لا يعلمون.

يقول ابن كثير: «وربما كانت المرأة تطوف عُريانة، فتجعل على فرجها شيئًا، ليستره بعض الستر، وأكثر ما كان النساء يطفن عُراة ليلاً، وكان هذا شيئًا قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، واتبعوا فيه آباءهم، ويعتقدون أن فعل آبائهم مُسْتند إلى أمر من الله؛ فأنكر الله عليهم ذلك، وقال: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا . . .﴾»[(١)].

فالآية التى بين أيدينا تحكى عن هؤلاء المشركين، أنهم كانوا يرتكبون القبائح التى نهى الله عنها، كالطواف بالكعبة عرايا، وكالإشراك بالله، ثم بعد ذلك يحتجون بأنهم قد وجدوا آباءهم كذلك يفعلون، وبأن الله قد أمرهم بذلك.

ولا شك أن احتجاجهم هذا من الأكاذيب، التى ما أنزل الله بها من سلطان، ولذا عاجلهم القرآن بالرد المفحم فقال:

- ﴿. . قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ آخر الآية ٢٨ من سورة الأعراف.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٣٠٨.

أى: قل يا محمد لهؤلاء المفترين على الله الكذب: إن كلامكم هذا يُناقضه العقل والنقل، أما أن العقل يُناقضه ويكذبه؛ فلأنه لا خلاف بيننا وبينكم فى أن ما تفعلونه هو من أقبح القبائح، بدليل أن بعضكم قد تنزه عن فعله، وأما أن النقل يُناقضه ويكذبه، فلأنه لم يثبت عن طريق الوحى، أن الله أمر بهذا، بل الثابت أن الله لا يأمر به، لأن الفاحشة فى ذاتها تجاوز لحدود الله وانتهاك لِحرماته، فهل من المعقول أن يأمر الله بانتهاك حدوده وحرماته؟

والاستفهام فى قوله تعالى: ﴿.. أَتَقُولُونَ..﴾ للإنكار والتوبيخ وفيه معنى النَّهى.

ثم بين سبحانه ما أمر به من طاعات عقب تكذيبه للمشركين فيما افتروه فقال سبحانه:

٤ - ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ...﴾ من الآية رقم ٢٩ من سورة الأعراف.

أى: قل لهم يا محمد (صلى الله عليك وسلم) إن الذى أمر الله به هو العدل فى الأمور كلها، لأنه هو الوسط بين الإفراط والتفريط، كما أنه تعالى قد أمركم أيها الناس، بأن تتوجهوا إليه وحده فى كل عِبادة من عباداتكم، وأن تكثروا من التضرع إليه، بِخالص الدعاء وصالحه فهو مخ العبادة.

- ثم ذكرهم سبحانه بمبدئهم ونهايتهم فقال:

﴿.. كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ آخر الآية ٢٩ من سورة الأعراف.

أى أن الذى قدر على ابتـداثكم وإنشائكم، ولم تكونوا شيئًـا يقدر على إعادتكم، ليجازيكم على أعمالكم - ليجزى الذين أساءوا بماعملوا، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى.

٥- ثم قال تعالى: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ... ﴾ من الآية رقم ٣٠ من سورة الأعراف.

فالناس فريقان: فريقًا هدى وفـريقًا حق عليهم الضلالة - فريق فى الجنة وفريق فى السعير.

فريق أخلصوا لله العبـادة والطاعة، أولئك الذين اهتدوا، أما الذين حقت عليهم الضلالة والتَّخبط - قال الله تعالى فيهم:

- ﴿ .. إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ - آخر الآية رقم ٣٠ من سورة الأعراف.

هؤلاء الضالون المضلون أولياؤهم الشـيطان هو وليهم فمأواهم النار وبئس القرار.

قال صـاحب المنار: «وهذه الجملة من أبلغ الكلام الموجز المعـجز؛ فإنها دعوى مُتضمنة الدليل، بِتشبـيه الإعادة بالبدء، فهو يقول كما بدأكم ربكم خلقًا وتكوينًا بِقدرته، تعودون إليه يوم القيامة حالة كونكم فريقين، فريقًا هداهم الله فى الدنيا؛ فاهتـدوا بإيمانهم به وإقامة وجوههم له وحده فى العبـادة، ودعائه مـخلصين له الدين، وفريقًـا حق عليهم الـضلالة، لاتباعهم إغواء الشيطان، وإعراضهم عن طاعة الرحمن.

وكل فريق يموت على مـا عاش عليه، ويُبعث على مـا مات عليه، ومعنى حقت عليهم الضلالة، ثبتت بثبوت أسبابها الكسبية، لأنها جُعلت

غريزة لهم؛ فكانــوا مجبوريــن عليها، يدل على هذا تعليــلها على طريق الاستئناف البيانى بقوله تعالى:

﴿ .. إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ من الآية رقم ٣٠ من سورة الأعراف.

ومعنى اتخاذهم الشيــاطين أولياء، أنهم أطاعوهم فى كل ما يزينونه لهم من الفــواحش والمنكرات، ويحســبــون أنهم مهــتدون فــيمــا تُلقنهم الشياطين من الشبهات»(١).

وهكذا زَين الله، لِكل أمة عملهم، والكفار لا يُحسون أنهم كفار.

ثم وجه القرآن بعد ذلك نِداءً ثالثًا، إلى بنى آدم أمــرهم فيه بالتمتع بالحلال، وبزينة الله التى أخرجها لِعباده بدون إسراف أو تبذير.

٦- فقال سبحانه:

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا...﴾ من الآية رقم ٣١ من سورة الأعراف.

والمعنى: عليكم يا بــنى آدم أن تتجــملوا بما يســتر عــوراتكم، وأن تتحلوا بِلباس زينتكم كلما صليــتم أو طفتم، واحذروا أن تطوفوا بالبيت الحرام وأنتم عرايا الأجسام.

قــال القرطبى: «يا بنى آدم هو خــطاب لِجمــيع العالم، وإن كــان المقصود بهــا من كان يطوف من العرب بالبيت عــريانًا: فإنه عام فى كل

(١) تفسير المنار جـ٨ ص١٧٩.

مسجد للصلاة، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»[١]- يعنى حكم عام.

يقول الجمل: «كان بعض العرب، يطوفون بالبيت عُراة، الرجال بالنهار، والنساء بالليل، يقولون لا نطوف فى ثياب عصينا الله فيها»[٢].

«وعن سعيد بن جبير قال: كانت المرأة تطوف بالبيت فى الجاهلية وهى عريانة وعلى فرجها خِرقة وهى تقول:

اليومَ يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله»[٣].

فنزلت الآية: ﴿.. خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ..﴾ - من الآية رقم ٣١ من سورة الأعراف.

ونزل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ..﴾ - من الآية رقم ٣٢ من سوة الأعراف أيضًا.

ثم أمرهم سبحانه أن يَتمتعوا بالطيبات بدون إسراف أو تقتير فقال: ﴿.. وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ آخر الآية رقم ٣١ من سورة الأعراف.

أى كلوا من المآكل الطيبة، واشربوا المشارب الحلال، ولا تسرفوا فى زينتكم ولا فى مأكلكم أو مشربكم، لأنه سبحانه يكره المسرفين.

قال ابن كثير: «جمع الله الطِّب فى نصف آية»[٤]- فى قوله تعالى: ﴿.. وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا..﴾ من الآية رقم ٣١ من سورة الأعراف.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٧ ص١٧٩.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ٨ ص١٢٥.

(٣) أسباب النزول للنيسابورى ص١٦٩.

(٤) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢١.

وفيما رواه ابن حنبل:

قال رسول الله ﷺ:

«كلوا واشربوا وتصدقوا وألبسوا غير مخيلة ولا سرف إن الله يحب أن تُرى نعمته على عبده»[1].

قواعد الاعتدال فى المأكل والمشرب والملبس والصدقة وتلك هى استعمال نِعم الله فى محلها.

وكان السلف يقفون بين يدى الله فى عباداتهم فى أكمل زينة ـ فهذا مثلا الحسن بن على كان إذا قام إلى الصلاة، لبس أحسن ثِيابه؛ فقيل له يا بن بنت رسول الله لِمَ تلبس أجمل ثيابك؟ فقال إن الله جميل يُحب الجمال؛ فأنا أتجمل لِربى لأنه هو القائل: ﴿.. **خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ..**﴾ ـ من الآية رقم ٣١ من سورة الأعراف ـ يعنى تزينًا عند كل صلاة.

كان بعض الحجيج لا يأكلون فى أيام حجهم إلا قوتًا، ولا يأكلون لحمًا ولا دَسمًا، يعظمون بذلك حجهم، فَهَمَّ المسلمون أن يفعلوا كفعلهم، فأنزل الله تعالى:

ـ ﴿.. **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾ آخر الآية ٣١ من سورة الأعراف.

فهو سبحانه يكره الإسراف والتبذير ﴿**إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ...**﴾[2].

(١) مسند ابن حنبل جـ٢ ص١٨٢ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله عنه.

(٢) من الآية رقم ٢٧ من سورة الإسراء.

يعنى إن المبذرين قرناء للشياطين فى إغوائهم.

فهذه الآية التى معنا فى الأعراف، والتى تدعو إلى التمتع بالطيبات من الرزق، بدون إسراف إنما تهدى الناس إلى ما يُصلح معاشهم ومعادهم، إذ أنها أباحت للمسلم أن يتمتع بالطيبات التى أحلها بدون إسراف أو بطر.

ولذا جاء الرد على المتنطعين الذين يُضيقون على أنفسهم ما وسَّعه الله فى قوله تعالى:

٧- ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ...﴾ من الآية رقم ٣٢ من سورة الأعراف.

أى قل يا محمد (صلى الله عليك وسلم) لأولئك الذين يطوفون بالبيت عرايا ويمتنعون عن أكل الطيبات، من أين أتيتم بهذا الحكم الذى عن طريقه حرَّمتم على أنفسكم بعض ما أحله الله لِعباده؟ فالاستفهام لإنكار ما هم عليه بأبلغ وجه.

ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يَرد عليهم بأبلغ رد فقال:

- ﴿..قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ..﴾ من الآية رقم ٣٢ من سورة الأعراف.

أى قل أيها الرسول الكريم (صلى الله عليك وسلم) ـ لأمتك: هذه الزينة والطيبات من الرزق، ثابتة للذين آمنوا فى الحياة الدنيا، ويُشاركهم فيها المشركون أيضًا، أما فى الآخرة، فهى خالصة للمؤمنين، ولا يُشاركهم فيها أحد ممن أشرك مع الله آلهة أخرى.

- وقوله تعالى: ﴿..كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ـ آخر الآية رقم ٣٢ من سورة الأعراف.

معناها: مثل تفصيلنا هذا الحكم، كذلك نُفصل سائر الأحكام، لقوم يعلمون ما فى تضاعيفها من توجيهات سامية، وآداب رفيعة عالية فيها الخير والصلاح والإصلاح، بمشيئة الله تعالى، لِعباده فى الدنيا والآخرة.

ثم بين سبحانه بَعْد ذلك ألوانًا من المحرمات، التى نهى عباده عن اقترافها ـ فقال تعالى:

٨- ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ...﴾ من الآية رقم ٣٣ من سورة الأعراف.

والمعنى: قل يا محمد (صلى الله عليك وسلم) ـ لهؤلاء الذين ضَيَّقوا على أنفسهم ما وسعه الله عليهم، قل لهم إن ما حَرَّمه الله عليكم فى كتبه، وعلى ألسنة رسله هو هذه الأنواع الخمس التى أولها الفواحش ما ظهر منها وما بطن، أى: ما كان قبيحًا من الأقوال والأفعال سواء أكان فى السِّر أو العلن، وثانيها وثالثها الإثم والبغى بغير الحق، والإثم هو الشىء القبيح الذى فعله يُعتبر معصية، والبغى هو الظلم والتطاول على الناس وتجاوز الحدّ.

قال ابن كثير: وحاصل ما فُسر به الإثم أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه، والبغى هو التعدى على الناس، فحرم الله هذا وهذا»[1].

وقيد البغى بكونه بغير الحق، لأنه لا يكون إلا كذلك، إذ معناه فى اللغة تجاوز الحَدّ.

ورابع الأمور التى حرَّمها الله، أخبر عنها القرآن بقوله تعالى:

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٢٢.

- ﴿ .. وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا .. ﴾ - من الآيـة رقم ٣٣ من سورة الأعراف.

أى وحرم عليكم أن تجعلوا لله شركاء فى عبادته، بدون حُجة أو برهان، وقوله ما لم ينزل به سلطانًا، بيان للواقع من شركهم، إذ أنهم لا حجة عندهم على شِركهم، لا من العقل ولا من النقل، فالجملة قد اشتملت على التهكم بالمشركين وتوبيخهم على كفرهم.

وخامس الأمور التى حرمها الله تعالى:

- ﴿ .. وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ - آخر الآية رقم ٣٣ من سورة الأعراف.

أى حرم عليكم أن تقولوا قولا يتعلق بالعبادات أو المعاملات أو المحرمات أو غيرها بدون عِلم منكم بِصحة ما تقولون، وبغير بينة على صدق ما تدعون.

قال صاحب المنار: «ومن تأمل هذه الآية حق التأمل؛ فإنه يجتنب أن يحرم على عباد الله شيئًا، أو يوجب عليهم شيئًا فى دينهم بغير نص صريح عند الله ورسوله، بل يجتنب أيضًا أن يقول هذا مندوب أو مكروه بغير دليل واضح من النصوص، وما أكثر الغافلين عن هذا المتجرئين على التشريع...»[1]- فعلينا أن نحتاط من أمثال هؤلاء.

وبعد أن بين القرآن ما أحله الله وما حرمه، عقب على ذلك بأن بين أن أجل الناس فى هذه الدنيا محدود، وأنهم إن آجلا أو عاجلا سوف يقفون أمام ربهم للحساب فقال سبحانه:

(١) تفسير المنار جـ٨ ص٣٩٩.

- ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ ـ الآية رقم ٣٤ من سورة الأعراف.

أى لكل أمة من الأمم، ولكل جيل من الأجيال، مُدَّة من العمر مَحْدودة فى علم الله، فإذا ما انتهت هذه المدة، انقطعت حياتهم، وفارقوا هذه الدنيا بدون أى تقديم أو تأخير.

وليس المراد بالساعة هنا ما صطلح عليه الناس، من كونها ستين دقيقة، وإنما المراد بها الوقت الذى هو فى غاية القِلَّة.

فما من ساعة تمر على ابن آدم لم يذكر الله فيها، إلا ندم عليها يوم القيامة.

ثم أورد القرآن الكريم بعد ذلك النداء الأخير لِبنى آدم، حَضَّهم فيه على اتباع الرسل، والسير على الطريق المستقيم المؤدى إلى سعادة الدنيا والآخرة فقال سبحانه:

١٠- ﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي... ﴾ من الآية رقم ٣٥ من سورة الأعراف.

والمعنى: يا بنى آدم إن يأتكم رسل من أبناء جِنسكم، يتلون عليكم آياتى التى أنزلتها عليكم، لِهدايتكم فآمنوا بها وانصروا رُسُلى؛ فإن من آمن برسلى واتقى ما نهاه عنه ربه، وأصلح نفسه وعمله؛ فأولئك لا خوف عليهم يوم القيامة ولا هم يحزنون لمفارقتهم الدنيا؛ فقد رضى الله عنهم ورضوا عنه وعَزُّوا وسعدوا فى الدنيا والآخرة، بفضل الله الكريم.

ثم بين الله تعالى على النقيض من ذلك للذين كذبوا بقوله تعالى:

١١- ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ـ آية رقم ٣٦ من سورة الأعراف.

أما الذين كـذبوا بآياتنا واستكبـروا عنها، وكـفروا بهـا فأولئك هم الخاسرون، وهم أصحاب النار هم فيها خالدون.

فالآيتـان الكريمتان تُخبـران جميع بنى آدم، أن رسل الله قـد بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة، فعلى المرسل إليهم أن يُطيعوهم حتى يفوزوا برضاء خالقهم.

قال الجمل: «وإنما قال رسل بلـفظ الجمع، وإن كان المراد به واحداً وهو النبى ﷺ، لأنه خاتم الأنبياء وهو مرسل إلى كافة الخلق جميعهم، فذكـره بلفظ الجمـع على سبـيل التعظيم؛ فـعلى هذا يكون الخطاب فى قوله: يا بنى آدم لأهل مكة ومن يلحق بهم.

وقيل أراد جميع الرسل، وعلى هـذا الخطاب فقوله يا بنى آدم عام لكل بنى آدم، وإنما قال منكم، أى من جنسكم ومثلكم من بنى آدم، لأن الرسول إذا كان من جنسهم، كان أقطع لِعذرهم، وأثبت للحجة عليهم، لأنهم يعرفونه ويعرفون أحواله»[١].

وهذا من بلاغة القرآن الكريم وإعجازه، فسبحان من هذا كلامه.

ثم تعـرض السورة الكريمة بعـد ذلك لمشاهد يوم القـيامـة فى ست عشرة آية.

وبهـذا ينتهى المبـحث الخامس من هذا الكتـاب فى النداءات الأربع لبنى آدم، والذى ضم الآيات من ٢٦ إلى آخر ٣٧ من سـورة الأعراف، والتى تنادى على بنى آدم لأجل إسعـادهم فى الدنيا والآخرة بمشـيئة الله تعالى.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ٢ ص١٣٧.

المبحث السادس

مشاهد يوم القيامة
بمشيئة الله تعالى

ويضم ست عشرة آية ـ من أول الآية رقم ٣٧ بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا..﴾ ـ إلى آخر الآية رقم ٥٣ بقوله تعالى: ﴿.. قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩) إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ

رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥) وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩) وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١) وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣) ﴾.

تمهيد:

تم تعرض الآيات الكريمات بعد ذلك لمشاهد يوم القيامة فى ست عشرة آية؛ فتصور لنا بأسلوبها المؤثر حال المشركين عند قَبْض أرواحهم، وحالهم عندما يقفون أمام الله للحساب يوم الدين، وتحكى لنا ما يجرى

بين رؤساء المشركين ومرءوسيهم من مجادلات وملاعنات، ثم تعقب على ذلك ببيان ما أعده الله للمؤمنين من أجر عظيم وثواب جزيل، ثم تختم هذه المشاهد بالحديث عما يدور بين أصحاب الجنة وأصحاب النار من محاورات ونداءات.

أ- المفردات:

- ﴿ .. أَيْنَ مَا كُنتُمْ .. ﴾ - من الآية رقم ٣٧ من سورة الأعراف.

أى أين الآلهة التى كنتم تعبدونها من دون الله.

- ﴿ .. إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا .. ﴾ - من الآية رقم ٣٨ من السورة.

أى تلاحقوا فى النار، واجتمعوا فيها، وأدرك بعضهم بعضًا.

- ﴿ .. عَذَابًا ضِعْفًا .. ﴾ - من الآية رقم ٣٨ من السورة.

أى مُضاعفًا مَزِيدًا، ويطلق على الزائد على مثله مرة ومرات.

- ﴿ .. أُولاهُمْ .. ﴾ - من الآية رقم ٣٩ من السورة - أى المتقدمين منهم منزلة وهم القادة والرؤساء.

- ﴿ .. لأُخْرَاهُمْ .. ﴾ - من الآية رقم ٣٩ من السورة: أى المتأخرين منهم منزلة، وهم الأتباع والسَّفلة.

- ﴿ .. لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ .. ﴾ - من الآية ٤٠ من سورة الأعراف.

كناية عن عدم قبول العمل فلا يقبل لهم دعاء أو عمل.

- ﴿ .. يَلِجَ .. ﴾ - من الآية رقم ٤٠ من سورة الأعراف.

أى يدخل دخولا بسهولة ويُسْر.

- ﴿ .. الْجَمَلُ .. ﴾ ـ من الآية رقم ٤٠ من سورة الأعراف.

المراد به الحيوان المعروف، ويطلق عليه سفينة الصحراء.

- ﴿ .. سَمِّ الْخِيَاطِ .. ﴾ من الآية رقم ٤٠ من سورة الأعراف.

أى ثُقْب الإبرة، وفيه تَشْبيه ضِمنى، أى لا يدخلون الجنة بحال من الأحوال، إلا إذا أمكن دخول الجمل، فى ثقب الإبرة وهو تمثيل للاستحالة.

- ﴿ .. الْمُجْرِمِينَ .. ﴾ ـ من الآية رقم ٤٠ من سورة الأعراف.

أى المفسدين، وفِعلها أجرم.

- ﴿ .. مِهَادٌ .. ﴾ من الآية رقم ٤١ من سورة الأعراف.

يعنى فراش ومستقر.

- ﴿ .. غَوَاشٍ .. ﴾ من الآية رقم ٤١ من سورة الأعراف.

جمع غاشية، وهى ما يغشى الشىء ـ أى يُغطيه كاللحاف، وهذه استعارة لما يُحيط بهم من النار من كل جانب.

- ﴿ .. وُسْعَهَا .. ﴾ من الآية رقم ٤٢ من سورة الأعراف.

أى طاقتها، وما تقدر عليه حال السَّعة والسُّهُولة.

- ﴿وَنَزَعْنَا .. ﴾ من الآية رقم ٤٣ من سورة الأعراف.

أى قلعنا، وفى ذلك مبالغة فى نظافة قلوبهم من الحقد والغِّل.

- ﴿ .. غِلٍّ .. ﴾ من الآية رقم ٤٣ من سورة الأعراف.

أى حِقد وضِغْن وعداوة.

- ﴿ .. أُورِثْتُمُوهَا .. ﴾ من الآية رقم ٤٣ من سورة الأعراف.

أى صارت إليكم كما يصير الميراث إلى صاحبه.

- ﴿ .. فَأَذَّنَ .. ﴾ - من الآية رقم ٤٤ من سورة الأعراف.

الأذان والتأذين رفع بالإعلام، والمراد نادى منادٍ للإعلام.

- ﴿ .. لَعْنَةُ اللَّهِ .. ﴾ - من الآية رقم ٤٤ من سورة الأعراف.

اللعن هو الطرد من الرحمة مع الإهانة.

- ﴿ .. يَبْغُونَهَا عِوَجًا .. ﴾ - من الآية رقم ٤٥ من سورة الأعراف.

أى يطلبونها مُعوجة، أو ذات اعوجاج وغير مستقيمة.

- ﴿ .. حِجَابٌ .. ﴾ - من الآية رقم ٤٦ من سورة الأعراف.

سور بين الجنة والنار وحاجز بينهما.

- ﴿ .. الأَعْرَافِ .. ﴾ - من الآية رقم ٤٨ من سورة الأعراف.

جمع عرف مأخـوذ من عرف الديك والفرس، ويطلق على الشىء العالى وكل مرتفع.

- ﴿ .. بِسِيمَاهُم .. ﴾ - من الآية رقم ٤٨ من سورة الأعراف.

أى علامتهم المميزة لهم.

- ﴿ .. أَفِيضُوا .. ﴾ من الآية رقم ٥٠ من سورة الأعراف.

أى صُبوا وألقوا علينا، ويُستعمل فى الشىء الكثير.

- ﴿ .. تَأْوِيلَهُ .. ﴾ من الآية رقم ٥٣ من سورة الأعراف.

مواعيد القرآن ومآلها من البعث والحساب والجزاء.

- ﴿ .. مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ .. ﴾ من الآية رقم ٥٣ من سورة الأعراف.

يكذبونه من الشركاء وشفاعتهم.

ب- المناسبة:

«لما بين سبحانه أحوال التكليف، وأن لكل أحد أجلا مُعينا لا يتقدم، ولا يتأخر، بين أنهم بعد الموت، إن كانوا قد قبلوا الشرائع الحقة؛ فلا خوف عليهم ولا حزن، وإن كانوا متمردين وقعوا فى أشد العذاب»[1]- حتى يعلم المتقون أنهم هم الفائزون فى دنياهم وأخراهم بمشيئة مولاهم جل فى علاه.

جـ- التفسير التحليلى للآيات من أول رقم ٣٧ إلى آخر رقم ٥٣ من سورة الأعراف.

١- قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ... ﴾ من الآية رقم ٣٧ من السورة.

تسوق الآية الكريمة فى أسلوب استفهامى استنكارى توبيخى تقريعى، من أشد ظُلْمًا من ذلك الذى تعمد الكذب على الحق سبحانه. وكذب ما قاله جل شأنه فى آياته التى أنزلها على رسله لهداية الناس.

ثم بينت الآيات عاقبة هذا الصنف من الناس بقوله تعالى:

﴿ .. أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ من الآية رقم ٣٧ من سورة الأعراف وهى آخر الآية.

ثم بين سبحانه عاقبة هؤلاء المكذبين بقوله تعالى:

---

(١) غرائب القرآن للنيسابورى جـ٣ ص٢٣١.

﴿ .. أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ .. ﴾ ـ أى أولئك الذين كذبوا بآيات الله سينالهم نصيبهم مما كُتب لهم وقُدِّر من رزق، وأجر وخير وشر، والمراد بالكتاب: كتاب الوحى الذى أُنزل على الرسل، فإنه يتضمن ما أعده الله للمؤمنين من ثواب، وما أعده للكافرين من عقاب، وقيل اللوح المحفوظ.

أى أولئك ينالهم نصيبهم المكتوب لهم فى كتاب المقادير وهو اللوح المحفوظ.

ثم صور القرآن حالهم عند قبض أرواحهم فقال:

- ﴿ .. حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ آخر الآية رقم ٣٧ من سورة الأعراف.

أى أن أولئك المفترين ينالهم نصيبهم الذى كتب لهم مُدة حياتهم، حتى إذا ما انتهت آجالهم، وجاءتهم ملائكة الموت لِقبض أرواحهم، سألتهم سؤال توبيخ وتقريع: أين الآلهة التى كنتم تعبدونها فى الدنيا، وتزعمون أنها شفعاؤكم عند الله، لكى تنقذكم من هذا الموقف العصيب؟

وهنا يُجيب المشركون على الملائكة بقولهم: بحسرة وندامة ﴿ ..ضَلُّوا عَنَّا .. ﴾ ـ أى غابوا عنا وصِرنا لا ندرى مكانهم، ولا نرجو مِنهم خيرًا أو نفعًا، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين بعبادتهم لِغير الله الواحد الدَّيان.

وهنا يصدر عليهم قضاء الله العادل، الذى صوره القرآن فى قوله تعالى:

٢- ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ...﴾ من الآية رقم ٣٨ من سورة الأعراف.

يعنى قال الله تعالى لأولئكم المكذبين الضالين، ادخلوا فى ضمن أمم من الجن والإنس، قد سبقتكم فى الكفر، وشاركتكم فى الضلالة.

ثم بين الحق سبحانه بعض أحوالهم فقال:

﴿.. كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا..﴾ - من الآية رقم ٣٨ من السورة.

أى كلما دخلت أمة من أمم الكفر النار لعنت أختها فى الدين والمِلَّة، فالأمة المتبوعة تلعن الأمة التابعة، لأنها زادتها ضلالا وبُهتانًا، والأمة التابعة، تلعن الأمة المتبوعة، لأنها كانت سببًا فى عذابها.

ثم قال تعالى:

﴿.. حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا..﴾ - من الآية رقم ٣٨ من سورة الأعراف.

أى حتى إذا ما اجتمعوا جميعًا فى النار، الرؤساء والأتباع والأغنياء والفقراء.

﴿.. قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ...﴾ - من الآية رقم ٣٨ من سورة الأعراف.

قــالت أخراهم دخــولا، أو منزلة وهـم الأتباع لأولاهـم دخــولا أو منزلة وهم الزعماء والمتبوعون:

- ﴿ .. رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ.. ﴾ من الآية ٣٨ من سورة الأعراف.

أى قــال الأتبــاع يا ربنا هؤلاء الرؤســاء، هم الســبب فى ضــلالنا وهلاكنا، فــأذقهم ضِعــفًا من عــذاب النار، لإضلالهم إيانا، فــضلا عن أنفسهم.

وهنا يأتيهم الجواب الذى يحمل لهم التهكــم والسخرية؛ فيقول الله تعالى لهم:

- ﴿ .. قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴾ ـ آخر الآية رقم ٣٨ من سورة الأعراف.

أى لِكل منكم ومنــهم عذاب مُــضــاعف من النار، أمــا أنتم أيهــا الأتباع؛ فبسبب تقليدكم الأعمى، وأما المتبوعون؛ فبسبب إضلالهم لكم ولغيركم، ولكنكم يا معشــر المقلدين لا تعلمون ذلك لِجهلكم وانطماس بصيرتكم.

ويستمر الحوار بين هذين الفريقين فى النار بقوله تعالى:

٣- ﴿ وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ ـ الآية رقم ٣٩ من سورة الأعراف.

يعنى قال الــزعماء لأتبــاعهم، بعد أن ســمعوا رد الله عــليهم: إنا وإياكم مُتساوون فى استحقــاق العذاب، وكلنا فيه سواء؛ لأنا لم نجبركم

على الكفر، ولكنكم أنتم الذين كفرتم باختياركم، وضللتم بسبب جهلكم؛ فذوقوا العذاب المضاعف الأليم مثلنا؛ بسبب ما اكتسبتموه فى الدنيا من سيئات ومنكرات.

- وقوله تعالى: ﴿.. بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ آخر الآية رقم ٣٩ من الأعراف.

وفى هذا بيان لأسباب الحكم عليهم، وأنهم ما وردوا هذا المصير الأليم إلا بسبب ما اكتسبوه من آثام، وما اجترحوه من سيئات.

ثم بين القرآن بعد ذلك لونًا آخر من ألوان عذاب المكذبين؛ فقال سبحانه:

٤- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا...﴾ - من الآية رقم ٤٠ من سورة الأعراف.

بعد أن قصت الآيات السابقات، ما دار بين أهل النار التابعين والمتبوعين من حوار، وصدَّرت الحكم الإلهى على الطرفين بأن لِكل منهما ضعفًا من العذاب.

تأتى الآيات التى معنا، لِتصور موقفين متناقضين بين حال المكذبين والمؤمنين.

فالآيتان ٤٠، ٤١ تصوران أكمل تَصْوير استحالة دخول المشركين الجنة؛ بسبب تكذيبهم لآيات الله واستكبارهم عنها.

وفى معنى قوله تعالى:

- ﴿.. لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ..﴾ من الآية رقم ٤٠ من سورة الأعراف.

بمعنى لا تقبل أعمالهم، ولا تُرتفع إلى الله، كما تُرفع أعمال الصالحين كما فى قوله تعالى:

﴿ .. إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ... ﴾[1].

يعنى أن أقوال الصالحين تُرفع إلى الله، ويزيد فى رفعها أعمالهم الصالحات.

وفى قوله تعالى:

﴿ .. لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ .. ﴾ ـ من الآية رقم ٤٠ من سورة الأعراف.

فإن أرواحهم، لا تصعد إلى السماء بعد الموت، لأنها قد أغلقت دونهم بسبب شِركهم، ولكنها تفتح لأرواح المؤمنين.

والمراد أن الكافرين عند موتهم، وعند حسابهم يوم القيامة يكونون على غضب من الله، ولعنته بسبب ما ارتكبوه فى الدنيا من شرك وظلم.

- أما قوله تعالى: ﴿ .. وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ .. ﴾ ـ من الآية رقم ٤٠ من سورة الأعراف.

فمعناه أن هؤلاء المشركين، لا تُفتح لأعمالهم ولا لأرواحهم أبواب السماء، ولا يدخلون الجنة، حتى يدخل ما هو مثل فى الضخامة وهو الجمل الكبير فيما هو مثل فى الضيق، وهو ثقب الإبرة.

فهيهات أن يحصل هذا من دخول حيوان ضخم أو حبل غليظ فى خُرْم الإبرة، فهذا مُحال، فدخول الجنة للكافرين ميئوس منه قطعًا.

---

(١) من الآية رقم ١٠ من سورة فاطر.

«فعندما تخرج أرواحهم، ويصعد بها ملك الموت توصد أمامها أبواب السماء؛ فترد حتى تجعل فى سجين(*) إلى يوم القيامة، أما بعد الحساب، فسيكون مصيرهم جهنم وبئس القرار»(١)ـ وبئس المصير.

- وقوله تعالى: ﴿.. وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ ـ آخر الآية رقم ٤٠ من سورة الأعراف.

يعنى ومثل ذلك الجزاء الرهيب، نجزى جنس المجرمين الذين صار الإجرام وصْفًا لازمًا لهم.

ثم بين سبحانه: ما أعده لهم فى النار قال:

٤- ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ آية رقم ٤١ من سورة الأعراف.

وجهنم: اسم لِدار العذاب وبئس المصير.

والمِهاد: الفراش.

وغواش: جمع غاشية، وهى ما يَغْشى الشىء، أى يغطيه ويستره.

أى أن هؤلاء المكذبين، لهم نار جهنم تُحيط بهم من فوقهم ومن تحتهم، فهى من تحتهم بمنزلة الفِراش والمِهاد، ومن فوقهم بمثابة الغِطاء، وبمثل ذلك الجزاء، نجزى كل ظالم ومشرك.

وإلى هنا تكون الآيات الكريمات، قد بينت بأسلوب مؤثر صور حال المشركين، عندما تُقْبض أرواحهم، وعندما يقفون أمام الله للحساب، وحالهم عندما يلعن بعضهم بعضًا، وحالهم والعذاب من

(*) فى مكان ضيق فى أسفل سافلين.

(١) المستنير فى تخريج القراءات لمحمد سالم محيسن ص٢٢٥.

فوقـهم، ومن أسفل منهم، وهى جميعًا مَشاهد تُفزع النفوس وتحمل العقلاء على الاستقامة والاهتداء.

ثم ينتقل السياق القرآنى، إلى بيان ما أعد الله للمؤمنين، بعد أن بينت فيما سبق عاقبة المكذبين الضالين.

٥- فقال تعالى:

﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**... ﴾ من الآية رقم ٤٢ من سورة الأعراف.

يعنى والذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر وعملوا الأعمال الصالحات، التى لا مشقة فيها ولا عُسْر، إذ لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، أولئكم الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح، هم أصحاب الجنة هم فيها خالدون.

وجملة: لا نكلف نفسًا إلا وسعها - معترضة بين المبتدأ الذى هو قوله ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا**.. ﴾ وبين الخبر الذى هو قوله: ﴿ .. **أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ**.. ﴾.

ثم بين سبحانه ما للصالحين فى الجنة، من صفاء نفسى ونقاء قلبى؛ فقال جل شأنه:

٦- ﴿ **وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ**... ﴾ من الآية ٤٣ من سورة الأعراف.

يعنى قلعنا ما فى قلوبهم من حِقد وعَداوات وبَغْضاء فى الدنيا، فهم يدخلون الجنة بقلوب سليمة مليئة بالتواد والتعاطف والتراحم، حالة

كونهم تجرى من تحتهم الأنهار؛ فيرونها وهم فى غرفات قصورهم؛ فيزداد سرورهم وحبورهم، وفى ذلك ذكرى للذاكرين.

- ثم يذكر المولى امتنانهم بما هم فيه من نعيم بقوله سبحانه:

﴿ .. وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ... ﴾ من الآية رقم ٤٣ من سورة الأعراف.

أى قالوا شاكرين لله أنعمه ومِنَنَه: الحمد لله الذى هدانا فى الدنيا، إلى الإيمان والعمل الصالح، وأعطانا فى الآخرة هذا النعيم الوفير، وما كنا لِنهتدى إلى ما نحن فيه من نعيم لولا أن هدانا الله، ولولا هداية الله وجوده لما اهتدينا، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

- وقوله تعالى:

﴿ .. لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ.. ﴾ ـ من الآية رقم ٤٣ من سورة الأعراف.

جملة قسمية: أى والله لقد جاءت رسل ربنا فى الدنيا بالحق، لأن ما أخبرونا به، قد وجدنا مصداقه فى الآخرة.

- ونادت عليهم الملائكة بقوله تعالى:

﴿ .. وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ـ آخر الآية رقم ٤٣ من سورة الأعراف.

أى ونودوا من قبل الخالق عز وجل، بأن قيل لهم تلكم هى الجنة التى كانت الرسل تعدكم بها فى الدنيا قد أورثكم الله إياها بسبب ما قدمتموه من صالحات الأعمال.

فالآيــة الكريمة صريحــة فى أن الجنة، قد ظفــر بها المؤمنون بســبب الأعمال الصالحة وبفضل الله تعالى.

فإن قيل إن هناك أحــاديث صحيحة، تُصــرح بأن دخول الجنة ليس بالعمل، وإنما بفضل الله ـ ادخلوها بــفضلى واقتسموها بأعــمالكم، فهم درجات عند الله على حسب أعمالهم.

ومن هذه الأحاديث ما رواه أبو هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«لن يُدْخِلَ أحــدًا عملُه الجنة، قــالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قــال: لا ولا أنا، إلا أن يتغمــدنى الله بفضل ورحمة، فســددوا وقاربوا، ولا يتمنين أحدكــم الموت، إما مُــحسنًا فَلعله أن يزداد خــيرًا، وإمــا مُســيئًــا فلعله أن يَسْتَعْتِب»(١).

فمهما قدموا من صالحات الأعمال، يقولون يا رب سلم، أقْبلت يا رب أم لم تقبل.

والجواب على ذلك أنه لا تنافى فى الحقيقة، لأن المراد أن العمل لا يوجب دخول الجنة، بل الدخول بِمحض فضل الله، والعمل سبب عادى ظاهرى، والأعمال مهما عظمت؛ فهى ثمــن ضئيل بالنسبة لِعظمة دخول الجنة، فإن النِّعمة الأخــروية سلعة غالية جدًّا، فمثــل هذه المقابلة، كمثل من يبيع قصورًا شاهِقة وضياعًا واسعة بدرهم واحد، ولله المثل الأعلى.

فمن رحمته بعباده المؤمنين أن جعل بعض أعمالهم الفانية وأموالهم الزائلة ثمنًا لِنعيم لا يبلى.

---

(١) صحيح البخارى جـ٢ ص٢١٤٧، ٧٨- المرضى ١٩- باب نهى تمنى المريض الموت رقم ٥٣٤٩.

ولذلك قال ابن عباس عندما قرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ...﴾[1]ـ نعمت الصَّفقة، أنفس هو خالقها، وأموال هو رازقها، ثم يمنحنا عليها الجنة ـ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

والله سبحانه هو الموفق للعمل والمعين عليه.

ويمكن أن يُجاب أيضًا بأن الفوز بالجنة ونعيمها إنما هو بِفضل الله والعمل جميعًا الذى هو بتوفيق الله عز وجل.

- فقوله تعالى: ﴿.. وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ آخر الآية رقم ٤٣ من سورة الأعراف.

أى مع فضل الله تعالى، وإنما لم يَذكر ذلك لئلا يتكلوا ولئلا يَفْتروا.

وبعد هذه الموازنة بين مصير المؤمنين، ومصير الكافرين، يسوق الحق سبحانه مَشْهدًا آخر من الحوار الذى يدور يوم القيامة بين أصحاب الجنة، وأصحاب النار بقوله جل شأنه:

٧- ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا...﴾ من الآية رقم ٤٤ من سورة الأعراف.

يعنى أن أصحاب الجنة سوف يسألون أهل النار سؤال تعيير وتوبيخ يوم القيامة؛ فيقولون لهم قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا من الثواب

(١) من الآية رقم ١١١ من سورة التوبة.

والجزاء، ومن النعيم المقيم، فهل وجدتم أنتم يا أصحاب النار ما وعدكم ربكم حقًّا من العقاب وسوء المصير؟ - قالوا نعم، أى قال أهل النار نعم وجدنا، وعد ربنا على ألسنة رسله حقًّا.

وهذا النداء يكون بعد استقرار أهل الجنة فى الجنة، وأهل النار فى النار.

وهذا النداء من كل أهل الجنة، لِكل أهل النار.

فكل فريق من أهل الجنة، ينادى من كان يعرفه من الكفار فى دار الدنيا.

وعَبَّر بالماضى مع أن هذا النداء يكون فى الآخرة، لتحقق الوقوع وتأكده.

وكلمة حقا نُصِبت فى الموضعين على الحالية، وقيل إنها مفعول ثان ويكون وجد بمعنى علم.

وهذا النداء فيه تقريع وتوبيخ وتوقيف على مآل الفريقين، وزيادة فى كرب أهل النار.

ثم بين الله سبحانه ما جرى بعد ذلك - فقال:

﴿ .. فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ آخر الآية رقم ٤٤ من سورة الأعراف.

والتأذين: رفع الصوت بالإعلام بالشىء.

واللعنة: الطرد والإبعاد مع الخِزى والإهانة والندامة.

والمعنى: بعد أن قامت الحجة على الكافرين، وثبت الفوز المبين للمؤمنين.

نادى مناد بين الفريقين بقوله: لعنة الله على الظالمين لأنفسهم ولغيرهم الذين من صفاتهم أنهم يمنعون الناس عن اتباع شريعة الله، ويريدون لها أن تكون مُعْوجة غير مستقيمة، حتى لا يتبعها الناس، وهم بالآخرة وما فيها من ثواب وعِقاب جاحدون مُكذبون.

وفى قوله ﴿ .. فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ.. ﴾ ـ نكر المؤذن، لأن معرفته غير مقصودة، بل المقصود الإعلام بما يكون هناك من الأحكام.

يعنى فأعلم مُعْلِم، «قيل هو إسرافيل صاحب الصور، وقيل غير ذلك»[1] ـ والله تعالى أعلم، لأن هذه غيبيات.

ثم يصف الله تعالى هؤلاء الظالمين الذين عليهم اللعنة بقوله تعالى:

٨- ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا... ﴾ من الآية رقم ٤٥ من سورة الأعراف.

فهم صدوا عن سبيل الله وبَنَوْها عِوجا، وانحرافًا وكُفراً بدار الجزاء.

وفى هاتين الآيتين الأخيرتين، تعرض السورة، لمرحلة من مراحل العذاب، وهى نداء أصحاب الجنة، لأصحاب النار، نِداء يُسجل عليهم الخِزى والنكال، ويُشعرهم بالحسرة والندامة، فى مقابلة النعيم الذى صار إليه أهل الإيمان بالرضا والاطمئنان.

فى مقابلة الحسرة والذلة والقلق من جانب آخر، ثم يصور الحكم النافذ الذى لا مرد له ولا محيص عنه، يُؤذن به مؤذن لا يدرك كُنْهه، ولا يُعلم من هو، ولا ما صوته، ولا كيف يُلقى أذانه، ولا كيف يكون أثر هذا الأذان فى نفوس سامعيه.

---

(١) البحر المحيط لأبى حيان جـ٥ ص٥٦.

وإنه لتصـوير قوى بارع، يُحرك الـنفوس ويهز المشـاعر، ويبين أن النهاية الأليمـة المتوقعة لِهؤلاء المكذبين، وتسجـيل اللعنة عليهم، والطرد والحرمان من رحمة الله تعالى، مُشيرًا إلى أسباب ذلك الحرمان الماثلة فى ظلمهم وصدهم عن سبيل الله، وهم يبغونهـا عِوجا وانحرافًا وكفرًا بدار الجزاء.

ثم ينتقل القرآن إلى الحديث عن مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة، يُحدثنا فيه عن أصـحاب الأعراف، وما يدور بينهم وبين أهل الجنة وأهل النار من حوار - فيقول تعالى:

٩- ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ... ﴾ من الآية رقم ٤٦ من سورة الأعراف.

أى بين أهل الجنة وأهل النار حِجـاب يفصل بينهمـا، ويمنع وصول أحد الفريقين إلى الآخر.

وقيل إن هذا الحجاب، هو السور الذى ذكره تعالى بقوله:

﴿ .. فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ.. ﴾(١)- بين الجنة والنار.

«قيـل وأى حاجة إلى ضـرب هذا السور، والجـنة فوق السـماوات والجحيم فى أسفل سافلين، وأجيب بأن بُعْد أحدهما عن الآخر، لا يمنع أن يكون بينهما حجاب حاجز»(٢)- زيادة تفزيع ونكال لأهل النار.

والأعراف جمع عرف، وهو المكان المرتفع من الأرض وغيره.

---

(١) من الآية رقم ١٣ من سورة الحديد.

(٢) تفسير غرائب القرآن للنيسابورى جـ٣ ص٢٣٩.

والمعنى: وبين الجنة والنار حاجز يفصل بينهما، وعلى أعراف هذا الحاجز، أى من أعلاه رجال يرون أهل الجنة، وأهل النار، فيعرفون كلا بسيماهم وعلاماتهم التى وصفهم الله بها فى كتابه، كبياض الوجوه بالنسبة لأهل الجنة، وسوادها لأهل النار.

وحينما ينظر أهل الأعراف، لأهل الجنة يُحيونهم بتحية الإسلام أن سلام عليكم.

ومن الأقوال التى قيلت فى أصحاب الأعراف:

١- أنهم طائفة من الموحدين، قصرت بهم سيئاتهم عن الجنة، وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار، فَجُعلوا هناك حتى يُقضى بين الناس، فبينما هم كذلك طلع عليهم ربهم؛ فقال لهم: قوموا ادخلوا الجنة فقد غفرت لكم.

واستدل أصحاب هذا الرأى، بما روى عن جابر بن عبد الله قال: عمن استوت حسناته وسيئاته؟ فقال: «أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون»[١]ـ كانوا طامعين فى دخول الجنة.

٢- «أنهم من أشرف الخلق رُتبة ومنزلة، وأعدل الناس كالأنبياء والصديقين والشهداء، أجلسهم الله على أعالى ذلك السور تميزاً لهم على سائر أهل القيامة، وإظهاراً لِشرفهم وعلو مرتبتهم»[٢].

والدليل لهذا الرأى: أنهم لو لم يكونوا بهذه المنزلة لم يستطيعوا أن يلوموا أهل النار على سبيل التأنيب والتبكيت.

---

(١) الدر المنثور للسيوطى جـ٣ ص٨٧.

(٢) روح المعانى للآلوسى جـ٨ ص١٢٤.

والذى نراه أن هناك حِجابًا بين الجنة والنار، الله أعلم بحقيقته، وأن هذا الحِجاب، لا يمنع وصول الأصوات عن طريق المناداة، وأن هذا الحجابَ من فوقه رجال يرون أهل الجنة، وأهل النار؛ فينادون كل فريق بما يُناسبه، يحيون أهل الجنة، ويُقَرِّعون أهل النار.

- وقوله تعالى: ﴿ .. وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ - آخر الآية رقم ٤٦ من سورة الأعراف.

أى أن أصحاب الأعراف عندما رأوا أهل الجنة، سَلَّموا عليهم حال كونهم أى أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة معهم، وهم طامعون فى دخولها مُترقبون له.

ثم يتجه أنظار أصحاب الأعراف، تجاه أصحاب النار بقوله تعالى:

١٠- ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ - الآية رقم ٤٧ من سورة الأعراف.

أى: وإذا ما اتجهت أبصار أصحاب الأعراف، إلى جهة أصحاب النار، قالوا مُستعيذين بالله من سوء ما رأوه من أحوالهم، يا ربنا لا تجعلنا مع هؤلاء القوم الظالمين ولا تجعلنا وإياهم فى هذا المكان المهين.

وقد أفاد هذا التعبير بالفعل المبنى للمجهول، أن أصحاب الأعراف يوجهون أبصارهم إلى أصحاب الجنة، بالقصد والرغبة ويُلقون إليهم السلام، وأنهم يكرهون رؤية أصحاب النار، فإذا صُرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار من غير قصد ولا رغبة، قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين.

فهذا الدعاء أَلْيق بحال من استوت حسناتهم وسيئاتهم، وكانوا موقوفين مجهولا مصيرهم - ينتظرون فرج ربهم.

ثم بين الحق سبحانه، ما يقوله أهل الأعراف لِرءوس الكفر فى هذا الموقف العصيب فقال:

١١- ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ - الآية رقم ٤٨ من سورة الأعراف.

يعنى: ونادى أصحاب الأعراف رجالا من أهل النار، كانوا أصحاب وجاهة وغنى وقوة فى الدنيا؛ فيقولون لهم على سبيل التوبيخ والتقريع ما أغنى عنكم جمعكم وكثرتكم، واستكباركم فى الأرض بغير الحق، فقد صِرْتم فى الآخرة بسبب كفركم وعنادكم إلى هذا الموضع المهين.

«ومن هؤلاء زعماء قريش وطغاتهم الذين قاوموا الإسلام بمكة واضطهدوا أهله، كأبى جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وغيرهم»[1]- من الطغاة والجبابرة.

- وقوله تعالى: ﴿.. يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ..﴾ - أى بعلاماتهم الدالة على سوء حالهم يومئذ، كسواد الوجوه، وظهور الذّلة على وجوههم، ويعرفونهم بصورهم التى كانوا يعرفونهم بها فى الدنيا.

ثم يزيدون توبيخهم وتبكيتهم وتأنيبهم؛ فيقولون لهم.

١٢- ﴿أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ...﴾ من الآية رقم ٤٩ من سورة الأعراف.

---

(١) تفسير المراغى جـ٣ ص٢١١.

أى أن أصحاب الأعراف، يُشيرون إلى أهل الجنة من الفقراء والذين كانوا مستضعفين فى الأرض «كصهيب الرومى وبلال الحبشى وآل ياسر»[(١)]- ثم يقولون لرءوس الكفر الذين كانوا يُعذبونهم، أهؤلاء الذين أقسمتم فى الدنيا، أن الله تعالى لا ينالهم برحمة فى الآخرة لأنه لم يعطهم فى الدنيا، المال والبنين والسلطان.

وهنا ينادى مناد من قبل الله تعالى على هؤلاء الفقراء - فيقول لهم:

- ﴿ .. ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ آخر الآية رقم ٤٩ من سورة الأعراف.

أى ادخلوا الجنة لا خوف عليكم مما يكون فى المستقبل، ولا أنتم تحزنون على ما خلفتموه فى الدنيا.

وبعد أن استقر أهل الجنة فى الجنة، وأهل النار فى النار، يُنادى أحد الفريقين على الآخر بقوله تعالى:

١٣- ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ آية رقم ٥٠ من سورة الأعراف.

والمعنى: أن أصحاب الجنة سوف يسألون أهل النار، سؤال تعيير وتوبيخ يوم القيامة؛ فيقولون لهم قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا من الثواب ومن الجزاء، فهل وجدتم أنتم ما وعدكم ربكم حقا من العقاب وسوء المصير، قالوا نعم، أى قال أهل النار نعم وجدنا ما وعد ربنا على ألسنة

(١) تفسير المراغى جـ٣ ص٢١١.

رسله حقا، وهذا النداء يكون بعد استقرار أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار.

وهذا النداء يكون من كل أهل الجنة، لِكل أهل النار، لأن الجمع إذا قابل الجمع يوزع الفرد على الفرد، فكل فريق من أهل الجنة ينادى من كان يعرفه من الكفار فى دار الدنيا.

وعبر بالماضى مع أن هذا النداء يكون فى الآخرة، لِتحقق الوقوع وتأكده.

- وقوله تعالى: ﴿ .. أَنْ أَفِيضُوا .. ﴾ - أى صبوا علينا شيئًا من الماء نستعين به على ما نحن فيه، والإفاضة الصَّب وفيه معنى الكثرة.

وظاهر الآية يدل على أن الجنة فوق النار.

وقوله تعالى: ﴿ .. أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ .. ﴾ - أو من الذى رزقكموه الله تعالى، من سائر الأشربة، لِيلائم الإفاضة أو من الأطعمة، وفى الآية دليل على نهاية عطشهم وشدة جوعهم، وأن ما هم فيه من العذاب لا يمنعهم عن طلب أكل وشرب»[1]- فالأكل والشرب من حاجات الإنسان الضرورية.

والمعنى أن أهل النار، بعد أن أحاط بهم العذاب المهين، أخذوا يستجدون أهل الجنة بِذلة وانكسار، ويقولون لهم أفيضوا علينا من الماء، أو مما رزقكم الله من طعام، لكى نستعين بهما على ما نحن فيه من سموم وحميم. والعياذ بالله.

وأجاب أصحاب الجنة على استجداء أصحاب النار بقوله سبحانه:

---

(١) روح المعانى للآلوسى جـ٧ ص١٢٦.

- ﴿ .. إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ـ آخر الآية رقم ٥٠ من سورة الأعراف.

وهنا يرد أهل الجنة بما يقطع آمالهم بسبب كفرهم وأعمالهم الضالة، فقد حرم الله على الكافرين طعام أهل الجنة.

ثم يقول سبحانه سبب هذا الحرمان بقوله:

١٤- ﴿ .. الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا .. ﴾ من الآية رقم ٥١ من سورة الأعراف.

أى أن الله منع عن الكافرين شراب وطعام الجنة؛ لأنهم اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا ـ يعنى اتخذوا دينهم الذى أمرهم الله باتباع أوامره، واجتناب نواهيه مادة سخرية وتلهٍ، وصرفًا للوقت فيما لا يُعْتد، فأصبح الدين فى زعمهم صورًا ورسومًا، لا تزكى نفسًا، ولا تطهر قلبًا، ولا تهذب خلقًا، وغرتهم الحياة الدنيا وشغلتهم بمتعها وزينتها عن كل ما يقربهم إلى الله، ويهديهم إلى الطريق القويم.

- ثم يعقب المولى على حال أهل النار، الذين حرم الله عليهم شراب وطعام الجنة، بعد استجدائهم لأهل الجنة، أن يُفيضوا عليهم.

فقال تعالى:

﴿ .. فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ آخر الآية رقم ٥١ من سورة الأعراف.

أى ففى هذا اليوم، وذلك يوم القيامة، ننساهم، يعنى نتركهم فى العذاب المهين المبين، جِياعًا عطاشًا بغير طعام ولا شراب، كما تركوا

العمل للقاء يومهم هذا، ورفضوا الاستعداد له، بإتعاب أبدانهم فى طاعة الله تعالى، بسبب جحودهم لآياتنا التى جاءتهم بها أنبياؤهم.

فالنسيان فى حق الله تعالى، مُستعمل فى لازمه، بمعنى أن الله لا يجيب دعاءهم ولا يرحم ضعفهم وذُلَّهم، بل يتركهم فى النار كما تركوا الإيمان والعمل الصالح.

وهكذا ساقت لنا السورة مشاهد متنوعة لأهوال يوم القيامة؛ فتحكى لنا أحوال الكافرين، كما تصور لنا ما أعده الله للمؤمنين، وساقت لنا ما يدور بين الفريقين من محاورات ومناقشات فيها العبر والعظات البالغات، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ثم بين لنا سبحانه منزلة القرآن الكريم فى إثباته للرسالة المحمدية، عن طريق الإخبار بأحوال الأمم السابقة، وبيان سوء عاقبة من كذب به فقال سبحانه:

١٥- ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ آية رقم ٥٢ من سورة الأعراف.

ففى قوله: ﴿ .. فَصَّلْنَاهُ.. ﴾ ـ التفصيل عبارة عن جعل الحقائق والمسائل المراد بيانها مفصولا بعضها عن بعض، بحيث لا يبقى فيها لبْس.

والمعنى: ولقد جئنا لهؤلاء الناس على لسانك يا محمد (صلى الله عليك وسلم) بكتاب عظيم الشأن كامل التبيان، فصلنا آياته تفصيلا حكيمًا مُبينًا فيه ما هم فى حاجة إليه من أمور العقائد والأحكام والمواعظ، بيانًا شافيًا لأمور الدنيا والآخرة، يؤدى إلى سعادتهم، متى اتبعوه واهتدوا بهديه.

والضمير لأولئك الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا وهو لهم وللمؤمنين كذلك، والمراد بالكتاب القرآن الكريم.

وقوله تعالى: ﴿.. عَلَىٰ عِلْمٍ..﴾ - حال من قائل ﴿.. فَصَّلْنَاهُ..﴾ - أى فصلناه على أكمل وجه وأحسنه - حالة كوننا عالمين بذلك أتم العلم.

فالمراد بهذه الجملة بيان أن ما فى هذا القرآن من أحكام وحكم وتفصيل وهداية لم يحدث عبثًا، وإنما حصل مع العلم التام بكل ما اشتمل عليه من فوائد كثيرة، ومنافع مُتزايدة.

وفى القراءات «وقرأ ابن محيصن ﴿.. فضلناه..﴾ بالضاد المعجمة، أى فضلناه على سائر الكتب»[1]- عالمين بأنه حقيق بذلك.

وقوله: ﴿.. هُدًى وَرَحْمَةً..﴾ - حال من مفعول فصلناه، وقرئ بالجر على البدلية من علم، وبالرفع على إضمار المبتدأ - أى هو هدى عظيم ورحمة واسعة.

وقوله تعالى: ﴿.. لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ آخر الآية رقم ٥٢ من سورة الأعراف.

فالمؤمنون هم المنتفعون بهدى القرآن، والمستجيبون لتوجيهاته.

ثم بين سبحانه عاقبة هؤلاء الذى أنزله الله هداية ورحمة فقال تعالى:

١٦- ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ...﴾ من الآية رقم ٥٣ من سورة الأعراف.

---

(١) إتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربع عشر للبناء ص٢٢٥.

النظر هنا بمعنى الانتظار والتـوقع، لا بمعنى الرؤية؛ فالمراد بينظرون ينتظرون ويتوقعون، وتأويل الشىء مرجـعه ومصيره الذى يؤول إليه ذلك الشىء، والاستفهام بمعنى النفى.

أى مآل أمره وعاقبته، قاله قتاده ومجاهد وغيرهما، قال ابن عباس مآله يوم القيامة.

وقال الزمخـشرى ما يؤول إليه من تبـيين صدقه وظهور صحـته ما نطق به من الوعد والوعيد، والتأويل من آل يؤول، وقال الخطابى: أولت الشىء رددته إلى أوله، فاللفظة مأخوذة من الأول»[1].

وهكذا تتسع الآية لاعتبارات متعددة، ولا تعارض بينها.

والمعنى: إن هؤلاء المشركين، ليس أمامـهم شىء ينتظرونه، بعد أن أصروا على شركهم، إلا ما يؤول إليـه أمر هذا الكتاب، وما تتجلى عنه عاقبته، من تبيين صدقه، وظهور صحته وما أخبر به من الوعد والوعيد، والبعث والحساب، وانتصار المؤمنين به واندحار المعرضين عنه.

فإن قيل كيف ينتظرون ذلك الذى وعدهم الله به مع كفرهم به؟

والجواب أنهم قبل وقوع ما هو محقق الوقوع صاروا كالمنتظرين له، لأن كل آت قريب، فهم على شرف مُلاقاة ما وعدوا به، وسينزل بهم لا محالة.

ثم بين سبحانه ما لهم يوم الحساب؛ فقال تعالى:

- ﴿ .. **يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ** .. ﴾ - من الآية رقم ٥٣ من سورة الأعراف.

---

(١) البحر المحيط لأبى حيان جـ٥ ص٦٢، ص٦٣ بتصرف.

أى يوم يأتى يوم القـيامـة، الذى أخـبر عنه القـرآن، والذى يقف الناس فيه، أمام خالقهم للحساب، يقول هؤلاء الكافرون الذين نسوا هذا اليـوم وجحـدوه، وعندما تكشف لـهم الحقـائق، قد جـاءت رسل ربنا بالحق، واتضح صدقـهم، ولكننا نحن الذين كذبناهـم، وسرنا فى طريق الضلال؛ فهـل لنا من شفعاء، فـيشفعوا لنـا فى هذه الساعة العصـيبة، ويدفعوا عنا ما نحن فيه من كرب وبلاء، أو نرد إلى الدنيا، فنعمل عملا صالحًا، غير الذى كنا نعمله من جحود ولهو ولعب.

أى أنه لا طريق لهؤلاء المكذبين إلى الخلاص مما هم فيه من العذاب الشديد إلا أحد أمرين، وكلاهما مر، الأول أن يشفع لهم شفيع، فلأجل تلك الشـفاعـة، يزول هذا العـذاب، والثانى: أن يردهم الله تعـالى إلى الدنيا، حتى يعملوا غير ما كانوا يعملون، وهذا مستحيل بالطبع.

فالجـملة بهذا تصور حـسرتهم يوم القيامـة، تصويرًا يهز المشـاعر، ويقض المضاجع، ويحمل الفضلاء على الإيمان والعمل الصالح المصلح.

- والاستـفهـام فى قوله: ﴿ .. فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ .. ﴾ للتـمنى والتحسر، ومِـن مزيدة للاستغراق والتأكـيد، وشفعاء مبتـدأ مؤخر، ولنا خبر مقدم.

ثم بين سبحانه نهايتهم؛ فقال: ﴿ .. قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ آخر الآية رقم ٥٣ من سورة الأعراف.

أى قد خـسر هـؤلاء - الذين اتخذوا دينهم لعبًا ولهـوًا - أنفسـهم بسبب إشراكـهم بالله، وذهب عنهم ما كانوا يفتـرونه فى الدنيا، من أن أصنامهم سـتشفع لهم يوم الجزاء ويوم الدين، وأيقنوا أنهم كـانوا كاذبين فى دعواهم والله غالب على أمره.

وبهذا ينتهى المبـحث السادس من مشاهد يوم القـيامة، والذى ضم الآيات من أول رقم ٣٧ إلى آخر ٥٣ من سـورة الأعراف، والتى تشجع الناس على الاتعاظ لملاقاة الله.

ثم تنتقل الآيات بعـد ذلك لتذكر جـانبًا من بديع صنع الله وجليل قدرته لكى يدلل على أنه المعبود بحق وصدق.

المبحث السابع

بعض جوانب بديع صنع الله تعالى ليدلل على أنه المعبود بحق

ويضم الآيات من أول رقم ٥٤ من سورة الأعراف بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ...﴾ إلى آخر الآية رقم ٥٨ من السورة بقوله تعالى: ﴿.. كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨)﴾.

تمهيد:

فى ذلك المقطع الماضى من السورة، والتى تحدثت فيه عن عظمة القرآن الكريم، وعن وجوب اتباعه، وعن قصة آدم عليه السلام،

وما فيهـا من عِبر وعظات بالغات، وعما أحلَّه الله وحَـرَّمه، وعما يدور بين أهل النار وأهل الجنة من مجادلات واتهامات، وعن العـاقبة الحميدة التى أعدها الله للصالحين من عباده.

يبـدأ المولى بعد ذلـك فى استـعراض بعض جـوانب بديع صُنْعـه سبحانه، لِيدلل على أنه المعبود بحق وصدق.

أ- المفردات:

- قوله تعالى: ﴿ .. ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ.. ﴾ ـ من الآية ٥٤ من سورة الأعراف.

استواء بالمعنى اللائق به سبحانه.

والاستواء فى اللغة والعلو الاستقرار، واستوى على ظهر الدابة أى استقر، واستوى إلى السماء يعنى قصد، واستوى الشىء إذا اعتدل.

قال القرطبى: «جـهلوا كيفية الاسـتواء، فإنه لا تُعلم حقيـقته»(١)ـ ذلك لأنها أمور غيبيات لا يدرك مداها إلا الله سبحانه.

- قوله تعالى: ﴿ .. يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ.. ﴾ ـ من الآية رقم ٥٤ من سورة الأعراف.

أى يغطى النهار ـ فيذهب ضوءه.

- قوله تعالى: ﴿ .. يَطْلُبُهُ حَثِيثًا.. ﴾ ـ من الآية رقم ٥٤ من سورة الأعراف.

أى يطلب الليل النهـار طلبًا مـستـمرًا وسـريعًا ـ والحث الإعـجال والسرعة.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٧ ص١٩٩.

- قوله تعالى: ﴿.. لَهُ الْخَلْقُ..﴾ - من الآية رقم ٥٤ من سورة الأعراف أى إيجاد جميع الأشياء من العدم.

- قوله تعالى: ﴿.. وَالأَمْرُ..﴾ - من الآية رقم ٤٥ من سورة الأعراف.

يعنى التدبير والتصرف فى مخلوقاته كما يشاء.

والآية على قِلَّة ألفاظها جمعت معانىَ كثيرة، استوعبت جميع الأشياء، والشؤون على وجه الاستقصاء، وهو أسلوب إيجاز قَصْر، ومداره على جمع الألفاظ القليلة للمعانى الكثيرة.

قوله تعالى: ﴿.. تَبَارَكَ اللَّهُ..﴾ - من الآية ٥٤ من سورة الأعراف.

أى تفاعل من البركة وهى الكثرة والاتساع - أى تنزه وتعظم وكَثُرَ خيره وارتفع.

- قوله تعالى: ﴿.. تَضَرُّعًا..﴾ - من الآية رقم ٥٥ من سورة الأعراف.

يعنى: تذللا واستكانة، وهو إظهار الذل فى النفس مع الخشوع.

- قوله تعالى: ﴿.. وَخُفْيَةً..﴾ - من الآية رقم ٥٥ من سورة الأعراف.

يعنى سِرًّا، مصدر خفى بمعنى اختفى أى استتر وتوارى، ولم يجهر بِدعائه، وإنما دَعَا فى قلبه.

- قوله تعالى: ﴿.. إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ..﴾ - من الآية رقم ٥٦ من سورة الأعراف يعنى إحسانه وإنعامه وثوابه.

- قوله تعالى: ﴿.. بُشْراً..﴾ ـ من الآية رقم ٥٧ من سورة الأعراف.

أى مُبشرة بالمطر.

- قوله تعالى: ﴿.. إذَا أَقَلَّتْ..﴾ من الآية رقم ٥٧ من سورة الأعراف.

أى حملت ورفعت.

- قوله تعالى: ﴿.. ثِقَالاً..﴾ من الآية رقم ٥٧ من سورة الأعراف.

أى مُثْقلة بحمل الماء.

- قوله تعالى: ﴿.. سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ..﴾ ـ من الآية رقم ٥٧ من سورة الأعراف.

أى مُجْدب لا ماء فيه ولا نبات.

ووصف البلد بالموت، استعارة حسنة، لِجدبه وعدم نباته، كأنه كالجسد الذى لا روح فيه من حيث عدم الانتفاع به.

- قوله تعالى: ﴿.. كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى..﴾ من الآية رقم ٥٧ من سورة الأعراف.

أى مثل إخراج النبات من الأرض، نخرج الموتى من قبورهم، فهو تشبيه مُرْسل مُجمل ذكرت الأداة، ولم يذكر وجه الشبه.

- قوله تعالى: ﴿.. لا يَخْرُجُ إلاَّ نَكِداً..﴾ ـ من الآية رقم ٥٨ من سورة الأعراف.

النكد: العَسِر القليل.

- قوله تعالى: ﴿.. كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ..﴾ - من الآية رقم ٥٨ من سورة الأعراف.

أى نُكررها بأساليب مُتنوعة.

ب- المناسبة:

بعد أن ذكرت الآيات السابقات مناظرات ثلاثًا: الأولى خطاب أهل الجنة، لأهل النار، والثانية خطاب أصحاب الأعراف لكلا الفريقين كل بما يناسبه، والثالثة فى خطاب أهل النار لأهل الجنة، وذكر ما طلبوه، ثم كان الجواب بالمنع والحرمان، وبعد ذلك كان الحكم؛ فاليوم ننساهم، تأتى الآيات بعد ذلك لِتقطع عليهم معاذيرهم، فى أن الله أنزل عليهم كتابًا فصل فيه كل شىء، منه الهداية للمؤمنين، وتبيين موقف الكفار من هذا القرآن.

ثم يذكر سبحانه فى الآيات القادمات، جانبًا من بديع صنعه، وجليل قدرته، لكى يدلل على أنه المعبود بحق وصدق.

جـ- التفسير التحليلى للآيات من أول رقم ٥٤ إلى آخر الآية رقم ٥٨ من سورة الأعراف.

ويؤكد الله فى الآية الأولى، على أنه هو الرب المربى بقوله سبحانه:

١- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ...﴾ من الآية رقم ٥٤ من سورة الأعراف.

وبعد هذا العرض السريع من المبدأ إلى المعاد، تعود بنا الآيات إلى خلق الكون بسماواته وأرضه، وبيان ما فيهما من أسرار تلفت الأبصار وتُنير البصائر.

يعنى إن ربكم ومـالككم، الذى يجب أن تُفردوه بالعبادة، هو الله الذى أنشأ السماوات والأرض وما بينهما، على غير مثال سابق فى مقدار ستة أيام.

قـيل اليوم في اللغة، مُطلق الـوقت، فالمعنى عـلى هذا فى ستـة أوقات.

«وإن أريد المتعارف، وهو زمان طلوع الشمس إلى غروبها، فالمعنى فى ستة أيام، لأن اليوم إنما كان بعد خلق السماوات والأرض، فيقدر فيه مضاف»[1]ـ يعنى فى مِقدار.

وقد اختلف فى المراد بقوله ستة أيام.

«قيل هذه الأيام من أيام الدنيا، وقيل من أيام الآخرة، أى يوم كان مقداره ألف سنة.

وقـال سعـيد بن جـبيـر كان الله قـادرًا على أن يخلق السمـاوات والأرض وما بينهما فى لمحة ولحظة، فخلقهن فى ستة أيام، تعليمًا لِخلقه للتثبت والتأنى فى الأمور»[2]ـ وكل شىء عنده بقدر.

قال صاحب الظلال: فأما الأيام الستة التى خلق الله فيها السماوات والأرض، فهى كذلك غَـيْب، لم يشهده أحد من البـشر، ولا من خلق الله جميعًا، كل ما يقال عنها لا يستند إلى أصل مُستَيقَن.

إنها قد تكون ست مراحل، وقد تكون ستة أطوار، وقد تكون ستة أيام من أيام الله التى لا تقاس بمقـاييس زماننا، وقد تكون شيـئًا آخر الله أعلم به.

(١) تفسير القاسمى جـ٧ ص٢٧٠٠.

(٢) نفس المرجع السابق جـ٧ ص٢٧٠٠.

- قوله تعالى: ﴿ .. ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ.. ﴾ من الآية رقم ٥٤ من سورة الأعراف.

وعن المراد بقوله: ﴿ .. ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ.. ﴾:

يقول القاسمى: «ورد الاستواء على معان، اشترك لفظه فيها، فجاء بمعنى الاستقرار، ومنه قوله تعالى: ﴿ .. وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ.. ﴾[(١)] وهو جبل.

وبمعنى القصد، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ... ﴾[(٢)].

وكل من فرغ من أمر وقصد لغيره فقد استوى له»[(٣)].

ويأتى بمعنى الاستيلاء: «استوى بشر على العراق» - استوى إلىَّ يُخاصمنى - أى قصد إلىَّ وأقبل علىَّ.

ويأتى بمعنى العلو كما فى الآية ﴿ .. ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ.. ﴾ - كيفية الله أعلم بها.

أما الاستواء على العرش، فذهب سلف الأمة، إلى أنه صفة لله تعالى، بلا كيف ولا انحصار ولا تشبيه ولا تمثيل لاستحالة اتصافه سبحانه بصفات المحدثين، ووجوب تنزيهه عما لا يليق به، ﴿ .. لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[(٤)]- فهو سبحانه مخالف للحوادث، وكل ما خطر ببالك، فالله خِلاف ذلك.

---

(١) من الآية رقم ٤٤ من سورة هود.

(٢) من الآية رقم ١١ من سورة فصلت.

(٣) تفسير القاسمى جـ٨ ص٢٠٧.

(٤) من الآية رقم ١١ من سورة الشورى.

ويجب الإيمان بالنصوص كما وردت، وتفويض العلم بحقيقتها إليه سبحانه.

«وقال الإمام مالك، الكيف غير معقـول، والاستواء غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بِدعة.

وقال محمد بن الحسن، اتفق الفقهـاء جميعًا على الإيمان بالصفات من غير تفسير ولا تشبيه.

وقال الرازى: هذا المذهب هو الذى نقول به ونختـاره ونعتمد عليه بمشيئة الله تعالى»[1]- ويجب التفويض لله تعالى فى هذه المسألة.

«وذهب بعض علمـاء الخلف، إلى وجـوب صـرف الاسـتـواء عن ظاهره لاستحالته، وأن المراد منه كما قـال الإمام القفال أنه استقام ملكه، واطرد أمره ونفذ حكمه تعالى فى مخلوقاته.

والله تعالى دل على ذاته وصفاته، وكيفية تدبيره للعالم، تنبيهًا على عظمته، وكمـال قدرته، وذلك مشروط بنفى التشبيـه ويشهد بذلك قوله تعالى: ﴿ .. ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ .. ﴾[2]»[3].

يعنى يُصرف الأمر بِحكمة بالغة.

- وقوله تعالى: ﴿ .. يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ.. ﴾ - من الآية رقم ٥٤ من سورة الأعراف.

التغشية: التغطية والستر، أى يجعل الليل غاشيًا للنهار، مُغَطِّيا له، فيذهب بنوره، ويصير الكون مُظلمًا، بعد أن كـان مُضيئًا، ويجعل النهار

---

(١) تفسير القاسمى جـ٧ ص٢٨٠٢.

(٢) من الآية رقم ٣ من سورة يونس.

(٣) تفسير صفوة البيان للشيخ حسنين مخلوف ص٣٦٣.

غاشيًا لليل، فيصير الكون مُضيئًا، بعد أن كان مُظلمًا، وفى ذلك منافع للناس، وبه تتم الحياة، وهو دليل القدرة والحكمة والتدبير من الإله العلى العظيم، والليل مفعول أول، والنهار مفعول ثان.

- وقوله تعالى: ﴿.. يَطْلُبُهُ حَثِيثًا..﴾ - من الآية رقم ٥٤ من سورة الأعراف.

أى يطلب الليل النهار، أو كلاهما يطلب الآخر طلبًا سريعًا، حتى يلحقه ويدركه، وهو كناية عن أن أحدهما يأتى عَقِب الآخر، ويخلفه بلا فاصل، فكأنه يطلبه طلبًا سريعًا.

والحث على الشيء الحض عليه، يقال حَثَّ الفرسَ على العدو يحثه حث صاح به ووكزه، وذهب حثيثًا أى مسرعًا.

والجملة حال من الليل، لأنه هو المتحدَّث عنه، أو حال من النهار أى مطلوب حثيثًا، ويطلبه حثيثًا بأن كليهما يطلب الآخر.

- وقوله تعالى: ﴿.. وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ..﴾ من الآية رقم ٥٤ من سورة الأعراف.

يعنى وخلق الشمس والقمر والنجوم، حال كونهن مُذللات خاضعات لِتصرفه مُنقادات لمشيئته، كأنهن مميزات أمرن فانقدن، فتسمية ذلك أمر على سبيل التشبيه.

وقرئ بنصب الألفاظ الثلاثة: والشمس والقمر والنجوم على أنها معطوفة على السماوات السابقة، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ...﴾ من الآية رقم ٥٤ من سورة الأعراف.

وبِنصب مُسخرات أيضًا على أنها حال من هذه الثلاثة.

«وقرأ أبو عامر بالرفع في جميعها على الابتداء»[(١)] ـ والخبر مسخرات ـ هذه النواحى الإعرابية المتعددة من البلاغة بِمكان.

– وقوله تعالى: ﴿ .. أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ.. ﴾ ـ من الآية رقم ٥٤ من سورة الأعراف.

ألا: أداة يُفتَتح بها القول، الذى يهتم بشأنه، لأجل تنبيه المخاطب لمضمونه، وحمله على تأمله، والخلق إيجاد الشىء من العدم.

والأمر: التدبير والتصرف، على حسب الإرادة لما خلقه الله، فهو سبحانه الخالق المدبر للعالم، على حسب إرادته وحكمته لا شريك له فى ملكه.

وهذه الجملة الكريمة كالتذييل للكلام السابق، أى أنه سبحانه الذى خلق الأشياء كلها، ويدخل فى ذلك السماوات والأرض وغيرهما، وهو الذى دبر هذا الكون على حسب إرادته.

– وقوله تعالى: ﴿ .. تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ آخر الآية رقم ٥٤ من سورة الأعراف.

تبارك: فعل ماض لا يتصرف، أى لا يجىء منه مُضارع ولا أمر ولا اسم فاعل.

من البركة بمعنى الكثرة من كل خير، وأصلها النماء والزيادة، أى كَثُر خيره وإحسانه، وتعاظمت وتزايدت بركات الله رب العالمين.

أو من البركة بمعنى الثبوت، وكل شىء ثبت ودام فقد برك أى ثبت ودام خيره على خلقه.

---

(١) إتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربع عشر للبناء ص٢٢٥.

والمعنى تعالى وتعظم وارتفع وتنزه عن كل نقص الله رب العالمين.

ثم أمر الله تعالى عباده أن يكثروا، من التضرع إليه بالدعاء الخالص، فقال سبحانه:

٢- ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً...﴾ من الآية رقم ٥٥ من سورة الأعراف.

مناسبة الآيات لما قبلها:

بعد أن بينت الآيات السابقات عظمة القرآن وفضله، وموقف الكافرين من أحكامه فى الدنيا، ثم موقفهم يوم القيامة؛ فيتبين لهم صدق هذا الكتاب فى كل ما أخبر به، ثم أخذتنا الآيات فى سياحة كونية، مع بداية الخلق العلوى والسفلى وما بينهما، تأتى الآيات بعد ذلك التى معنا؛ لتدلنا على طريق من طرق الفلاح، وهو الدعاء والتضرع، فتنهانا عن الإفساد بكل أشكاله وصوره، ثم تطوف بنا فى رحلة المطر والإنبات، حتى يكون لنا فى ذلك العظة والعبرة، ونشكر الله على ذلك الخير الكثير والنِّعم التى لا تُحصى.

التفسير التحليلى لقوله تعالى:

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً...﴾ - من الآية رقم ٥٥ من سورة الأعراف.

التضرع: تفعل من الضراعة، وهى الذِّلة والاستكانة، يقال ضرع فلان ضراعة، أى خشع وذل وخضع، ويقال تضرع أى أظهر الضراعة والخضوع، وتضرعًا حال من الضمير فى ادعوا.

الخفية: بضم الخاء وكسرها، مصدر خفى بمعنى اختفى أى استتر وتوارى، ولم يجهر بدعائه.

والمعنى: سلوا ربكم أيها الناس قضاء حوائجكم، بتذلل واستكانة وإسرار واستتار، فهو سبحانه يسمع الدعاء، ويجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، وهو القادر على إيصال الخير إليكم، وغيره عن ذلك عاجز.

وإنما أمر الله عِباده بالإكثار من الدعاء، فى ضراعة وإسرار؛ لأن الدعاء اتجاه إلى الله بقلب سليم، واستعانة به بإخلاص ويقين لكى يدفع المكروه، ويمنح الخير، ويُعين على نوائب الدهر.

ويكون الإنسان مُؤديًا لأشرف أنواع العِبادة والخضوع لله مُعترفًا لِنفسه بالعجز والنقص، ولِربه بالقدرة والكمال.

التضرع الخفى أنسب وأليق بجلال الله، ويقرب الصلة بين العبد ومولاه ـ ودليل ذلك ما ورد عن أبى موسى الأشعرى، قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء، فقال رسول الله ﷺ: **«أيها الناس أربعوا(*) على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إن الذين تدعونه سميع قريب»**[1]ـ فهو سبحانه يعلم السِّر وأخفى.

والله تعالى يقول: ﴿ .. **وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ**... ﴾[2].

---

(١) صحيح البخارى جـ٨ ص١٠١ / كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا علا.

(٢) من الآية رقم ٢٧١ من سورة البقرة.

(*) أربِعوا، اى أرفقوا وهَوِّنوا.

وإن تخفوا الصدقات وتدفعوها للفقراء، فهو أفضل لكم، لأن ذلك أبعد عن الرياء ـ وهو سبحانه مطلع على أعمالكم، يعلم خفاياكم، والآية ترغيب فى الإسرار.

فصدقة السر تطفئ غضب الرب، ومن السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه.

وفيما رواه الطبرى: «ولقد أدركنا أقوامًا ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه فى السر، فيكون علانية أبدًا، ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء، وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم»[1] ـ إمعانًا فى الإخلاص لوجه الله جل فى علاه.

وإن كان الرجل لقد جمع القرآن، وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلى الصلاة الطويلة فى بيته وعنده الزوار، وما يشعرون به.

ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء، وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم، لأن الله تعالى يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ الآية رقم ٥٥ من سورة الأعراف.

والله تعالى ذكر عبدًا صالحًا رضى فعله وهو زكريا فقال: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۝ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾[2] ـ أى هذا ذكر رحمة ربك لعبده زكريا نقصه عليك يا محمد ـ صلى الله عليك وسلم ـ حين ناجى ربه ودعاه بصوت خفى لا يكاد يُسمع، لأن الإخفاء فى الدعاء، أدخل فى الإخلاص وأبعد من الرياء.

---

(١) تفسير الطبرى الأثر ١٤٧٧٧ جـ١٢ ص٤٨٥.

(٢) الآيتان ٢، ٣ من سورة مريم.

والله لا يحب المعتدين فى الدعاء سواء برفع الصوت أو التكلف فيه.

وأورد الإمام أحمد رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**إنه سيكون قوم يعتدون فى الدعاء**»، وقرأ الآية: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا...﴾ من الآية رقم ٥٥ من سورة الأعراف.

ثم قال: «**وإن بحسبك أن تقول: اللهم إنى أسألك الجنة، وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل**»[١] ـ عن سعد رضى الله عنه.

وهذا دعاء جامع بسؤال ربنا صالحات الأعمال والأقوال، التى تؤدى إلى روضات الجنات.

٣- وقوله تعالى: ﴿**وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا...**﴾ ـ من الآية رقم ٥٦ من سورة الأعراف.

وذلك بعد الأمر بالدعاء تضرعًا وخفية ـ ليكون هذا قمة الإصلاح بين العبد وربه وسائر المخلوقات.

ويتجلى ذلك فى النهى عن الإفساد فى الأرض، وهو شامل، لإفساد النفوس بالقتل والاعتداء، وإفساد المال بالسرقة والاغتصاب والنَّصْب، وإفساد الدين بالكفر والمعاصى، وإفساد العقل بالمسكرات والمخدرات.

نهى الله تعالى عن الفساد فى الأرض بالهوى، وقد أصلحها بالشريعة الغراء.

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل جـ١ ص١٧٢.

وبعد الانتهاء عن الإفساد بكل صوره وأشكاله ـ أمرنا الله تعالى بقوله:

- ﴿ .. وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ من الآية رقم ٥٦ من سورة الأعراف وهى آخر الآية.

أمرنا سبحانه أن ندعوه خائفين من عِقابه، طامعين فى رحمته وإحسانه، مستجيبين لِدعائه تفضلا منه ورحمة.

ونصب ﴿خَوْفًا﴾ ، إما على الحال من الفاعل فى قوله: ﴿وَادْعُوهُ﴾ ـ وإما على أنه مفعول لأجله.

ثم ختم الآية ببيان أن رحمته قريب من المحسنين، أى مُعدة لهم، وهم الذين يأتمرون بأوامر القرآن، وينتهون عن نواهيه.

- وفى قوله تعالى: ﴿ .. إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ آخر الآية رقم ٥٦ من سورة الأعراف.

«جاء الخبر مُذكرًا واسم إن مؤنث، وهذا يُخالف قواعد النحو التى منها اتحاد الاسم والخبر، تذكيرًا وتأنيثًا، فكيف ذلك؟

قيل لأن تأنيث الرحمة مجازى غير حقيقى، لأن الرحمة والغفران والعفو والإنعام بمعنى واحد، أو لأن المراد بالرحمة التَّرحم.

وقيل إن قريب صفة موصوف محذوف، أى شىء قريب.

وقيل لأن الرحمة هنا بمعنى الثواب وهو مذكر، فيذكر قريب باعتبار ذلك، وقيل المراد ذات مكان قريب»[1]ـ وتلك من بلاغة القرآن الكريم.

---

(١) تفسير غرائب القرآن للنيسابورى جـ٨ ص١٤٥.

أى إن رحمة الله وإنْعامه على عباده، قريب من المتقنين لأعمالهم، المخلصين فيها؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فمن أحسن عبادته، نال عليها الثواب الجزيل، ومن أحسن فى أمور دنياه، كان أهلا للنجاح فى مَسْعاه، ومن أحسن فى دعائه كان جديراً بالقبول والإجابة.

«وفى الآية الكريمة ترجيح للطمع على الخوف، لأن المؤمن بين الرجاء والخوف، ولكنه إذا رأى سعة رحمته سبحانه، غَلَب الرجاء عليه.

وفيها تنبيه على ما يتوسل به إلى الإجابة، وهو الإحسان فى القول والعمل والإخلاص فيهما لوجه الله جل فى علاه؛ فقد استنجزوا موعود الله بطاعته، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين»[1].

فبشرا ثم بشرا لهؤلاء المحسنين فى الدنيا والآخرة.

وبعد أن بين سبحانه، أنه هو الخالق للسماوات والأرض، وما بينهما، وأنه هو المتصرف الحاكم المدبِّر المسخر، وأن رحمته قريب من المحسنين الذين يكثرون من التضرع إليه بخشوع وإخلاص.

بعد كل ذلك تحدث سبحانه عن بعض مظاهر رحمته التى تتجلى فى إرسال الرياح وإنزال المطر، وعن بعض مظاهر قدرته التى تتجلى فى بعث الموتى للحساب، وفى هداية من يريد هدايته، وإضلال من يريد إضلاله؛ فقال تعالى:

٤- ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ آية رقم ٥٧ من سورة الأعراف.

(١) تفسير القاسمى جـ٧ ص٢٧٥٦.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ...﴾ معطوف على ما سبق من قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾ من الآية رقم ٥٤ من سورة الأعراف.

وذلك لبيان مظاهر قدرته ورحمته بخلقه، وليدلل على قدرته على البعث، فيسند إلى نفسه إرسال الرياح مبشرات بين يدى رحمته بقدوم المطر، والذى يسمى عند الناس بالغيث مُبشراً.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾[1].

ومن آيات إرسال الرياح كذلك ـ قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ...﴾[2] بالخير والبركة وتسيير السفن وغير ذلك.

وفى الآية التى معنا فى سورة الأعراف ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ...﴾.

حتى إذا حملت الرياح السحاب، وقد أُثقل بالمطر، ساقه سبحانه إلى البلاد الجدباء القحطة الميتة، فينزل به المطر، فيخرج به أنواعًا من الثمرات مُختلفات الأشكال والأجناس، مثل هذا الإحياء، والإعادة لما كان ميتًا من الأرض والنبات، يخرج الله الموتى يوم القيامة، حيث قال سبحانه: ﴿.. كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ـ آخر الآية رقم ٥٧ من سورة الأعراف.

(١) الآية رقم ٢٨ من سورة الشورى.

(٢) من الآية رقم ٤٦ من سورة الروم.

وختم سبحانه الآيـة بذلك، لأن الناس ينسون هذه الحقائق المنظورة أمامهم فى الدنيا، فـالمشيئة والقدرة على إحياء الأرض الميتـة، هى نفسها المشيئة والقدرة على رد الحياة إلى الأموات.

والتـعبـير بقـوله: ﴿.. بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ...﴾ تعبيـر بالمجـاز الاستعارى، ونصب ﴿بُشْرًا﴾ على أنه حال من الرياح.

وفى الآية تشبـيه تمثيلى، حـيث شبه مُطْلق الإخـراج من العدم بما حصل من مظاهر الحياة فى الدنيا وبما سوف يحصل يوم القيامة من إحياء الخلائق للحساب بمشيئة الله تعالى.

ومن أحكام الآية: أنها تدل على عِظم نِعـمة الله علينا بالمطر، وأنه أراد من الجميع التذكر.

ثم ضرب سبحانه مثلا لاختلاف استعداد البشر للخير والشر، فقال سبحانه:

٥- ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ الآية رقم ٥٨ من سـورة الأعراف وهى آخر الآية.

والنكد: قِلة العطاء.

والمعنى أن الأرض الكريمة التـربة يخرج نباتهـا وافيًا حـسنًا، غزير النفع بمشيـئة الله وتيسيره، والـذى خبث من الأرض كالسبخـة منها، لا يخرج نباتها إلا قليلا عديم الفائدة.

يقول ابـن كثيـر: يقول ابن عـباس: هذا مـثل ضربه الله للمـؤمن والكافر»[١].

(١) تفسير ابن كثير جـ٣ ص٤٢٦.

وذلك حيث شبه القرآن بـالمطر، وقلوب الناس فى تقبلها لهذا المطر وانتفاعها به كالأرض التى يقع عليها هذا المطر.

وفيما رواه البخارى عن أبى موسى الأشعرى، قال رسول الله ﷺ: «**مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكانت منها نقية تقبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، ونفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا، وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هى قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت، فذلك مثل من فقه فى دين الله، ونفعه ما بعثنى الله به فَعَلِم وعَلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به**»[(١)].

وهكذا فالناس أنواع فى قبولهم الهداية والعلم، أو عدم قبولها والله تعالى يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

وقيل ليس المراد من الآية تمثيل المؤمن والكافر، وإنما المراد، إن الأرض السبخة يقل نفعها وثمرتها، ومع ذلك فإن صاحبها لا يهمل أمرها، بل يتعب نفسه فى إصلاحها طمعًا منه فى تحصيل ما يليق بها من المنفعة، فمن يطلب هذا النفع اليسير؟ فلأن يطلب النفع العظيم الموعود فى الدار الآخرة، بالمشقة التى لابد منها ومن تحملها فى أداء الطاعات كان أولى»[(٢)].

فاستبقوا الخيرات، ولمثل هذا فليعمل العاملون، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون.

---

(١) صحيح البخارى / كتاب العلم / باب فضل من عَلِم وعَلَّم جـ١ ص٣٠.

(٢) غرائب القرآن للنيسابورى جـ٨ ص١٥٠.

و﴿نَكِدًا﴾ منصوب على الحال من فاعل يخرج، أو على أنه نعت لمصدر محذوف تقديره والذى خبث لا يخرج إلا خروجًا نكدًا.

وعبر بالشكر فى قوله تعالى: ﴿.. لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ - آخر الآية رقم ٥٨ من سورة الأعراف.

لأن هذه الآية موضوعها الاهتداء بالعلم والعمل والإرشاد، بينما عبر فى الآية السابقة عليها بالتذكر، لأن موضوعها يتعلق بالاعتبار والاستدلال على قدرة الله تعالى فى إحياء الموتى.

وبهذا ينتهى المبحث السابع، فى بعض جوانب بديع صنع الله، والذى ضم الآيات من أول رقم ٥٤ من سورة الأعراف إلى آخر الآية رقم ٥٨ من السورة.

والتى تدل على أن الله حق، وهو المعبود بحق وصدق.

المبحث الثامن

بعض قصص الأنبياء مع أقوامهم للعظة والعبرة

من أول قصة نوح عليه السلام إلى آخر قصة شعيب عليه السلام

ويضم الآيات من أول رقم ٥٩ بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ...﴾ - إلى آخر الآية رقم ١٠٢ من السورة بقوله تعالى: ﴿.. وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤) وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ

بَعْد قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩)
قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ
الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي
أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم
مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١) فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢) وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا
لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ
فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ
خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ
الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ
الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا
مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي
آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا
تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ
(٧٨) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا
تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩) وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ
أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ
مُّسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ
أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا
عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤) وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ

يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ
وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا
ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ
عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ
وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي
أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ
﴿٨٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا
مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ
كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن
يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا
بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ
شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ
﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ
الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ
لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا
أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ
عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن
كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا
وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾

أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (١٠٠) تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢) ﴾.

تمهيد:

وبعد هذا نبدأ السورة جولة جديدة مع الأمم الخالية والقرى المهلكة، والتى جاء ذكرها في مطلع السورة فى قوله تعالى: ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾[1].

أى وكثير من القرى أهلكناها، والمقصود أهلها، فجاءها عذابنا ليلا أو جاءهم العذاب فى وقت القيلولة، وهى النوم فى وسط النهار.

وخص مجىء البأس بهذين الوقتين، لأنهما وقتان للسكون والدعة والاستراحة، فمجىء العذاب فيهما أشق وأفظع، لأنه يكون على غفلة من المهلكين.

فتُحدثنا السورة عن مصارع قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام.

وذكر الرازى فوائد مجىء قصص هؤلاء الأنبياء مع أقوامهم، فى هذه السورة، بعد أن تحدث عن أدلة التوحيد والربوبية؛ فقال: اعلم أنه تعالى لما ذكر فى تقرير المبدأ والمعاد دلائل ظاهرة وبينات قاهرة وبراهين

(١) الآية رقم ٤ من سورة الأعراف.

باهرة، أتبعها بذكر قصص الأنبياء عليهم السلام وفيه فوائد:

أحدها: التنبيه على أن إعراض الناس عن قبول هذه الدلائل والبينات، ليس من خواص قوم النبى محمد ﷺ بل هذه العادة المذمومة كانت حاصلة فى جميع الأمم السالفة، والمصيبة إذا عمت خفت، فكان ذكر قصصهم وحكاية إصرارهم وعِنادهم، يفيد تسلية النبى ﷺ وتخفيف ذلك على قلبه.

ثانيها: أنه تعالى يحكى فى هذه القصص، أن عاقبة أمر أولئك المنكرين كان إلى اللعن فى الدنيا، والخسارة فى الآخرة، وعاقبة أمر المحقين، إلى الدولة فى الدنيا، والسعادة فى الآخرة بمشيئة الله تعالى وذلك بتقوى قلوب المحقين، وبِكسر قلوب المبطلين.

وثالثها: التنبيه على أنه تعالى: وإن كان يُمهل هؤلاء المبطلين لكنه لا يهملهم، بل ينتقم منهم على أتم الوجوه، ويأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

رابعها: بيان أن هذه القصص دالة على نبوة محمد ﷺ لأنه كان أميا وما طالع كِتابًا، ولا تتلمذ على أستاذ، فإذا ذكر هذه القصص على هذا الوجه من غير تحريف ولا خطأ، دل ذلك على أنه إنما عرفها بالوحى من الله تعالى»[1]ـ فسبحان من أيد رسوله بالحق.

أ- المفردات:

- ﴿قَالَ الْمَلأُ..﴾ ـ من الآية رقم ٦٠ من سورة الأعراف ـ يعنى الجماعة.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٤ ص٢٤٥.

- ﴿ .. فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ من الآية رقم ٦٠ من سورة الأعراف.

أى فى عدول عن الطريق المستقيم إلى غيره، فى ضلال بعيد.

- ﴿ .. وَأَنصَحُ لَكُمْ..﴾ ـ من الآية رقم ٦٢ من سورة الأعراف.

- يعنى أتحرى ما فيه صلاحكم قولا وفعلا.

- ﴿ .. فِي الْفُلْكِ..﴾ من الآية رقم ٦٤ من سورة الأعراف.

أى السفينة التى ركب فيها نوح ومن معه من المؤمنين.

﴿ .. إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ ـ من الآية رقم ٦٤ من سورة الأعراف.

عمى القلوب عن الحق والإيمان.

- قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا..﴾ ـ من الآية رقم ٦٥ من سورة الأعراف.

المراد أنه من قبيلتهم نَسبًا، أو لأن الإخوة إنسانية.

- قوله تعالى: ﴿ .. إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ..﴾ من الآية رقم ٦٦ من سورة الأعراف.

فى خِفَّة عقل وضلالة عن الحق.

- قوله تعالى: ﴿ .. وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً..﴾ من الآية رقم ٦٩ من سورة الأعراف.

يعنى قوة وعِظم أجسام.

- قوله تعالى: ﴿ .. فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ..﴾ ـ من الآية رقم ٦٩ من سورة الأعراف.

أى نعماء الله ومفردها آلى.

- قوله تعالى: ﴿.. رِجْسٌ..﴾ - من الآية رقم ٧١ من سورة الأعراف.

يعنى عذاب أو رَيْن على القلوب.

- قوله تعالى: ﴿.. وَغَضَبٌ..﴾ - من الآية رقم ٧١ من سورة الأعراف.

يعنى: لعن وطرد وسخط.

- قوله تعالى: ﴿.. وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ..﴾ من الآية رقم ٧٢ من سورة الأعراف.

فيها كِناية لطيفة عن استئصالهم جميعًا بالهلاك.

- قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا..﴾ من الآية رقم ٧٣ من سورة الأعراف.

قبيلة من العرب كانت تسكن الحِجر، بين الحجاز والشام، إلى وادى القرى قرب تبوك وهم من ولد سام بن نوح وصالح نبيهم»[1]- وهو من أشرفهم نسبًا.

- قوله تعالى: ﴿.. هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ..﴾ من الآية رقم ٧٣ من سورة الأعراف.

الناقة: أنثى الجمل، والإضافة إلى الله للتشريف والتكريم.

- قوله تعالى: ﴿.. وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ..﴾ - من الآية رقم ٧٣ من سورة الأعراف.

---

(١) التفسير الواضح جـ٨ ص١٥٦.

والتنكير: بسوء ـ للتقليل والتحقير، أى لا تمسوها بأدنى سوء.

- قوله تعالى: ﴿.. وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ..﴾ ـ من الآية رقم ٧٤ من سورة الأعراف.

أى أنزلكم فيهـا وجعلها مباءة، ومـسكنًا لكم، يقال بوأه منزلا أى أنزله وهيأه له ومكّن له فيه.

- قوله تعالى: ﴿.. وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ..﴾ من الآية رقم ٧٤ من سورة الأعراف.

والنحت هو النحر فى الشىء الصلب، يقـال: نحت بنحته أى براه وسوّاه.

- قوله تعالى: ﴿.. فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ..﴾ ـ من الآية رقم ٧٤ من سورة الأعراف.

يعنى نِعمه وإحساناته.

- قوله تعالى: ﴿.. وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ آخر الآية رقم ٧٤ من سورة الأعراف.

أى لا تفسدوا إفسادًا شديدًا.

- قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ..﴾ ـ من الآية رقم ٧٧ من سورة الأعراف.

يعنى: نحروها بالذبح، وأصل العقر الجرح.

- قوله تعالى: ﴿.. وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ..﴾ ـ من الآية رقم ٧٧ من سورة الأعراف.

أى استكبروا وتمردوا.

- قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ..﴾ - من الآية رقم ٧٨ من سورة الأعراف.

الزلزلة الشديدة أو الصيحة، تجعل الإنسان يتزعزع ويضطرب.

- قوله تعالى: ﴿.. فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ آخر الآية رقم ٧٨ من سورة الأعراف.

أى هامدين موتى لا حراك بهم؛ فصاروا جُثثًا هامدة.

- قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ..﴾ - من الآية رقم ٨٠ من سورة الأعراف.

«هو ابن أخ إبراهيم عليه السلام، وكان يسكن قرب البحر الميت بشرق الأردن فى قرية من قرى حمس، اسمها سدوم كانت تعمل الخبائث التى حكاها القرآن الكريم»[1]- وهذا من إخبار الغيب التى أعلمها الله لنبيه ﷺ.

- قوله تعالى: ﴿.. أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ..﴾ - من الآية رقم ٨٠ من سورة الأعراف.

الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتشنيع.

- قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ..﴾ - من الآية رقم ٨١ من سورة الأعراف.

مأخوذ من قولهم أتى المرأة: يعنى غشيها، أى يمارسون الفاحشة مع الرجال، ويسمى ذلك اللواط.

---

(١) حاشية الجمل جـ٢ ص١٦١.

- قوله تعالى: ﴿ .. إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ - من الآية رقم ٨٢ من سورة الأعراف.

أى يدَّعون الطهارة.

يسمى هذا النوع رفى علم البديع التعريض بما يوهم الذم.

- قوله تعالى: ﴿ .. كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ من الآية رقم ٨٣ من سورة الأعراف.

أى من الباقين فى عذاب الله تعالى.

- قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ..﴾ - من الآية رقم ٨٥ من سورة الأعراف.

- مدين: اسم البلد وقيل اسم القبيلة العربية التى كانت تسكن أطراف الشام، وكانوا يكفرون بالله، وقد عبدوا الأيكة من دون الله.

- شعيب: هو شعيب بن توبب بن مدين بن إبراهيم خليل الرحمن.

- قوله تعالى: ﴿ .. وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ ..﴾ - من الآية رقم ٨٥ من سورة الأعراف.

أى لا تنقصوا فى الحقوق، يُقال: بخسه حقه إذا نقصه إياه، والفعل مُتعدٍّ لمفعولين: الناس وأشياءهم.

- قوله تعالى: ﴿ .. تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ ..﴾ - من الآية رقم ٨٦ من سورة الأعراف.

أى تُخوِّفون الناس.

- قوله تعالى: ﴿.. وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا..﴾ من الآية رقم ٨٦ من سورة الأعراف أى تطلبونها معوجة أو ذات اعوجاج.

- قوله تعالى: ﴿.. فَكَثَّرَكُمْ..﴾ ـ من الآية رقم ٨٦ من سورة الأعراف.

أى بارك فيكم فأكثر عددكم.

- قوله تعالى: ﴿.. عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا..﴾ ـ من الآية رقم ٨٩ من سورة الأعراف.

إظهار الاسم الجليل (الله) ـ للمبالغة فى فى التضرع، وتقديم الجار والمجرور لإفادة الحصر.

- قوله تعالى: ﴿.. رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ من الآية رقم ٨٩ من سورة الأعراف وهى آخر الآية.

افتح: احكم واقض وافصل، والفاتح الحاكم على المبالغة.

- قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ..﴾ ـ من الآية رقم ٩١ من سورة الأعراف.

والرجفة: يعنى الحركة والاضطراب، والمراد الزلزلة والعذاب.

- قوله تعالى: ﴿.. كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا..﴾ من الآية رقم ٩٢ من سورة الأعراف.

كأنهم لم يُقيموا فيها، يقال غنى بالمكان، يعنى أقام به وعاش فيه فى نعمة ورَغد.

- قوله تعالى: ﴿.. فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ ـ من الآية رقم ٩٣ من سورة الأعراف. وهى آخر الآية.

آسى: أحزن والأسى هو الحزن الشديد.

قوله تعالى: ﴿ .. أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ .. ﴾ - من الآية رقم ٩٤ من سورة الأعراف.

البأساء: من البؤس وهى الشدة والمشقة أو الفقر أو المرض وغيرها.

والضراء: من الضُّر وهو ما يُضَر به الإنسان فى بدنه أو معيشته.

- قوله تعالى: ﴿ .. لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ من الآية رقم ٩٤ من سورة الأعراف وهى آخر الآية.

أى كى يتضرعوا ويخضعوا ويتوبوا من ذنوبهم.

- قوله تعالى: ﴿ .. حَتَّىٰ عَفَوا .. ﴾ من الآية رقم ٩٥ من سورة الأعراف.

عفوا: أى كثروا ونموا من قولهم عفا النبات، إذا كثر وازدهر.

- قوله تعالى: ﴿ .. لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .. ﴾ - من الآية رقم ٩٦ من سورة الأعراف.

المراد: خيرى السماء والأرض المعنوى منه والحسى، كالعلوم والمطر والتفوق فى مجالات العلم التى تسهل للإنسان إخراج ما فى الأرض من خيرات وبركات.

- قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ .. ﴾ من الآية رقم ١٠٠ من سورة الأعراف أى أو لم يتضح ويتبين للذين يخلفون الأرض.

- قوله تعالى: ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ .. ﴾ - من الآية رقم ١٠٢ من سورة الأعراف.

أى ما وجدنا لأكثر الناس من وفاء للعهد، بل وجدناهم خارجين عن الطاعة والامتثال.

وقد يكون بين طرفين كالمعاهدة، أو طرف واحد بأن يعهد إليك بشىء أو تلتزم به، والميثاق العهد المؤكد.

ب- مناسبة الآيات لما قبلها:

لما ذكر سبحانه قصة آدم عليه السلام أول السورة، وما يتعلق به، شرع فى ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام، فابتدأ بذكر نوح عليه السلام: «وهو نوح بن لامك بن متوشلح بن خنوخ وهو إدريس عليه السلام بن برد بن مهليل بن قنين بن بانش بن شيس بن آدم عليه السلام»[١].

وفى سرد قصص أخبار الأنبياء السابقين فوائد عديدة من أهمها:

أولا: بيان سوء عاقبة المستكبرين، وحسن عُقبى المطيعين، وفى ذلك تقوية قلوب المحقين، وكسر قلوب المبطلين.

ثانيًا: التنبيه على أن الله سبحانه لا يهمل المبطلين وإن كان يُمهلهم.

ثالثًا: الدلالة على نبوة محمد ﷺ - من حيث إنها إخبار بالغيب، فهو عليه السلام أُمىٌّ لم يقرأ كتب السابقين حتى يعرف أخبارهم، فيكون ذلك لا محالة وَحيًا من الله تعالى.

رابعًا: تسلية قلب الرسول ﷺ حيث آذاه قومه فإذا وقف على قصص السابقين وعرف ما تعرض له الأنبياء من أقوامهم كان فى ذلك سلوى له بمشيئة الله تعالى.

---

(١) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى جـ٣ ص٤٧.

جـ- التفسير التحليلى للآيات من أول رقم ٥٩ إلى آخر رقم ١٠٢ من سورة الأعراف:

أولا: قصة نوح عليه السلام:

١- قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ...﴾ ـ من الآية رقم ٥٩ من سورة الأعراف.

يعرض الله جل جلاله قصة نوح عليه السلام، باختصار ليس فيها التفصيلات التى فى السور الأخرى مثل سورة هود ونوح.

ولما كان الهدف هنا تصوير طبيعة العقيدة وطريقة، التبليغ، وطبيعة استقبال القوم لها، فيحقق النذير المقصود هنا، لذلك يدور حوار القصة على المنهج القصصى للقرآن الكريم.

- ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ـ الآية رقم ٥٩ من سورة الأعراف.

- وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ..﴾: جواب قسم محذوف أى والله لقد أرسلنا نوحًا إلى قومه، والدليل على هذا القسم وجود لامه فى بدء الجملة.

قال الألوسى: «واطرد استعمال هذه اللام مع قد فى الماضى، وقل الاكتفاء بها وحدها»[1]ـ والقسم دل على الاهتمام بالأمر.

---

(١) تفسير الألوسى جـ٨ ص١٤٨.

قال البقاعى: «نوح بن لمك بن متوشلخ بن خنوخ وهو إدريس عليه السلام، وكان إرسال نوح ابن خمسين سنة»[١]ـ وقد لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، ورغم هذا لم يؤمن به إلا القليل.

«واختلف فى قوله ﴿ .. مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ .. ﴾ هنا وفى هود والمؤمنون، فالكسائى وأبو جعفر، بخفض الراء وكسر الهاء، بعدها، على النعت أو البدل من إله لفظًا، ووافقهما المطوعى وابن محيصن، وفى قراءة بنصب الراء، وضم الهاء على الاستثناء، والباقون برفع الراء وضم الهاء على النعت أو البدل من موضع إله، ومن مزيدة»[٢] والمعنى واحد على كل هذه القراءات.

وكان قوم نوح يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم نوحًا، ليدلهم على طريق الرشاد.

قال ابن كثير: «قال عبد الله بن عباس وغيره، كان أول ما عُبدت الأصنام، أن قومًا صالحين ماتوا، فبنى قومهم عليهم مساجد، وصوروا صور أولئك الصالحين فيها، فلما طال الزمان، جعلوا أجسادًا على تلك الصور، فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام، وسَمُّوها بأسماء أولئك الصالحين ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا، فلما تفاقم الأمر، بعث الله تعالى رسوله نوحًا؛ فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له»[٣]ـ هكذا زين لهم الشيطان أعمالهم.

---

(١) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى جـ٣ ص٤٧.

(٢) إتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربع عشر للبناء ص٢٢٦.

(٣) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٣٢.

«وجملة: فقال يا قوم اعبدوا الله استئنافية جواب سؤال مُقدر»(١).

حكاية لما وجهه نوح لِقومه من إرشادات، أى قال لهم بتلطف وأدب، تلك الكلمة التى يوجهها كل رسول لمن أرسل إليهم اعبدوا الله وحده لا شريك له، فإنه المستحق للعبادة، أما سواه فلا يملك لنفسه نفعًا أو ضرًا.

ثم قص القرآن أن نوحا، قد حذر قومه من سوء عاقبة التكذيب، وأظهر لهم شفقته بهم وخوفه عليهم فقال:

﴿.. إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ـ آخر الآية رقم ٥٩ من سورة الأعراف.

يعنى: إنى أخاف عليكم إذا ما سرتم فى طريق الكفر والضلال، وتركتم عِبادة الله وحده، عذاب يوم عظيم، ووصف اليوم بالعظم، لبيان عظم ما يقع فيه ولتكميل الإنذار.

بهذا الأسلوب المقنع المهذب دعا نوح قومه، إلى وحدانية الله، فكيف كان ردهم عليه؟

٢- قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ آية رقم ٦٠ من سورة الأعراف.

الملأ: الأشراف والسادة من القوم، سموا بذلك لأنهم يملأون العيون مهابة، والملأ اسم جمع، لا واحد له من لفظه، كرَهْط.

(١) فتح القدير للشوكانى جـ٢ ص٣٠٥.

والجملة مستأنفة، كأنه قيل، فماذا قالوا له؟ فقيل: ﴿قَالَ الْمَلأُ﴾ .

والرؤية هنا قلبية ومفعولاها الضمير «الكاف»، والظرف ﴿فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ ـ وقيل بصرية، فيكون الظرف في موضع الحال، أى قال الأشراف من قوم نوح له، عندما دعاهم إلى وحدانية الله عز وجل، إنا لنراك بأمرك لنا بِعبادة الله وحده، وترك آلهتنا فى انحراف بين عن طريق الحق والرشاد.

يقال: ضل الطريق يضل وضل عنه ضلالا وضلالة، أى زال عنه، فلم يهتد إليه، وجعلوا الضلال ظرفًا له، وفى ضلال مبين مبالغة فى وصفهم له بذلك، وزادوا فى المبالغة، بأن أكدوا ذلك بالجملة المصدرة بأن ولام التأكيد.

وهكذا حال الفجار، إنما يرون الأبرار فى ضلالة ـ منطق معكوس.

ويرد نوح على قومه بأسلوب مهذب؛ فينفى عن نفسه الضلالة.

ويكشف لهم عن حقيقة دعوته ومصدرها فيقول:

٣- ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ...﴾ ـ من الآية رقم ٦١ من سورة الأعراف.

أى قال نوح لقومه مُستميلا لقلوبهم: يا قوم ليس بى أدنى ضلالة، فضلا عن الضلال المبين الذى رميتمونى به، فقد نفى الضلال عن نفسه على أبلغ وجه، لأن التاء فى ضلالة للمرة الواحدة، ونفى الأدنى أبلغ من نفى الأعلى، والمقام يقتضى ذلك، لأنهم لما بالغوا فى رَميه بالضلال المبين، رد عليهم بما يبرئه من أى لون من ألوانه، وفى تقديم الجارّ والمجرور (بى) تعريض بأنهم الذين فى ضلال واضح.

ثم قفى على نفى الضلالة عنه، بإثبات مقابلها لنفسه، وهى الهداية والتبليغ عن الله تعالى: فقال:

﴿ .. وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ آخر الآية رقم ٦١ من سورة الأعراف.

مرسل من قبل الله عز وجل لأهديكم سبيل الرشاد بإذن الله.

٤- ثم قال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ آية رقم ٦٢ من سورة الأعراف.

فبعد أن نفى نوح عن نفسه أى لون من ألوان الضلالة، وصف نفسه بأربع صفات.

أولها: قوله: ﴿ .. وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ـ آخر الآية رقم ٦١ من سورة الأعراف.

أى: لست بمنجاة من الضلال الذى أنتم فيه فحسب، ولكنى فضلا عن ذلك رسول من رب العالمين إليكم لِهدايتكم وإنقاذكم مما أنتم فيه من شرك وكفر.

والصفة الثانية قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي..﴾ ـ من الآية رقم ٦٢ من سورة الأعراف.

أى أبلغكم ما أوحاه الله إلىَّ من الأوامر والنواهى والمواعظ والزواجر والبشائر والنذائر، والعبادات والمعاملات.

قال الآلوسى: وجمع الرسالات مع أن رسالة كل نبى واحدة، لاختلاف أوقاتها، أو أنه أراد رسالته ورسالة غيره، ممن قبله من الأنبياء

كإدريس عليه السلام»[١]ـ والجملة مستأنفة لتقرير رسالة نوح عليه السلام وتقرير أحكامها.

والصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿ .. وَأَنصَحُ لَكُمْ.. ﴾ ـ من الآية رقم ٦٢ من سورة الأعراف.

أى: أبلغكم جميع تكاليف الله، وأتحرى ما فيه صلاحكم وخيركم، فأرشدكم إليه.

وأنصح مأخوذ من النصح، وهو «إخلاص النية من شوائب الفساد. يقال: نصحته ونصحت له نَصيحة ونصاحة، أى أرشدته إلى ما فيه صلاحه، ويقال: رجل ناصح الجيب، أى نقى القلب، والناصح الخالص من العسل وغيره مثل الناصح، وكل شىء خلص فقد نصح»[٢]ـ يعنى ظهر جليًّا.

والفرق بين تبليغ الرسالة، وبين النصح، هو أن تبليغ الرسالة معناه أن يعرفهم جميع أوامر الله ونواهيه، وجميع أنواع التكاليف التى كلَّفهم الله بها، وأما النصح فهو أن يُرغبهم فى قبول تلك الأوامر والنواهى والعبادات، ويحذرهم من عذا بالله إن عصوه.

وأما الصفة الرابعة: فهى قوله ﴿ .. وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ آخر الآية رقم ٦٢ من سورة الأعراف.

أى أبلغكم رسالات ربى، وأنصح لكم عَن إخلاص، وأعلم فى الوقت نفسه من الأمور الغيبية التى لا تُعلم إلا عن طريق الوحى، أشياء لا عِلم لكم بها، لأن الله قد خصنى بها.

---

(١) تفسير الألوسى جـ٨ ص١٥٢.

(٢) تفسير القرطبى ـ الجامع لأحكام القرآن جـ٧ ص٢٣٤.

والمعنى والله أعلم، أنى أعلم من قدرة الله الباهرة وشدة بطشه على أعدائه ما لا تعلمونه، فأنا أحذركم عن عِلم، وأنذركم عن بيِّنة فاتقوا الله وأطيعون.

وهذا شأن الرسول أن يكون مُبلغًا نصيحًا ناصحًا عالمًا بالله تعالى.

وبعد أن وصف نوح نفسه بتلك الصفات الأربع، وبيَّن لهم وظيفته أكمل بيان، أخذ ينكر عليهم استبعادهم، أن يخصه الله بالنبوة فقال سبحانه:

٥- ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ـ الآية رقم ٦٣ من سورة الأعراف.

الهمزة فى أول الجملة للاستفهام الإنكارى، والواو بعدها للعطف على محذوف مقدر بعد الهمزة.

«وفتحت الواو لكونها العاطفة»[١]ـ كأنه قيل استبعدتم وعجبتم أو أكذبتم وعجبتم، أو أنكرتم وعجبتم ـ ﴿أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ـ أى وحى وموعظة ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ ـ أى على لسان رجل منكم تعرفونه، ولم يكن ذلك على لسان من لا تعرفونه، أو لا تعرفون لغته.

والمعنى: أكذبتم وعجبتم من أن جاءكم ذكر أى موعظة من ربكم وخالقكم على لسان رجل من جنسكم تعرفون مولده ونشأته.

وحكى القرآن عن قوم نوح أنهم عجبوا من أن يختار الله رسولا منهم:

(١) فتح القدير للشوكانى جـ٢ ص٣٠٦.

﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ ﴾[1].

فقال أشراف قومه ورؤساؤهم الممعنون فى الكفر والضلال، ما هذا الذى يزعم أنه رسول إلا رجل من البشر، يريد أن يطلب الرياسة والشرف عليكم بدعواه النبوة، لتكونوا له أتباعًا.

- وقوله تعالى فى سورة الأعراف: ﴿ .. لِيُنذِرَكُمْ.. ﴾ من الآية رقم ٦٣ من سورة الأعراف.

علة للمجيء، أى ليحذركم العذاب والعقاب على الكفر والمعاصى.

- وقوله: ﴿ .. وَلِتَتَّقُوا.. ﴾ - من الآية رقم ٦٣ من سورة الأعراف.

علَّة ثانية مرتبة على العلَّة التى قبلها.

وقوله تعالى: ﴿ .. لِيُنذِرَكُمْ.. ﴾ أى ولتوجد منكم التقوى وهى الخشية من الله، بسبب الإنذار والوعيد.

- وقوله تعالى: ﴿ .. وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ آخر الآية رقم ٦٣ من سورة الأعراف.

علة ثالثة مترتبة على التى قبلها ﴿ .. لِتَتَّقُوا.. ﴾ - أى ولِترحموا بسبب التقوى والخوف من الله إن وجد منكم.

وهذا ترتيب حسن، لأن المقصود من الإرسال والإنذار التقوى ومن التقوى الفوز بالرحمة.

---

(١) سورة المؤمنون الآية رقم ٢٤.

وفائدة حرف الترجى ﴿ .. وَلَعَلَّكُمْ .. ﴾ - للتنبيه على عِزَّة المطلب وأن التقوى غير موجبة للبركة، بل هى منوطة بفضل الله، «وأن المتقى، ينبغى ألا يعتمد على تقواه ولا يأمن من عذاب الله»[١]، جل فى علاه.

فالمتقون يراقبون الله، ويفعلون ما أمروا به من طاعات، وهم خائفون ألا يتقبل الله منهم؛ فمهما راقب الإنسان ربه فهو مُقصر.

فما كان موقف قوم نوح من دعوته؟!

لقد صرحت السورة بأن موقفهم كان قبيحًا، ولذا عُوقبوا بما يناسب جرمهم، فقال تعالى:

٦- ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ... ﴾ - من الآية رقم ٦٤ من سورة الأعراف.

كان موقفهم قبيحًا، فكذب قوم نوح نبيهم نوحا، وأصروا على التكذيب، مع أنه دعاهم إلى الهدى ليلا ونهاراً، سِراً وجهاراً، ومكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، فكانت نتيجة ذلك:

- ﴿ .. فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ .. ﴾ - من الآية رقم ٦٤ من سورة الأعراف.

أى فأنجينا نوحا من الغرق هو والذين آمنوا معه، بأن حملناهم فى السفينة التى صنعها نوح، والفاء فى ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ للسببية.

والقرآن قد صرح بأن المؤمنين معه كانوا قلة، فقال: ﴿ .. وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾[٢] واختلفوا فى عدد هذا القليل.

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ٢ ص١٥٥.
(٢) من الآية رقم ٤٠ من سورة هود.

يقول الطبـرى: «وكانوا ثلاثة عشـر؛ نوح وبنيه الثلاثة سـام وحام ويافث وأزواجهم، وسـتـة أناس ممن آمن معه»[١]- وقيل غـير ذلك والله أعلم.

«وأمره ربه أن يحمل فيـها من كل زوجين اثنين من أنواع الحيوانات حتى لا ينقطع نسلها»[٢]- وليدوم بقاؤها بمشيئة الله تعالى.

- وقوله تـعالى: ﴿ ... وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ آخر الآية رقم ٦٤ من سورة الأعراف.

وعمين جمع عَمٍ صِفة مشبهة.

يقول الطبرى: «عمين عن الحق»[٣]- طُمست أبصارهم.

أى وأغـرقنا بالطوفـان، أولئك الذين كـذبوا بآياتنا من قـوم نوح، لأنهم كانوا قومًا عُمْى البـصائر عن الحق والإيمان، لا تنفع فيهم المواعظ ولم يجد معهم التذكير.

وهذه سنة الله فى خلقه، أن جعل حسن العـاقبة للمؤمنين، وسوء العذاب للجاحدين والعياذ بالله.

«وفى التـوراة أن الأمطار هطلت أربعـين يومًا ولـيلة دون انقطاع، حتى غمـرت المياه وجه الأرض، وعلت خمـسة عشر ذراعًا فـوق الجبال الشامخة»[٤] وتلك عظة وعبرة.

---

(١) تفسير الطبرى جـ٨ ص٢١٤.

(٢) تفسير القاسمى جـ٥ ص١٦٢.

(٣) تفسير الطبرى جـ٨ ص٢١٥.

(٤) المرجع السابق نفس الصفحة.

ثانيًا: ثم تحكى لنا السورة بعد ذلك قصة هود عليه السلام مع قومه.

١- فيقول تعالى:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ...﴾ من الآية رقم ٦٥ من سورة الأعراف.

تلك هى قصة هود مع قومه، كما حكتها سورة الأعراف، وقد وردت فى سور أخرى منها هود والشعراء والأحقاف وغيرها، وعاد فى الأصل اسم لأبى القبيلة، ثم سميت به القبيلة أو الحى.

وينتهى نسب هود إلى نوح عليه السلام؛ فهو هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام»[١]ـ ذرية بعضها من بعض من المؤمنين.

- وقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ...﴾ من الآية رقم ٥٦ من سورة الأعراف.

هذا معطوف على قوله تعالى فيما سبق لقد أرسلنا نوحا إلى قومه.

والمعنى وأرسلنا إلى قبيلة عاد أخاهم هودا، فقال لهم ما قاله كل نبى لقومه يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره.

ووصفه بأنه أخوهم، لأنه من قبيلتهم نسبًا، أو لأنه أخوهم فى الإنسانية.

---

(١) قصص الأنبياء ص٥٠ للشيخ عبد الوهاب النجار وروح المعانى للآلوسى جـ٧ ص١٥٤.

ثم حكى القـرآن أن هودًا أنكر على قـومـه عـبادتهم لـغيـر الله، وحَضَّهم على إفراد الله تعالى بالعبادة فقال: ﴿.. أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ آخر الآية رقم ٦٥ من سورة الأعراف.

أى: أفلا تخافون عذاب الله؛ فتـبتعدوا عن طريق الشرك والضلال لتنجوا من عِقابه وعذابه.

قال: أبو حيان وفى قوله: ﴿أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ استعطاف وتحضيض على تحصيل التقوى، ولما كـان ما حَلَّ بقوم نـوح من أمر الطوفان واقـعة لم يظهـر فى العـالم مـثلهـا، قـال لهـم: «إنى أخـاف عليكم عـذاب يوم عظيم»[1]- يعنى عذاب يوم القيامة.

٢- وكما هو ديدن المكذبين الداحضين للحق:

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ...﴾ من الآية رقم ٦٦ من سورة الأعراف.

أى قال الأغبياء الذين كـفروا من قوم هود له، إنا لنراك مُتمكنا فى خفَّـة العقل راسـخًا فـيهـا، حيث هجـرت دين قومك إلى ديـن آخر، وجُعلت السفاهـة ظرفًا على طريق المجاز، فقد أرادوا أنه متـمكن فيها، غير مُنْفك عنها.

وأصل السَّفه: «الخِفة والرقة والاضطراب»[2]- فهو مضطرب وشاع السفه فى خِفة العقل وضعف الرأى.

ولـم يكتفوا بوصفه بالسفه، بل أضافوا إلى ذلك قولهم:

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ٤ ص٣٢٣.

(٢) مفردات الراغب ص٢٤٠.

- ﴿ .. وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ آخر الآية رقم ٦٦ من سورة الأعراف.

أى وإنا نظنك من الكاذبين فى دعوى التبليغ عن الله تعالى.

وأكدوا ظنهم الآثم، كما أكدوا اتهامهم له بالسفه، مبالغة منهم فى الإساءة إليه.

ومن بلاغة القرآن وإنصافه، أنه قيد القائلين لهود هذا القول الباطل، بأنهم الملأ الذين كفروا من قومه، ليخرج منهم الأشراف الذين آمنوا من قومه.

وبعد هذا الرد القبيح منهم، أخذ هود يدافع عن نفسه، ويبين لهم وظيفته بأسلوب حكيم فقال:

٣- ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ آية رقم ٦٧ من سورة الأعراف.

أى ليس بى أى نوع من أنواع السفاهة كما تزعمون، ﴿ .. وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ - من الآية رقم ٦٧ من سورة الأعراف.

٤- ويسترسل المولى قائلا: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ آية رقم ٦٨ من سورة الأعراف.

فهود فى هذا الرد الحكيم على قومه، قد نفى عن نفسه تهمة السفاهة، كما نفى أخوه نوح من قبله عن نفسه تهمة الضلالة، ثم بين لهم بعد ذلك وظيفة رسالته ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي..﴾ - من الآية رقم ٦٨ من سورة الأعراف.

ثم أخبرهم بعد ذلك، بأنه بمقتضى أخوته لهم، ليس معقولا أن يكذب عليهم ويخدعهم ـ فإن الرائد لا يكذب أهله كما يقولون، وإنما هو ناصحٌ أمين، يهديهم إلى ما يُصلحهم ويُبعدهم عما يسوءهم، فقال: ﴿ .. وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ آخر الآية رقم ٦٨ من سورة الأعراف.

«وفى إجابات الأنبياء على أقوامهم، إنما هى أدب حسن وخلق عظيم، وتعليم لِعباده كيف يُخاطبون السفهاء، وكيف يغضون عنهم»[١]ـ وفى ذلك ذكرى لأولى الألباب.

ونلمس من خلال التعبير القرآنى، أن قوم هود قد تعجبوا من اختصاص هود بالرسالة، كما تعجب قوم نوح من قبلهم، فأخذ هود عليه السلام فى إزالة هذا التعجب فى نفوسهم فقال:

٥- ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ .. ﴾ من الآية رقم ٦٩ من سورة الأعراف.

أى أكذبتم وعجبتم أن جاءكم ذكر وموعظة، من ربكم على لسان رجل منكم تعرفون صدقه ونسبه وحسبه؛ فإن ما عجبتم له ليس موقع عجب، بل هو عين الحكمة، فقد اقتضت رحمة الله، أن يرسل لِعباده من بينهم من يرشدهم إلى الطريق القويم، والله تعالى يقول: ﴿ .. اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. ﴾[٢]ـ أى الله أعلم بمن هو أهل للرسالة فيضعها فيه.

ثم أخذ فى تذكيرهم بواقعهم الذى يعيشون فيه، لكى يحملهم على شكرِ نعم الله تعالى فقال:

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص١١٦.

(٢) من الآية رقم ١٢٤ من سورة الأنعام.

- ﴿.. وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ..﴾ من الآية رقم ٦٩ من سورة الأعراف.

أى اذكروا بتأمل واعتبار فضل الله عليكم ونعمه، حيث جعلكم مُستخلفين فى الأرض من بعد قوم نوح الذين أُغرقوا بالطوفان لكفرهم.

لا تتعجبوا وتدبروا فى أمركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح عليه السلام، لِتتعظوا، ثم ذكرهم بنعمة ثانية فقال:

- ﴿.. وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً..﴾ من الآية رقم ٦٩ من سورة الأعراف.

أى زادكم فى المخلوقات بسطة وسعة فى الملك والحضارة، وزادكم بسطة فى قوة أبدانكم.

ومن حق هذا الاستخلاف، وتلك القوة أن يُقابلا بالشكر لله رب العالمين.

ثم كرر هود عليه السلام تذكيرهم بِنعم الله تعالى فقال:

٥- ﴿.. فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ من الآية رقم ٦٩ من سورة الأعراف ـ وهى آخر الآية.

يعنى فاذكروا نِعم الله واشكروها له، لعلكم تفوزون بما أعده الله للشاكرين ـ من إدامتها عليهم، وزيادتها لهم.

وآلاء الله نِعمه الكثيرة وهى جمع آلى.

وإلى هنا يكون هود عليه السلام قد رد على قومه، رداً مُقْنِعًا حكيمًا، كان من المتوقع من ورائه أن يستجيبوا له، وأن يقبلوا على دعوته، ولكنهم لِسُوء تفكيرهم، وانطماس بصيرتهم أخذتهم العِزّة بالإثم، فقالوا لنبيهم عليه السلام:

٦- ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ آية رقم ٧٠ من سورة الأعراف.

قالوا له على سبيل الاستهزاء أجئتنا يا هود لأجل أن نعبد الله وحده ونترك ما كان يعبد آباؤنا من الأصنام، إن هذا لن يكون منا أبدًا.

فأتنا بما تعدنا به من العذاب إن كنت من الصادقين فيما تُخبرنا به، وهذا الرد من قوم هود طافح بالتحدى والاستهزاء واستعجال العذاب، حتى لكأن هودًا عليه السلام يدعوهم إلى منكر لا يطيقون سماعه، ولا يصبرون على الجدل فيه.

أليس هو يدعوهم إلى وحدانية الله وإفراده بالعبادة، وترك ما كان يعبد آباؤهم، وهذا فى زعمهم أمر منكر لا يطيقون الصبر عليه.

وهكذا يستحوذ الشيطان على قلوب بعض الناس وتفكيرهم، فيصور لهم الحسنات فى صورة سيئات، والسيئات فى صورة حسنات، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قالوا أجئتنا لِنعبد الله وحده، ولنخصه بالعبادة، ونذر ما كان يعبد آباؤنا، فأتنا بما تعدنا من العذاب إن كنت من الصادقين - يدل على أنه كان يتوعدهم بالعذاب من الله، إذا استمروا على شركهم، ويدل أيضًا على تصميمهم على الكفر، واحتقارهم لأمر هود عليه السلام، واستعجالهم إياه بالعقوبة على سبيل التحدى، لأنهم كانوا يتوهمون أن العقوبة لن تقع عليهم.

وإزاء هذا التحدى السافر من قوم هود له، ولدعوته ولوعيد الله لهم، ما كان من هود عليه السلام، إلا أن جابههم بالرد الحاسم، الذى

تتجلى فيه الشجاعة التامة، والثقة الكاملة، بأن الله سينصره عليهم، وينتقم له منهم.

٧- ثم أعقب المولى، بأنه قد وقع على قوم هود رِجس وغضب بقوله تعالى فى الآية رقم ٧١:

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ..﴾، أى قال هود لقومه، بعد أن لجوا فى طغيانهم، قد حق ووجب عليكم من قبل ربكم عذاب وسخط بسبب إصْراركم على الكفر والعِناد.

والرجس والرجز بمعنى واحد، وأصل معناه الاضطراب، يقال رجست السماء، أى رعدت رعدًا شديدًا، وهم فى مَرْجُوسة من أمرهم، أى فى اختلاط والتباس، ثم شاع فى العذاب والاضطراب.

وعبر عن العذاب المتوقع وقوعه، أنه قد وقع مُبالغة فى تحقيق الوقوع وأنه لا مفر لهم منه.

ثالثًا: ثم قصت علينا السورة بعد ذلك قصة صالح عليه السلام مع قومه، من الآيات رقم ٧٣ إلى آخر رقم ٧٩.

١- قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الآية رقم ٧٣ من سورة الأعراف.

تلكم هى قصته مع قومه، كما حكتها سورة الأعراف.

وقد وردت هذه القصة فى سور أخرى، كسورة هود والشعراء والنمل وغيرها.

«كانوا فى سعة من معايشهم، فخالفوا أمر الله وعبدوا غيره وأفسدوا فى الأرض؛ فبعث الله إليهم صالحًا نبيا وهو صالح بن عبيد بن آسف بن كاشح بن عبيد بن حاذر بن ثمود، وكانوا قومًا عُربًا، وقد كان صالح من أوسطهم نسبًا، فدعاهم إلى الله، ولم يتبعه منهم إلا قليل مُستضعفون»[١].

وثمود اسم للقبيلة التى منها صالح، سميت باسم جدها ثمود.

«وكانت مساكن ثمود: الحجر بين الحجاز والشام وهم من ولد سام ابن نوح، وسميت ثمود لِقلة مائها»[٢]- ولا شك أن الماء هو عصب الحياة.

وقد جاء قوم ثمود علامة بيِّنة من ربهم وهى الناقة.

بقوله تعالى: ﴿ .. قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً .. ﴾ من الآية رقم ٧٣ من سورة الأعراف.

«أخرج لهم الناقة حين سألوه من حَجَر صَلْد، فكان لها يوم تشرب فيه ماء الوادى كله، وتسقيهم مثله لَبَنًا، لم يشرب قط ألذ وأحلى منه، وكان بقدر حاجتهم على كثرتهم»[٣] قال تعالى: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[٤]- كان لها يوم تشرب فيه ماء الوادى كله، وللقوم اليوم الآخر.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢١٤.

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢١٤.

(٤) سورة الشعراء الآية رقم ١٥٥.

«وأُضيفت الناقة إلى الله عز وجل على جِهة إضافة الخلق إلى الخالق عز وجل، وفيه معنى التشريف والتخصيص»[(١)] - والتكريم.

قوله تعالى: ﴿ .. فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ .. ﴾ - من الآية رقم ٧٣ من سورة الأعراف.

فذروها تأكل فى الأرض العشب - «وحُذف للعلم به»[(٢)].

والأرض أرض الله تعالى.

ولا تمسوها بسوء، أى سوء كقوله تعالى: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم﴾.

والتنكير للتعميم، أى لا تتعرضوا لها بشىء مما يسوؤها أصلا، كالطرد والعقر وغير ذلك»[(٣)] - من أنواع الإيذاء.

وإن فعلتم ذلك أصابكم الله بعذاب أليم موجع لمخالفة أمر ربكم.

وكانت مساكن ثمود بالحِجر - بكسر الحاء وسكون الجيم والحجر مكان يقع بين الحجاز والشام إلى وادى القرى.

وموقعه الآن المنطقة التى بين الحجاز وشرق الأردن، ومازال المكان الذى كانوا يسكنونه، يسمى بمدائن صالح إلى اليوم.

وقبيلة صالح من قبائل العرب، وكانوا خلفاء لقوم هود عليه السلام بعد أن هلكوا؛ فورثوا أرضهم، وآتاهم الله نِعمًا وفيرة، وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم نبيهم صالحًا مبشرًا ونذيرًا.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢١٤.

(٢) روح المعانى للآلوسى جـ٨ ص١٦٣.

(٣) روح المعانى للآلوسى جـ٨ ص١٦٣.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ..﴾ من الآية رقم ٧٣ من سورة الأعراف.

أى وأرسلنا إلى ثمود أخاهم من النسب والموطن صالحًا: فقال لهم: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله سواه، قد جاءتكم مُعجزة ظاهرة الدلالة، شاهدة بنبوتى وصِدقى فيما أبلغه من ربى.

وقوله من ربكم متعلق بمحذوف صِفة لبينة، أى هذه البينة كائنة من ربكم، وليست من صُنْعى، فعليكم أن تصدقونى، لأنى مبلغ من الله تعالى.

ثم كشف لهم عن معجزته وحجته، فقال هذه ناقة الله لكم آية، أى هذه التى ترونها وأُشير إليها ناقة الله، جعلها سبحانه علامة لكم على صِدقى.

ثم أرشدهم إلى ما يجب عليهم نحوها، فقال: فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء، فيأخذكم عذاب أليم مُوجع.

أى اتركوا الناقة حرة طليقة تأكل فى أرض الله التى لا يملكها أحد سواه، ولا تعتدوا عليها بأى لون من ألوان الاعتداء، لأنكم لو فعلتم ذلك أصابكم العذاب الموجع الأليم.

والفاء فى قوله فذروها للتفريع على كونها آية من آيات الله، فيجب إكرامها، وعدم التعرض لها بسوء، وتأكل مجزوم فى جواب الأمر.

وأضيفت الأرض إلى الله أيضًا، قَطْعًا لِعذرهم فى التعرض لها، فكأنه يقول لهم: الأرض أرض الله، والناقة ناقته، فذروها تأكل فى

أرضه، وما فيها من عشب ونبات ليس من صنعكم، فأى عذر لكم فى التعرض لها.

وفى نهيهم أن يمسوها بسوء، تنبيه بالأدنى على الأعلى، لأنه إذا كان قد نهاهم عن مسها بسوء إكرامًا لها، فنهيهم عن نحرها أو عقرها أو منعها من الكلأ والماء من باب أولى، فالجملة الكريمة وعيد شديد لمن يمسها بسوء.

وبعد أن بين لهم صالح وظيفته. ،كشف لهم عن معجزته، وأنذرهم بسوء العاقبة إذا خالفوا أمره، أخذ فى تذكيرهم بِنعم الله عليهم، وبمصائر الماضين قبلهم فقال تعالى:

٢- ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ.. ﴾ ـ من الآية رقم ٧٤ من سورة الأعراف.

أى واذكروا بتدبر واتعاظ نِعم الله عليكم، حيث جعلكم خُلفاء لِقبيلة عاد فى الحضارة والعمران والقوة والبأس، بعد أن أهلكهم الله بسبب طغيانهم وشِرْكهم.

وقوله: ﴿ .. وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً.. ﴾ ـ أى أنزلكم فيها وجعلها مَبَاءة ومساكن لكم، يُقال بوأه منزلا، أى أنزله وهيأ له ومكن له فيه.

والمراد بالأرض، أرض الحجر التى كانوا يسكنونها، وهى بين الحجاز والشام، وتتخذون من سهولها قصوراً، وتنحتون الجبال بيوتًا.

والسهول هى الأراضى السهلة المُنبسطة، والجبال هى الأماكن المتحجرة المرتفعة.

أى أنزلكم فى أرض الحجر ويسر لكم أن تتخذوا من سهولها قصورًا جميلة ودورًا عالية، ومن جبالها بيوتًا تسكنونها بعد نحتكم إياها، وكل هذا بتوفيق الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿ .. فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ .. ﴾ من الآية رقم ٧٤ من سورة الأعراف.

أى نِعمه التى أنعم بها عليكم، فاذكروا جميع نعمه، وليس المراد مجرد الذكر باللسان، بل بالقلب والجنان، واستعمال النِّعم فى مرضاة الله والبعد بها عن مساخطه ومعاصيه، والتحدث بِنعمه، وأما بنعمة ربك فحدث.

- وقوله تعالى: ﴿ .. وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ من الآية رقم ٧٤ من سورة الأعراف.

أى فاذكروا بتدبر واتعاظ نعم الله عليكم، واشكروه على هذه النعم الجزيلة، وخصوه وحده بالعبادة، ولا تتمادوا فى الفساد.

وإلى هنا تكون السورة الكريمة، قد ذكرت لنا جانبًا من النصائح التى وجهها صالح لِقومه، فماذا كان موقفهم منه.

لقد كان موقفهم لا يقل فى القبح والتطاول والعِناد عن موقف قوم نوح وهود، وهاك ما حكاه القرآن عنهم.

٣- قوله تعالى: ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ ـ من الآية رقم ٧٥ من سورة الأعراف.

أى: قال المترفون المتكبرون من قوم صالح للمؤمنين المُستضعفين الذين هداهم الله إلى الحق، أتعلمون أن صالحًا مرسل من ربه إليكم لعبادة الله وحده لا شريك له.

وهو سؤال قصد المترفون منه، تهديد المؤمنين والاستهزاء بهم لأنهم يعلمون أن المؤمنين يعرفون أن صالحًا مرسل من ربه.

«فإن الجواب الموافق لسؤالهم نعم أو نعلم أنه مرسل منه تعالى»[1]ـ فهو نبى مرسل كسائر الأنبياء عليهم السلام.

ولذا وجدنا المؤمنين لا يردون عليهم بما يقتضيه ظاهر السؤال، بأن يقولوا لهم: نعم أنه مرسل من ربه، وإنما ردوا عليهم بقولهم، إنا بما أرسل به مؤمنون، مسارعة منهم إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل، وإظهار الإيمان الذى استقر فى قلوبهم، وتنبيهًا إلى أن أمر إرسال صالح من الظهور والوضوح، بحيث لا ينبغى لعاقل أن يسأل عنه.

وفى قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ..﴾.

«الثانى بدل من الأول، لأن المستضعفين هم المؤمنون، وهو بدل البعض من الكل»[1]ـ والضمير فى ﴿مِنْهُمْ﴾ يعود على قوم صالح.

وهنا يعلن المستكبرون عن موقفهم فى عناد وصلف وجحود، واستمع إلى القرآن وهو يحكى ذلك فيقول:

٤- ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ الآية رقم ٧٦ من سورة الأعراف.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢١٦.

أى قـال المسـتكبـرون ردًا على المؤمنـين الفـقراء، إنـا بما آمنتم به كافرون، ولم يقولوا إنا بما أرسل به كافرون.

ثم أتبع المستكبرون قولهم القبيح، بفعل أقبح يتجلى هذا الفعل فى قوله تعالى:

٥- ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ آية رقم ٧٧ من سورة الأعراف.

أى نحروها، وأصل العقـر، قطع عرقوب البعير، ثم اسـتعمل فى النحر، لأن نَاحِرَ البعير، يعقره ثم ينحره.

«العقر الجرح ـ قال القشيرى: العقـر كشف عرقوب البعير، ثم قيل للنحر عقر، لأن العقر سبب النحر فى الغالب»[١].

أى عقروا الناقـة التى جعلها الله حجـة لِنبيه صالح علـيه السلام، والتى قال لهم صالح فى شأنها لا تمسـوها بسوء، فيأخذكم عذاب أليم» موجع.

وأسند العقر إلى جميعـهم، لأنه كان برضاهم، وإن لم يباشره إلا بعضهم.

وقد اختلف فى عـاقر الناقة على أقوال: إذ انبعث أشـقاها، انبعث لها رجل عزيز عارم منيع فى رهطه مثل أبى زمـعة، وقيل فى اسمه قدار ابن سالف»[٢].

ويقال للقـبيلة الكبيـرة أنتم فعلتم كذا، مع أن الفـاعل واحد منهم لكونه بين أظهرهم.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢١٦.

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة والتى بعدها.

وقوله سبحانه: ﴿ .. وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ.. ﴾ من الآية رقم ٧٧ من سورة الأعراف.

أى استكبروا عن امتثال أوامره واجتناب نواهيه من العتو وهو التكبر عن الحق، والغلو فى الباطل، يقال عتا يعتو عتيا إذا تجاوز الحد فى الاستكبار فهو عات وعتى.

وقد اختار القرآن كلمة عتوًا لإبراز ما كانوا عليه من تجبر وتبجح وغرور باقترافهم للمعاصى والجرائم التى من أبرزها عقر الناقة، فهم قد فعلوا ما فعلوا عن تعمد وإصرار على ارتكاب المنكر.

ثم لم يكتفوا بكل هذا بل قالوا لنبيهم فى سفاهة وتطاول: ﴿ .. يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ آخر الآية رقم ٧٧ من سورة الأعراف.

نادوه باسمه تهوينا لِشأنه وتعريضًا بما يظنون من عجزه، وقالوا له على سبيل تعجيل العذاب الذى توعدهم به إذا استمروا فى طغيانهم، ائتنا بما توعدتنا به إن كنت صادقًا فى رسالتك.

ولقد كان رد القدر على تبجحهم وعتوهم واستكبارهم سريعًا، قال تعالى:

٦- ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ الآية رقم ٧٨ من سورة الأعراف.

الرجفة: الزلزلة الشديدة، يُقال: رجفت الأرض ترجف رجفًا إذا اضطربت، وزلزلت، ومنه الرجفان للاضطراب الشديد.

وقال الفراء والزجاج أى الزلزلة الشديدة، وقال: مجاهد والسدى هى الصيحة، وللجمع بين القولين بأنه يحتمل أنه أخذتهم الزلزلة من تحتهم، والصيحة من فوقهم، حتى يتم إهلاكهم.

﴿ .. فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ ...﴾ من الآية رقم ٧٨ من سورة الأعراف.

أى فى بلدهم أو دورهم، وقال فى موضع آخر فى ﴿ دِيَارِهِمْ ﴾[١]ـ أى فى منازلهم.

وقوله تعالى: ﴿ .. جَاثِمِينَ﴾ آخر الآية ٧٨ من سورة الأعراف.

«وجاثمين» أى لاصقين بالأرض ـ على ركبهم ووجوههم كما يجثم الطائر، أى صاروا خامدين من شدة العذاب»[٢].

وقيل احترقوا بالصاعقة، فأصبحوا ميتين إلا رجلا واحدًا كان فى حرم الله، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه»[٣]ـ الهلاك والعياذ بالله.

ويتركهم القرآن على هيئتهم جاثمين، ليتحدث عن نبيهم صالح الذى كذبوه فيقول:

٧ـ ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ ـ الآية رقم ٧٩ من سورة الأعراف.

---

(١) سورة هود من الآية رقم ٦٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢١٨.

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة.

وقوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ..﴾ - أى عند اليأس منهم»[١] وانقطاع الأمل فيهم.

أى فأعرض عنهم نبيهم صالح، وتركهم للمصير الذى جلبوه على أنفسهم وأخذ يقول مُتحسِّرًا على ما فاتهم من الإيمان، يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى كاملة غير منقوصة، ونصحت لكم ولكن كان شأنكم العداوة للناصحين، فلم تقبلوا نصح نبيكم.

٨- ثم حكت لنا السورة بعد ذلك جانبًا مما دار بين لوط وقومه فقالت:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ الآية رقم ٨٠ من سورة الأعراف.

«ولوطًا نصب بِفعل مضمر، وأكثر النسابين على أنه عليه السلام ابن أخى إبراهيم عليه السلام، ولوط هو ابن هاران بن آزر.

وأخرج ابن إسحق عن ابن بشر، وابن عساكر عن ابن عباس، قال أرسل لوط إلى المؤتفكات، وكانت قرى لوط مدائن سدوم وجهم، وأمورا وعمورا وصوبر، وكان فى كل قرية مائة ألف مقاتل، وكانت أعظم مدائنهم سدوم، وكان لوط يسكنها، وهى من بلاد الشام ومن فلسطين مسيرة يوم وليلة.

فبعث الله لوطًا إلى أهل سدوم، وما حولها من القرى، يدعوهم إلى الله، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم، والفواحش التى اخترعوها، لم يسبقهم بها أحد من بنى آدم،

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢١٨.

وهو إتيان الذكور دون الإناث، وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه حتى صنع ذلك أهل سدوم، وهى قرية بوادى الأردن»[١] ـ وهذا فيما ذكره كل من الآلوسى وابن كثير فى تفسيرهما.

وقوله تعالى: ﴿ .. إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ .. ﴾ ـ من الآية رقم ٨٠ من سورة الأعراف.

ظرف لأرسلنا.

واذكر رسالة لوط إذ قال لقومه: ﴿ .. أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ ـ من الآية رقم ٨٠ من سورة الأعراف.

«استفهام على سبيل التوبيخ والتقريع، أى إنما تفعلون تلك الفعلة النكراء التى بلغت أقصى القبح وغايته»[٢] ـ يعنى فعلة شنيعة فى قبحها ومنكرها.

والتى ما فعلها أحد قبلكم، فى زمن من الأزمان، فأنتم أول من ابتدعها، فعليكم وزرها ووزر من عملها إلى يوم القيامة، والاستفهام للإنكار والتوبيخ.

ومن فى قوله ﴿ .. مِنْ أَحَدٍ .. ﴾ ـ لتأكيد النفى وعمومه المستغرق لكل البشر.

والجملة مستأنفة مسوقة، لتأكيد التنكير وتشديد التوبيخ والتقريع، فإن مباشرة القبح قبيح واختراعه أقبح، فأنكر عليهم أولا إتيان الفاحشة، ثم وبخهم بأنهم أول من عملها.

(١) روح المعانى للآلوسى جـ٨ ص١٦٩.
(٢) روح المعانى للآلوسى جـ٨ ص١٦٩.

ثم أضاف لوط إلى إنكاره على قومه إنكارًا آخر وتوبيخًا أشنع فقال:

٩- ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ الآية رقم ٨١ من سورة الأعراف.

أى إنكم أيها القوم الممسوخون فى طبائعهم، حيث تأتون الرجال الذين خلقهم الله لِيأتوا النساء، ولا حامل لكم على ذلك إلا مجرد الشهوة الخبيثة.

والإتيان كناية عن الاستمتاع والجماع، من أتى المرأة إذا غشيها.

وفى إيراد لفظ الرجال دون الغِلمان، مبالغة فى التوبيخ والتقريع.

وفى قوله: ﴿.. مِّن دُونِ النِّسَاءِ..﴾ إيماء إلى أنهم تجاوزوا النساء اللاتى هن محل الاشتهاء عند ذوى الفِطر السليمة إلى غيرهن.

فأنتم تأتون الرجال حالة كونكم تاركين النساء اللاتى هن موضع الاشتهاء عند ذوى الطبائع السليمة والأخلاق المستقيمة.

وفى قوله: ﴿.. بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ آخر الآية رقم ٨١ من سورة الأعراف.

«أى إنكم لا تأتون هذه الفاحشة، ثم تندمون على ما فعلتم، بل أنتم قوم مسرفون فيها وفى سائر أعمالكم ـ فكانوا مُسرفين فى لذاتهم متعدين حدود العقل والفطرة ولا يعقلون ضرر ما يفعلون، بجنايتهم على

النسل والصحة والآداب العامة، فهم لو عقلوا ذلك لاجتنبوها، ولو كان لديهم شيء من الفضيلة لانصرفوا عنها»[١] ولكنهم لا عقل عندهم.

قال الجمل: وإنما ذمهم وعيرهم ووبخهم، بهذا الفعل الخبيث لأن الله تعالى خلق الإنسان، وركب فيه شهوة النكاح لبقاء النسل وعمران الدنيا، وجعل النساء محلا للشهوة وموضعًا للنسل، فإذا تركهن الإنسان وعدل عنهن إلى غيرهن من الرجال، فقد أسرف وتجاوز واعتدى، لأنه وضع للشيء فى غير محله وموضعه الذى خلق له، لأن أدبار الرجال ليست محلا للولادة»[٢]- وفى ذلك تحليل دقيق، لهذا الفعل المنكر، الذى لم يحدث فى قوم من الأقوام أعاذنا الله منه.

وفى قوله: ﴿ .. بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ من الآية رقم ٨١ من سورة الأعراف.

أى أنتم أيها القوم لستم ممن يأتى الفاحشة، مرة ثم يهجرها ويتوب إلى الله، بل أنتم قوم مسرفون فيها، وفى سائر أعمالكم لا تقفون عند حد الاعتدال فى عمل من الأعمال.

ومجموع الآيات التى ذمت قوم لوط فى القرآن الكريم، تدل على أنهم كانوا مصابين بِفساد العقل وانحطاط الخلق، وإيثار الغىِّ والعدوان على الرشاد.

١٠- ولقد حكى القرآن جوابهم القبيح على نصائح نبيهم لهم فقال:

(١) تفسير المراغى جـ٣ ص٢٣٤.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ٢ ص١٦٢.

﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ .. ﴾ من الآية رقم ٨٢ من سورة الأعراف.

أى وما كان جواب الطغاة المستكبرين على نصائح نبيهم لوط عليه السلام إلا أن قال بعضهم لبعض أخرجوا لوطًا ومن معه من المؤمنين من قريتكم سدوم التى استوطنتموها وعِشتم بها.

وقوله تعالى: ﴿ .. إِلاَّ أَن قَالُوا .. ﴾ ـ من الآية رقم ٨٢ من سورة الأعراف.

استثناء مُفرغ من أعم الأشياء، أى ما كان جوابهم شيئًا من الأشياء سوى قول بعضهم لبعض أخرجوهم من قريتكم.

لماذا هذا الإخراج، وقد بين القرآن أسبابه، كما تفوهت به ألسنتهم الخبيثة واتفقت عليه قلوبهم المنكوسة؛ فقال: ﴿ .. إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ آخر الآية رقم ٨٢ من سورة الأعراف.

بهذه الجملة التعليلية.

أى إن لوطًا وأتباعه أناس يتنزهون عن إتيان الرجال، وعن كل عمل من أعمالنا لا يرونه مناسبًا لهم، يقال تطهر الرجل أى تنزه عن الآثام والقبائح.

«وقولهم إنهم أناس يتطهرون سخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش وافتخار بما كانوا فيه من القذارة»[1]ـ وهذا غرور والعياذ بالله.

١٠- ثم حكت السورة عاقبة الفريقين فقالت: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ .. ﴾ أى أنجينا لوطًا ومن معه من ذويه أو من المؤمنين.

---

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص١٢٧.

ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط، كما قال تعالى:

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١)ـ ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(٢).

أى فأخرجنا من كان فيها من قرى لوط من المؤمنين لئلا يهلكوا، فما وجدنا أى مما كان فيها بعد البحث والتفتيش غير أهل بيت واحد من المسلمين لوط وابنتيه، يعنى قلة المؤمنين الناجين من العذاب.

- وقوله تعالى: ﴿.. إِلاَّ امْرَأَتَهُ..﴾ ـ من الآية ٨٣ من الأعراف.

أى استثناء من أهله، أى فأنجيناه وأهله إلا امرأته فإنا لم ننجها لخبثها وعدم إيمانها.

قال ابن كثير إنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها وتخبرهم بمن يقدم عليه من ضيفانه، بإشارات بينها وبينهم، ولهذا لما أمر لوط عليه السلام ليسرى بأهله أمر أن لا يعلمها ولا يخرجها من البلد، ولهذا قال ها هنا ﴿.. إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أى الباقين فى العذاب»(٣)ـ وهكذا أخذ ربك للضالين المضلين.

والغابر: الباقى، يقال غبر الشىء، يغبر غبوراً أى بقى، وقد يستعمل فيما مضى فى الزمن الغابر أى الماضى.

١١- وقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا..﴾ من الآية رقم ٨٤ من سورة الأعراف.

---

(١) آية رقم ٣٥ من سورة الذاريات.

(٢) آية رقم ٣٦ من سورة الذاريات.

(٣) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٣١.

«الإمطار حقيقة فى المطر، مجاز فيما يشبهه فى الكثرة من خير وشر مما يجىء من السماء أو من الأرض، أى وأرسلنا عليهم مطرًا عجيبًا أمره، وهو الحجارة التى رجموا بها، وهى حجارة من سجيل مسومة أى معلمة ببياض فى حمرة»[١]ـ وهذا من الإعجاز.

يقول تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾[٢].

أى جزيناهم بالعقوبة التى تناسب شناعة جرمهم، فإنهم لما قلبوا الأوضاع، فأتوا الرجال دون النساء، أهلكناهم بالعقوبة التى قلبت عليهم قريتهم، فجعلت أعلاها أسفلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل أى من طين متجمد.

- ثم ختمت القصة بالدعوة إلى التعقل والتدبر والاعتبار فقال تعالى: ﴿.. فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ ـ آخر الآية رقم ٨٤ من سورة الأعراف.

أى فانظر أيها العاقل نظرة تدبر واتعاظ فى مآل أولئك الكافرين المقترفين لأشنع الفواحش، واحذر أن تعمل أعمالهم، حتى لا يصيبك ما أصابهم، وسر فى الطريق المستقيم، لِتنال السعادة فى الدنيا والآخرة بمشيئة الله تعالى.

ويقول المراغى، وخلاصة القول فى تحريم هذه الفاحشة:

أ- إنها مفسدة للشبان بالإسراف فى الشهوات.

---

(١) تفسير المراغى جـ٣ ص٢٣٥.

(٢) آية رقم ٧٤ من سورة الحجر..

ب- إنها مفسدة للنساء اللواتي ينصرف أزواجهن عنهن.

جـ- قلة النسل من لوازم ذلك الرغبة عن الزواج.

وفى الحياة الزوجية الشرعية إحصان كل من الزوجين للآخر بقصر لذة الاستمتاع عليه، وجعل ذلك وسيلة للحياة الوالدية التى تنمو بها الأمة، ويحفظ بها النوع البشرى من الزوال»[١].

والله تعالى شرع شرعه لاستقامة الأخلاق وللسعادة فى الدنيا والآخرة إذا اتبعنا نهجه القويم.

١٢- وينتقل السياق القرآنى إلى قصة مدين وأخيهم شعيب، بقوله تعالى:

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ.. ﴾ من الآية رقم ٨٥ من سورة الأعراف.

أى وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيبا.

«قيل فى مدين اسم بلد وقطر، وقيل اسم قبيلة، كما يقال بكر وتميم وقيل هم من ولد مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام»[٢].

وكانوا يسكنون فى المنطقة التى تسمى معان بين حدود الحجاز والشام، وهم أصحاب الأيكة، والأيكة منطقة مليئة بالشجر كانت مجاورة لقرية معان، وكان يسكنها بعض الناس فأرسل الله شعيبا إليهم جميعا.

---

(١) تفسير المراغى جـ٣ ص٢٣٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢٢٣.

«وشعيب هو ابن ميكيل بن يَشْجر بن مدين بن إبراهيم عليه السلام، هكذا ذكره الألوسى»(١).

وكان قومه أهل كفر وبخس للمكيال والميزان، فدعاهم إلى توحيد الله تعالى، ونهاهم عن الخيانة وسوء الأخلاق.

والمحققون من العلماء أن مدين وأصحاب الأيكة أمة واحدة أخذتهم الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة أى السحابة، وأن كل عذاب كان كالمقدمة للآخر.

وقوله تعالى: ﴿ .. قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ .. ﴾ من الآية رقم ٨٥ من سورة الأعراف.

فبعد أن دعا شعيب قومه إلى وحدانية الله، شأن جميع الرسل فى بدء دعوتهم، قال لهم: ﴿ .. قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ .. ﴾ أى قد جائتكم معجزة شاهدة بصحة نبوتى توجب عليكم الإيمان بى، والأخذ بما آمركم به والانتهاء عما أنهاكم عنه.

قال الزمخشرى: «فإن قلت ما كانت معجزة شعيب؟ قلت قد وضح العلم بأنه كانت له معجزة لقوله تعالى: ﴿ .. قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ .. ﴾، ولأنه لابد لمدعى النبوة من معجزة تشهد له بصدقه، وإلا لم تصح دعواه وكان متنبئًا لا نبيًا، غير أن معجزته لم تذكر فى القرآن، كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا محمد ﷺ»(٢)ـ فما ذكر منها مثلا الإسراء والمعراج.

(١) روح المعانى للألوسى جـ٨ ص١٧٥.

(٢) تفسير الكشاف جـ٢ ص١٢٧.

ثم أخـذ القرآن الكريم فى نهى آل شـعـيب عن أبرز المنكرات التى كانت متفشية فيهم بقوله تعالى:

١١- ﴿ .. فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. ﴾ من الآية رقم ٨٥ من سورة الأعراف.

والكيل والميزان مصدران أريد بهما ما يكال وما يوزن.

أى فأتموا الكيل والميـزان للناس، بحيث يُعطى صاحب الحق حـقه من غير نقصان، ويأخذ صاحب الحق حقه من غير طلب زيادة.

وقوله: ﴿ .. وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. ﴾ من الآية رقم ٨٥ من سورة الأعراف.

أى ولا تنقصـوهم حقـوقهم بتطفـيف الكيل ونقص الوزن، فيـما يجرى بينكم وبينهم من معاملات، والبخس يشمل نقص المكيل والموزون وغيرهما من المبيعات كالمواشى والأشياء المعدودة.

ويشمل البـخس فى المساومـة والغش والحِيل التى تنقص الحـقوق، وفى الحقوق المعنوية كالعلوم والفضائل، يقال بخسه حقه يبخسه إذا نقصه إياه وظلمه فيه وتبخسوا تتعدى إلى مفعولين الأول الناس والثانى الأشياء.

وفائدة التصريح بالنهى عن النقص بعـد الأمر بالإيفاء، تأكيد ذلك الأمر وبيان قبح ضده.

قال الآلوسى: «وقد يراد بالأشـياء الحقوق مُطلقًا، وقد كـانوا قومًا طغاة بغاة، يجلسون على الطريق، فيبخسون الناس أموالهم، ويدخل فى ذلك بخس الرجل حقـه من حسن المعـاملة، والتوقيـر اللائق به، وبيان فضله»[١]ـ وليس هذا من الدين فى شىء.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٨ ص١٧٧.

ثم نهى شعيب قومه عن الفساد بوجه عام بقوله:

﴿ .. وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا .. ﴾ من الآية رقم ٨٥ من سورة الأعراف.

أى لا تفسدوا فى الأرض بما ترتكبون فيها، من ظلم وبغى وعصيان، بعد أن أصلح أمرها وأهلها الأنبياء وأتباعهم والصالحون.

ثم ختمت الآية بهذه الجملة التى استجاش بها شعيب مشاعر الإيمان فى نفوس قومه بقوله: ﴿ .. ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ آخر الآية رقم ٨٥ من سورة الأعراف.

أى ذلكم الذى آمركم به وأنهاكم عنه خير لكم فى الحال والمآل، فبادروا إلى الاستجابة لى إن كنتم مصدقين قولى، ومنتفعين بالهدايات التى جئت بها إليكم من ربكم.

واسم الإشارة ذلك يعود إلى ما ذكر من الأمر بالوفاء فى الكيل والميزان، والنهى عن بخس الناس أشياءهم وعن الفساد فى الأرض.

وقوله تعالى: ﴿ .. ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ من الآية رقم ٨٥ من سورة الأعراف.

أى ذلكم الذى تقدم من الأمر والنهى خير لكم فى دينكم ودنياكم؛ فإن ربكم لا يأمر إلا بالنافع ولا ينهى إلا عن الضار.

وإنما يكون ذلك خيراً لكم إن كنتم مؤمنين بوحدانية الله، وبرسوله وبما جاءكم من شرع وبما آتاكم من هدى، فالإيمان يقتضى الامتثال والعمل بما جاء به الرسول ﷺ من عند الله تعالى.

والمؤمن الموحد لا يخضع إلا لربه، وإنما يُطيع رسوله لأنه مبلغ عنه لقوله تعالى: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ..﴾[1] ـ فالرسول ﷺ جاء بالحق من عند الله تعالى.

١٢- ثم انتقل شعيب إلى نهى قومه عن رذائل أخرى، كانوا متلبسين بها فقال سبحانه:

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ..﴾ من الآية رقم ٨٦ من سورة الأعراف.

توعدون من التوعد بمعنى التخويف والتهديد، أى ولا تقعدوا بكل طريق من الطرق المسلوكة، تهددون من آمن بشعيب بالقتل وتخيفونه بأنواع الأذى، وتلصقون التهم بنبيكم وهو برىء منها وتقولون لمن آمن به وبرسالته إنه كذاب.

وقوله: ﴿.. وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا..﴾ من الآية رقم ٨٦ من سورة الأعراف.

والضمير فى به يعود على الله جل جلاله.

وقوله تعالى: ﴿.. وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ آخر الآية رقم ٨٦ من سورة الأعراف.

أى وتصرفون عن دين الله وطاعته من آمن به وتطلبون طريقة العوج بإلقاء الشُّبه.

وقوله تعالى: ﴿.. وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ..﴾ من الآية رقم ٨٦ من سورة الأعراف.

---

(١) من الآية رقم ٨٠ من سورة النساء.

وكثـركم بالعَدد والعُدَد، فاشكـروا نعـمـة الله عليكـم فى ذلك.
وقوله تعالى: ﴿.. وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ آخر الآية رقم ٨٦ من سورة الأعراف.

يعنى عاقبة الأمم الخالية والقرون الماضية، وما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصى الله، وتكذيب رسله، وكيف أهلكهم الله بفسادِهم وبغيهم فى الأرض، فاعـتبروا بما حل بهم واحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم.

١٣- ثم نصحهم شعيب أن يأخذوا أنفسهم بشىء من العدل وسعة الصدر، وأن يـتركوا أتبـاعه أحـرارًا فى عقـيدتهم حـتى يحكم الله بين الفريقين فقال:

﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ الآية رقم ٨٧ مـن سـورة الأعراف.

أى وإن كان بعـضكم قد آمن بما أرسلنى الله به إليكم من التوحـيد وحسن الأخلاق، وبعضكم لم يؤمن بما أرسلت به، بل أصر على شركه وعِناده، فتـربصوا وانتظروا حـتى يحكم الله بيننا وبينكم بِحكمـه العادل الذى يتـجلى فى نصـره المؤمنين وإهلاك الـظالمين وهو سـبحـانه خـيـر الحاكمين.

وإن كان شعيب يأمر قومه بوحدانية الله؛ لأنها أساس العقيدة وركن الدين، ثم يتبع ذلك بمعالجة الجـرائم التى كانت مُتفشية فيـهم؛ فيأمرهم بإيفائهم الكيل والميزان، وينهاهم عن بَخْس الناس أشياءهم، وعن الفساد

فى الأرض، وعن القعـود فى الطرقات لتخـويف الناس وتهديدهم وعن مـحاولة صَـرْفِهم عن طريق الحق بـإلقاء الشـبهـات، وإشاعـة الأباطيل مسـتعـملا فى وعظه التـذكيـر بنعم الله تارة، وبنقمـه من المكذبين تارة أخرى.

ولقد كان من المنتظر أن يتقبل قوم شعيب هذه المواعظ تَقبلا حسنًا، وأن يُصدقوه فـيما يبلغه عن ربه، ولكـن المستكبرين منهم عمـوا وصموا عن الحق، والعياذ بالله.

وانتظروا حتى يحـكم الله بيننا وبينكم بحكمه العـادل الذى يتجلى من نصره المؤمنين، وإهلاك الظالمين، وهو سبحـانه خير الحاكمين، وهذا وعيد للكافرين بانتقام الله منهم، وموعظة للمؤمنين، وحث على الصبر، واحتـمال ما كـان يلحقهم من أذى المشـركين، إلى أن يحكم الله بينهم، وينتقم لهم منهم.

«ويجوز أن يـكون هذا خطابًا للفريقين، أى ليـصبـر المؤمنون على أذى الكفار، ولِيـصبر الـكفار على ما يسـوؤهم من إيمان من آمن منهم، حتى يحكم الله، فيميز الخبيث من الطيب»[١]. ويجلو الحق جليًّا بمشيئة الله تعالى.

وإلى هنا نرى أن شعـيبًا يأمر قـومه، بوحدانية الله عـز وجل لأنها أساس العقـيدة، ثم يتبع ذلك بمعالجة الجـرائم التى كانت متفشيـة فيهم؛ فيأمـرهم بإيفائهم الكيل والميزان، وينهاهم عن بـخس الناس أشياءهم، وعن الإفـسـاد فى الأرض، والعـياذ بالله وعن القـعـود فى الطرقـات،

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص١٢٨.

لتخويف الناس وتهديدهم، وعن محاولة صَرْفِهم عن الحق، وإلقاء الشبهات، وإشاعة الأباطيل مستعملا فى وعظه التذكير بِنعم الله تارة، وبِنقمه من المكذبين تارة أخرى.

وكان من المنتظر أن يتقبل قوم شعيب هذه المواعظ تقبلا حسنًا وأن يصدقوه فيما يبلغه عن ربه، ولكن المستكبرين منهم عموا وصموا عن الحق والعياذ بالله.

١٣- قوله تعالى: ﴿**قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا..**﴾ من الآية رقم ٨٨ من سورة الأعراف.

ومعنى أو لتعودان فى ملتنا أى لتصيران إلى ملتنا، وقيل كان أتباع شعيب قبل الإيمان به على الكفر، أى لتعودن إلينا كما كنتم من قبل.

فقال لهم شعيب: ﴿**.. أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ**﴾ - آخر الآية رقم ٨٨ من سورة الأعراف.

أى أو لو كنا كارهين على الخروج من الوطن أو العود فى ملتكم، أى إن فعلتم هذا أتيتم أمرًا عظيمًا.

١٤- قوله تعالى: ﴿**قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا..**﴾ من الآية رقم ٨٩ من سورة الأعراف.

إياس من العود إلى ملتهم.

- قوله تعالى: ﴿**.. وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا..**﴾ من الآية رقم ٨٩ من سورة الأعراف.

قال الزجاج أى إلا بمشيئة الله عز وجل، وهذا قول أهل السنة أى وما يقع منا العود إلى الكفر إلا أن يشاء الله ذلك.

﴿ .. عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا .. ﴾ أى اعتمدنا من الآية رقم ٨٩ من سورة الأعراف.

﴿ .. رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ آخر الآية رقم ٨٩ من سورة الأعراف.

«قال قتادة بعثه الله إلى أمتين، أهل مدين وأصحاب الأيكة، وتمادى قوم شعيب فى كفرهم وغيهم، ويئس من صلاحهم، فدعا عليهم فقال:

﴿ .. رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ .. ﴾ فاستجاب الله دعاءه فأهلكهم بالرجفة.. والعياذ بالله، «والرجفة هى الاضطراب الشديد»[١] - يعنى الزلزلة المرعبة.

١٥- قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ آية رقم ٩١ من سورة الأعراف.

يقول الراغب: «استعارة للمقيمين - من قولهم جثم الطائر»[٣] إذا قعد، ولطىء بالأرض، والجثمان شخص الإنسان قاعدًا ورجل جَثَمة وجثامة، كناية عن النَّؤوم والكسلان»[٤] - ليس عنده همّة.

١٦- قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ آية رقم ٩٢ من سورة الأعراف.

(١)، (٢) الجامع لاحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢٢٥، ص٢٢٦.

(٣) مفردات الراغب ص١٩٤.

(٤) مفردات الراغب ص٨٦.

«قال الجرجانى، قيل هذا كلام مُستأنف، أى الذين كذبوا شعيبًا صاروا كأنهم لم يزالوا موتى، ﴿يَغْنَوْا﴾ - يُقيموا يقال غنيت بالمكان إذا أقمت به، وغنى القوم فى دارهم، أى طال مُقامهم فيها، والمغنى المنزل، والجمع المغانى»[1]- مجامع القوم.

قوله تعالى: ﴿.. الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ آية رقم ٩٢ من سورة الأعراف.

وهذا ابتداء خطاب، وهو مبالغة فى الذم والتوبيخ وإعادة لِتعظيم الأمر وتفخيمه.

ولما قالوا من اتبع شعيبًا خاسر، قال الله الخاسرون هم الذين قالوا هذا القول.

١٧- قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ آية رقم ٩٣ من سورة الأعراف.

أى فأدبر شعيب عنهم وخرج من بين أظهرهم حين أتاهم عذاب الله تعالى.

وقال حزنا عليهم يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى وأديت إليكم ما بعثنى به الله إليكم.

- قوله تعالى: ﴿.. فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ آخر الآية رقم ٩٣ من سورة الأعراف.

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢٢٦.

أى فكيف أحزن على قوم جحدوا وحدانية الله وكذبوا رسوله وأتوجع لهلاكهم، بعد أن أعذرت إليهم، وبذلت جهدى فى سبيل هدايتهم ونجاتهم، فاختاروا ما فيه هلاكهم، وإنما يأسَى من قَصَّر فيما يجب عليه من النصح والإنذار.

١٨- قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ آية رقم ٩٤ من سورة الأعراف.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ..﴾ فيه «إضمار وهو فكذب أهلها فأخذناهم...»[(١)] - أخذ عزيز مقتدر.

يقول المراغى: «القرية المدينة الجامعة لِزعماء الأمة ورؤسائها العاصمة.

والبأساء الشدة والمشقة كالحرب والجدب وشدة الفقر، والضراء ما يضر الإنسان فى بدنه أو نفسه أو معيشته والأخذ بها جعلها عِقابًا لهم، والتضرع إظهار الضراعة، أى الضعف والخضوع، وعفوا كثروا ونموا، من قولك عفا النبات والشَّعر إذا كثر، وبغتة فجأة»[(٢)].

وهكذا أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد، ليكون أكثر حسرة.

١٩- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ الآية رقم ٩٥ من سورة الأعراف.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢٢٧.
(٢) تفسير المراغى جـ٣ ص٢٤٤.

«أى أبدلناهم بالجدب خصبًا، حتى عفوا أى كثروا، وقال ابن زيد كثرت أموالهم وأولادهم وعفا كثر، أعلم الله تعالى أنه أخذهم بالشدة والرخاء فلم يزدجروا»[١] ـ ولم يشكروا.

- وقوله تعالى: ﴿.. وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ..﴾ من الآية رقم ٩٥ من سورة الأعراف.

فنحن مثلهم ﴿.. فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً..﴾ من الآية رقم ٩٥ من سورة الأعراف.

أى فجأة ـ ليكون أكثر حسرة[٢] وندامة وهم لا يدرون ولا يعلمون أنه يجيؤهم.

٢٠- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ..﴾ من الآية رقم ٩٦ من سورة الأعراف.

وقوله: ولو أن أهل القرى المهلكة وقيل هى مكة وما حولها، ولو أنهم آمنوا بما أوحى إلى أنبيائهم مُعتبرين بما جرى عليهم من الابتلاء بالضراء والسراء، واتقوا الكفر والمعاصى أو اتقوا ما أنزروا به على ألسنة الأنبياء، ولم يصروا على ما فعلوا من القبائح ووحدوا الله واتقوا الشرك لَفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولوسعنا عليهم الخير ويسرنا لهم من كل جانب، وقيل المراد المطر والنبات، ولكن لم يؤمنوا ولم يتقوا، فأخذناهم بما كانوا يكسبون من أنواع الكفر والمعاصى.

ولكنهم لم يؤمنوا ولم يتقوا، بل كذبوا، فأخذناهم بما كانوا يعملون من أعمال الشرك والمعاصى التى تُفسد نظم المجتمع البشرى.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢٢٧.

(٢) تفسير المراغى جـ٣ ص٢٤٤.

وذلك الأخذ بالشدة أثر لازم لكسبهم المعاصى بحسب السنن التى وضعها المولى فى الكون، ويكون فيه العبرة لأمثالهم.

ثم أعجب من حالهم وذكر من غفلتهم بقوله تعالى:

٢١- ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ آية رقم ٩٧ من سورة الأعراف.

أى أجهل أهل مكة وغيرهم من أهل القرى الذين بلغتهم الدعوة والذين ستبلغهم ما نزل بمن قبلهم وغيرهم، فآمنوا؟ أفأمنوا أن يأتيهم عذابنا وقت بياتهم وهم نائمون؟ ـ أى آأمن أهل القرى أن يأتيهم عذابنا فى وقت الضحى وهم منهمكون فى أعمالهم، فخوفهم بنزول العذاب بهم فى أوقات الغفلات حين النوم وحين الضحى.

٢٢- قوله تعالى: ﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ آية رقم ٩٨ من سورة الأعراف.

فى أوقات اللذات والغفلات.

٢٣- قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ آية رقم ٩٩ من سورة الأعراف.

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ..﴾ أى عذابه وجزاءه على مكرهم، «وقيل مكره استدراجه بالنعمة والصحة»[1] ـ امتحانًا واختبارًا.

أفأمن يا محمد عليك الصلاة والسلام، هؤلاء الذين يكذبون الله ورسوله، ويجحدون بآياته استدراج الله إياهم بما أنعم به عليهم فى

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢٢٩.

دنياهم من صحة الأبدان ورخاء العيش، كما استدرج الذين قص عليهم قصصهم من الأمم قبلهم؛ فإن مكر الله لا يؤتمن، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون الهالكون والعياذ بالله.

٢٤- قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ آية رقم ١٠٠ من سورة الأعراف.

يعنى أولم يبين للذين يُستخلفون فى الأرض «يريد كفار مكة ومن حولهم»[١]- أنا أهلكناهم، فساروا سيرتهم وعتوا عن أمر ربهم، ولو يشاء الله أصابهم بذنوبهم، وعجلنا لهم بأسنا كما عجلناها لمن كان قبلهم موعظة وذكرى للذاكرين.

٢٥- قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا..﴾ من الآية رقم ١٠١ من سورة الأعراف.

أى هذه القرى التى أهلكناها «وهى قرى نوح وعاد ولوط وهود وشعيب المتقدمة الذكر»[٢]- فى هذه السورة سورة الأعراف.

وقوله نقص عليك أى لِتتسلى بها يا رسول الله (صلى الله عليك وسلم)، وليحذر كفار قريش أن يصيبهم مثل ما أصاب هذه القرى.

«والمضارع يحتمل أن يكون على معناه، والمراد نقص عليك فيما سيأتى مفرقًا فى السور، ويحتمل أن يكون بمعنى الماضى، كما يحتمل أن يكون بالمعنيين معًا»[٣]- بدون تناقض، وهذا من بلاغة القرآن الكريم.

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢٢٩.
(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.
(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور - القسم الثانى من الجزء الثامن ص٣٠.

وقوله تعالى: ﴿ .. نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا .. ﴾ - «ومن تبعيضية لأن لها أنباء غير ما ذكر هنا مما ذكر بعضه فى آيات أخرى، وطوى ذكر بعضه لعدم الحاجة إليها فى التبليغ»[1].

والأنباء: الأخبار، والمراد بالقرى وضمير أنبائها أهلها.

وجملة ﴿ .. وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ .. ﴾ من الآية رقم ١٠١ من سورة الأعراف.

عطف على جملة تلك القرى، لمناسبة ما فى كلتا الجملتين من قصد التنظير بحال المكذبين بمحمد ﷺ.

وجمع البينات يشير إلى تكرر البينات مع كل رسول، والبينات الدلائل الدالة على الصدق - صدق الرسل فيما يبلغون عن ربهم.

وإنما قص على الرسول ﷺ من بعض أنبائها ما فيه عظة وانزجار دون غيرها ممن لم نقصصها عليك يا رسول الله ﷺ، وإنما قص عليه من أنباء هذه القرى، لأنهم اغتروا بطول الإمهال مع كثرة النعم، فتوهموا أنهم على الحق، فذكرها الله تعالى قوم محمد ﷺ، ليتحرزوا عن مثل هذه الأعمال وهذه الجرائم.

- وقوله تعالى: ﴿ .. وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ .. ﴾ اللام لام قسم وقوله ﴿ .. لِيُؤْمِنُوا .. ﴾ اللام زائدة لتوكيد النفى.

- وقوله تعالى: ﴿ .. فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ آخر الآية رقم ١٠١ من سورة الأعراف.

(١) المرجع السابق نفس الصفحة.

يقـول الزمخـشرى: «أن تلك القـرى المذكـورة نقص عليك بعض أنبائها، ولها أنباء غيرها لم نقصها عليك - بل استمروا على التكذيب من لدن مجىء الرسل إليهم إلى أن ماتوا مصرين لا يرعون مع تكرار المواعظ عليهم وتتابع الآيات»[١]- كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين، فلا يريد منهم الهِداية بل طبع على قلوبهم فهم لا يفقهون.

٢٦- وقوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ آية رقم ١٠٢ من سورة الأعراف.

وفيها تشبيه تمثيلى.

«والضــميــر للناس على الإطلاق، أى ما وجـدنا لأكثـر الناس من عهد، يعـنى أن أكثرهم نقض عهـد الله وميثاقه فى الإيمـان والتقوى وإن وجدنا، وإن الشأن والحديث وجدنا أكثـرهم فاسقين خارجين عن الطاعة مارقين»[٢]- لا عهد لهم ولا دين.

وفى قوله: ﴿.. مِّنْ عَهْدٍ..﴾ - من زائدة تدل على معنى الجنس، قال ابن عباس العهد المأخـوذ عليهم وقت الذَّرِّ، ومن نقض العهد، قيل إنه لا عهد له، أى كأنه لم يعهد، وقال الحسن العهد الذى عُهِد إليهم مع الأنبياء، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيـئًا، وقيل أراد أن الكفار منقسمون، فالأكـثرون منهم من لا أمانة له ولا وفـاء، ومنهم من له أمانة مع كـفره وإن قلوا»[٣] وقليل من عبادى الشكور ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ..﴾[٤]- لا دين عندهم ولا عهد.

---

(١) تفسير الزمخشرى الكشاف جـ١ ص١٢٣.

(٢) تفسير الزمخشرى جـ١ ص١٢٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢٣٠.

(٤) من الآية رقم ٢٤ من سورة صٓ.

وإلى هنا ينتهى المبحث الثامن والذى تناول بعض قصص الأنبياء مع أقوامهم للعظة والعبرة من أول قصة نوح إلى آخر قصة شعيب عليهم السلام والذى ضم الآيات من أول رقم ٥٩ إلى ١٠٢ من سورة الأعراف.

ولاحظنا كيف كان أكثرهم مكذبين وكافرين.

ثم تنتقل الدراسة إلى قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه فى المبحث الثامن إن شاء الله تعالى من أول الآية رقم ١٠٣ بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِه..﴾ إلى آخر الآية رقم ١٥٥ من سورة الأعراف، بقوله تعالى: ﴿.. فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ يا ربَّ العالمين.

المبحث التاسع

قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه

وتضم الآيات من أول رقم ١٠٣ من سورة الأعراف بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِه.. ﴾ إلى آخر الآية رقم ١٥٥ من السورة بقوله تعالى: ﴿ .. فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾.

وظهر فيها كما ظهر فى قصص الأنبياء السابقين عدم تقوى الله والتكذيب، وانعدام الأمانة وعدم الوفاء بالعهد وهكذا.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِه فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ

مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا

غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ

بَعْده مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٥٣) وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤) وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) ﴾.

أ- المفردات:

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ آية ١٠٣ من سورة الأعراف.

- هو موسى بن عمران، ابن بنى إسرائيل وهو الذى رباه فرعون مصر.

- ﴿ حَقِيقٌ.. ﴾ من الآية رقم ١٠٥ من سورة الأعراف.

أى حريص وجدير وخليق، والحق ضد الباطل.

- ﴿.. فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ من الآية رقم ١١٠ من سورة الأعراف.

يعنى تشيرون علىَّ.

- ﴿قَالُوا أَرْجِهْ..﴾ من الآية رقم ١١١ من سورة الأعراف

يعنى أخره ولا تفصل فى شأنه.

- ﴿.. حَاشِرِينَ﴾ آية رقم ١١١ من سورة الأعراف.

أى جامعين السحرة.

قوله تعالى: ﴿.. سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ..﴾ من الآيةرقم ١١٦ من سورة الأعراف.

أى خَيلوا لها ما يُخالف الحقيقة.

- ﴿.. وَاسْتَرْهَبُوهُمْ..﴾ من الآية رقم ١١٦ من سورة الأعراف.

أى خوفوهم تخويفًا شديدًا يثير الرهبة والفزع.

- ﴿.. تَلْقَفُ..﴾ من الآية رقم ١١٧ من سورة الأعراف.

أي تَبْتلع وتُخفى.

- ﴿.. مَا يَأْفِكُونَ﴾ ـ من الآية رقم ١١٧ من سورة الأعراف.

والإفك: الكذب: يقال: أفكَ يَأْفِك.

- ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ..﴾ ـ من الآية رقم ١١٨ من سورة الأعراف.

ظهر وتبين أمر موسى عليه السلام.

- ﴿ .. رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا .. ﴾ من الآية رقم ١٢٦ من سورة الأعراف

أى أفِضْ علينا صبرًا.

- ﴿ .. وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ .. ﴾ من الآية رقم ١٢٧ من سورة الأعراف.

أى نستبقى بناتهم للخدمة.

- ﴿ .. بِالسِّنِينَ .. ﴾ من الآية رقم ١٣٠ من سورة الأعراف.

يعنى الجدب والقَحْط.

- قوله تعالى: ﴿ .. وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا .. ﴾ من الآية رقم ١٣١ من سورة الأعراف.

يعنى يتشاءموا.

- ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ .. ﴾ ـ من الآية رقم ١٣٣ من سورة الأعراف.

ما يطوف بالإنسان ويغشاه، وغالبًا ما يكون من السماء.

- ﴿ .. وَالْجَرَادَ .. ﴾ من الآية رقم ١٣٣ من سورة الأعراف.

- حيوان طائر يأكل النبات.

- ﴿ .. وَالْقُمَّلَ .. ﴾ من الآية رقم ١٣٣ من سورة الأعراف.

حشرة تكمن فى رأس الإنسان وجسمه وثيابه تلدغه.

- ﴿ .. الرِّجْزُ .. ﴾ من الآية رقم ١٣٤ من سورة الأعراف.

العذاب الذى ذكر فى الآيات.

- ﴿.. إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ ـ آخر الآية رقم ١٣٥ من سورة الأعراف.

ينتقضون عهدهم الذى أبرموه، والنكث فى الأصل نقض الغزل.

- ﴿.. فِي الْيَمِّ..﴾ من الآية رقم ١٣٦ من سورة الأعراف.

واليم: المقصود به البحر الأحمر المعروف فى شرق مصر.

- ﴿وَجَاوَزْنَا..﴾ من الآية رقم ١٣٨ من سورة الأعراف.

جاوز وجاز بمعنى قطعنا بهم البحر وخلفناه وراءهم.

- ﴿.. الْبَحْرَ..﴾ من الآية رقم ١٣٨ من سورة الأعراف.

والمقصود به الآن البحر الأحمر فى شرق مصر.

- ﴿.. مُتَبَّرٌ..﴾ من الآية رقم ١٣٩ من سورة الأعراف.

يقول الراغب: «التبر الكبير والإهلاك»[1]ـ يعنى مهلك مُدَمَّر.

- ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا..﴾ من الآية رقم ١٤٠ من سورة الأعراف.

أى أأطلب لكم إلاها معبودًا من دون الله؟

- ﴿.. يَسُومُونَكُمْ..﴾ من الآية رقم ١٤١ من سورة الأعراف.

أى يُذيقونكم أو يكلفونكم ما يضركم ويؤذيكم.

- ﴿.. وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ..﴾ من الآية رقم ١٤١ من سورة الأعراف.

(١) مفردات الراغب ص٦٩.

يعنى يستبقون وأصله طلب الحياة والبقاء.

- ﴿.. بَلاءٌ..﴾ من الآية رقم ١٤١ من سورة الأعراف.

أى امتحان واختبار.

- ﴿.. فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ..﴾ من الآية رقم ١٤٢ من سورة الأعراف.

أى الوقت المحدد لعمل من الأعمال.

- ﴿.. فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ..﴾ - من الآية رقم ١٤٣ من سورة الأعراف.

بمعنى انكشف وظهر نوره.

- ﴿.. دَكًّا..﴾ من الآية رقم ١٤٣ من سورة الأعراف.

أى مَدْكوكًا مُفتتًا حتى تلاشى واختفى.

- ﴿.. صَعِقًا..﴾ من الآية رقم ١٤٣ من سورة الأعراف.

الصعق[1]: الهدَّة الكبيرة.

- ﴿.. الْأَلْوَاحِ..﴾ من الآية رقم ١٤٥ من سورة الأعراف.

أى ألواح التوراة التى نزلت على موسى عليه السلام.

- ﴿.. وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ..﴾ من الآية رقم ١٤٦ من سورة الأعراف.

أى طريق الهدى والسداد.

- ﴿.. سَبِيلَ الْغَيِّ..﴾ من الآية رقم ١٤٦ من سورة الأعراف.

أى طريق الضلال والفساد.

---

(١) مفردات الراغب ص٢٨٩.

- ﴿.. حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ..﴾ من الآية رقم ١٤٧ من سورة الأعراف.

أى بطلت أعمالهم، ولم تُقبل منهم بِسبب كُفْرهم.

- ﴿.. عِجْلاً جَسَدًا..﴾ من الآية رقم ١٤٨ من سورة الأعراف.

أى مجسدًا على هيئة العجل مصنوع من سبائك حُليهم وذَهَبهم.

- ﴿.. لَهُ خُوَارٌ..﴾ من الآية رقم ١٤٨ من سورة الأعراف.

صوت كصوت البقر.

- ﴿.. اتَّخَذُوهُ..﴾ من الآية رقم ١٤٨ من سورة الأعراف.

أى عبدوه واتخذوه إلاهًا من دون الله.

- ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ..﴾ من الآية رقم ١٤٩ من سورة الأعراف.

أى ندموا أشد الندم.

- ﴿.. غَضْبَانَ أَسِفًا..﴾ من الآية رقم ١٥٠ من سورة الأعراف.

الأسف: هو الغضب الشديد أو الحزن الشديد.

﴿.. أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ..﴾ من الآية رقم ١٥٠ من سورة الأعراف

أى أسبقتم بعبادة العجل ما أمركم به ربكم.

- ﴿.. فَلا تُشْمِتْ..﴾ من الآية رقم ١٥٠ من سورة الأعراف.

من الشماتة التى تنال الإنسان من الأعداء.

- ﴿.. سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ..﴾ من الآية رقم ١٥٢ من سورة الأعراف.

أى سيلحقهم ما أُمروا به من قتل أنفسهم.

- ﴿.. وَذِلَّةٌ..﴾[1] من الآية رقم ١٥٢ من سورة الأعراف.

- ﴿وَلَمَّا سَكَتَ..﴾ من الآية رقم ١٥٤ من سورة الأعراف.

أى سكن وهدأ وذهب.

- ﴿.. الرَّجْفَةُ..﴾ من الآية رقم ١٥٥ من سورة الأعراف.

يعنى الصاعقة التى تزلزل القلوب والأبدان.

ب- المناسبة:

بعد أن عِشْنا مع قصص السابقين من الأنبياء الذين تناولتهم سورة الأعراف من آدم عليه السلام حتى موسى عليه السلام، وسارت السورة فى هذا القصص بأسلوب يُثير فى القلب الاتعاظ والاعتبار بمصائر السابقين، لِيكونوا عِبْرة لكل عاقل وذكرى لِكل عبد منيب.

بعد ذلك ساقت الآيات التى معنا قصة جديدة، هى قصة موسى مع فرعون وبنى إسرائيل.

جـ- التفسير: من أول الآية رقم ١٠٣ من سورة الأعراف إلى آخر الآية رقم ١٥٥ من السورة بقوله تعالى: ﴿.. فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ .

فالسورة لا تُحدث عن قصة موسى من أولها، كما جاء فى سورة القصص مثلا، وإنما تبدأ حديثها بالغرض الذى جاءت من أجله وهو التخويف من عواقب التكذيب فتقول:

---

(١) «الذل» كان عن قهر، يقال ذَلَّ يَذِلُّ ذُلاً. مفردات الراغب ص١٨٣.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾[1] أنهم إلى الهلاك المبين.

ثم بعد ذلك تحدثنا حديثًا مُستفيضًا زاخرًا بالعبر والعظات عما دار بين موسى وفرعون من محاورات ومجادلات، انتهت بغرق فرعون وقومه، ثم عما دار بين موسى وبين بنى إسرائيل من مجادلات تدل على أصالتهم فى التكذيب والعياذ بالله.

١- قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ آية رقم ١٠٣ من سورة الأعراف.

لما قص الله تعالى على نبيه ﷺ أخبار نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، أتبع بقصص موسى وفرعون وبنى إسرائيل إذ كانت معجزاته من أعظم المعجزات وأمته من أكثر الأمم تكذيبًا وتعنتًا، فقص الله علينا قصصهم لِنعتبر ولِنتعظ، ولِننزجر عن أن نتشبه بهم والعياذ بالله.

«ومناسبة هذه الآية لما قبلها أن بين موسى وشعيب عليهما السلام مُصاهرة ونسب كما حكى الله فى كتابه لكونهما من نسل إبراهيم»[2]- عليهم السلام.

ويقول البيضاوى: الضمير فى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ.. ﴾ الضمير للرسل فى قوله تعالى: ﴿ .. وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم.. ﴾ الأعراف رقم ١٠١.

---

(١) الآية رقم ١٠٣ من سورة الأعراف.

(٢) البحر المحيط لأبى حيان جـ٥ ص١٢٧.

«أى من بعد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب»[١]- وقوله ﴿ ..بِآيَاتِنَا..﴾ أى بالمعجزات، وقوله تعالى: ﴿ .. إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا..﴾ - بأن كفروا بها مكان الإيمان الذى هو من حقها لوضوحها، «وفرعون لقب ملك مصر، وكسرى لمن ملك فارس، وكان اسم ملك مصر قابوس»[٢]- وكان الملك بالوراثة.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم..﴾ أى الرسل المذكورين ﴿ .. مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا..﴾ التسع بمعجزاتنا ﴿ .. إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ..﴾ أى قومه ﴿ ..فَظَلَمُوا بِهَا..﴾ أى كفروا بها، وموسى بن عمران.

وفى قوله ﴿ .. وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ..﴾ لام قسم، وقوله ﴿ ..لِيُؤْمِنُوا..﴾ اللام زائدة لتوكيد النفى»[٣] وهذا من بلاغة القرآن الكريم.

يقول الرازى: «اعلم أن هذه هى القصة السادسة التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة، وذكر فى هذه القصة من الشرح والتفصيل ما لم يذكر فى سائر القصص، لأجل أن معجزات موسى عليه السلام، كانت أقوى من معجزات سائر الأنبياء، وجهل قومه كان أعظم وأفحش من جهل سائر الأقوام»[٤]- ولله فى خلقه شؤون.

«واعلم أن الكناية فى قوله ﴿ .. مِنْ بَعْدِهِم..﴾، يجوز أن تعود إلى الأنبياء الذين جرى ذكرهم، ويجوز أن تعود إلى الأمم الذين تقدم ذكرهم بإهلاكهم». وهذا من بلاغة القرآن الكريم.

---

(١) الجامع لاحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢٣٠.

(٢) تفسير البيضاوى جـ٨ ص٣٥٢.

(٣) الفتوحات الإلهية للجمل جـ٣ ص٨٤.

(٤) الجامع لاحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢٣٠.

وقوله تعالى: ﴿.. فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ آخر الآية رقم ١٠٣ من سورة الأعراف.

«أى آخر أمرهم»[١]- يعنى نهاية أمرهم بالهلاك المبين، والعياذ بالله.

٢- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ آية رقم ١٠٤ من سورة الأعراف.

«كلام مبتدأ مسوق لِتفصيل ما أُجمل فيما قبله.

أخبر موسى فرعون بأنه مرسل من الله إليه، وجعل ذلك عنوانًا لكلامه معه، لأن من كان مُرسلا من جهة من رب العالمين أجمعين فهو حقيق بالقبول»[٢]- فما بال أنه يكذَّب؟

٣- قوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ..﴾ من الآية رقم ١٠٥ من سورة الأعراف.

أى إن موسى أبلغ فرعون أنه رسول من رب العالمين كلهم، «أى سيدهم وملكهم ومُدبر جميع أمورهم، فهو لا يقول على الله إلا الحق إذ لا يمكن أن يبعث الله رسولا يكذب عليه وهو الذى بيده ملكوت كل شىء - فهو معصوم من الكذب والخطأ فى التبليغ»[٣].

والخلاصة إن كلام موسى عليه السلام، اشتمل على عقيدة الوحدانية وهى أن للعالمين ربًّا واحدًا، وعلى عقيدة الرسالة المؤيدة منه تعالى بالعصمة فى التبليغ والهداية.

---

(١) الجامع لاحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢٣٠.

(٢) فتح القدير جـ٢ ص٣٢٥ وروح المعانى للآلوسى جـ١ ص١٨.

(٣) تفسير المراغى جـ٣ ص٢٥١.

وحقيق على ألا يقول على الله إلا الحق، أى واجب أو حريص على، فحقيق على هذا بمعنى محقوق على أن يقول الصدق، وحقيق صفة لرسول أو خبر بعد خبر»[١]ـ وهذا من بلاغة القرآن الكريم.

- وقوله تعالى: ﴿.. قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ..﴾ ـ المعجزات التسع.

- وقوله تعالى: ﴿.. فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ آخر الآية رقم ١٠٥ من سورة الأعراف.

«يعنى خلهم وكان يستغلهم فى الأعمال الشاقة»[٢]ـ كبناء المعابد وغيرها.

أى قد جئتكم ببرهان من ربكم شاهد على صدق ما أقول.

وفى وقوله ﴿.. مِّن رَّبِّكُمْ..﴾ إيماء إلى أنهم مربوبون وأن فرعون ليس ربًّا ولا إلاهًا.

٤- قوله تعالى: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ الآية رقم ١٠٦ من سورة الأعراف.

«قال استئناف بيانى كأنه قيل فما قال فرعون»[٣].

أى قال فرعون لموسى: إن كنت قد جئت مؤيدًا بآية من عند من أرسلك كما تدعى، فأتنى بها وأظهرها لدى إن كنت ممن يقول الصدق ويلتزم قول الحق، ثم ذكر أن موسى أجاب لما طلبه فقال:

---

(١) أحكام القرآن للقرطبى جـ٢ ص٢٣١ وروح المعانى للآلوسى جـ٩ ص١٨.
(٢) روح المعانى للآلوسى جـ٩ ص١٩.
(٣) روح المعانى للآلوسى جـ٩ ص١٩.

٥- قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ الآية رقم ١٠٧ من سورة الأعراف.

فألقى عصاه التى هى جماد، «وكانت كما روى ابن المنذر من عوسج، وروى عن على أنها كانت من لوزن»[١]- فإذا هى ثعبان: حية كبيرة هائلة ضخمة طويلة «وعن الفراء أن الثعبان هو الذكر العظيم من الحيات»[٢] وثعبان مبين أى «ظاهر لا متخيل»[٣]- وهذا من عظمة الله ومعجزاته الباهرة.

٦- قوله تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ الآية رقم ١٠٨ من سورة الأعراف.

يعنى أخرج يده من درعه أو من جيبه، بعد أن أدخلها فيه فإذا هى بيضاء للناظرين، بياضًا نورانيًّا خارجًا عن العادة يجتمع عليه الأنظار.

يقول الآلوسى: «أخرج يده من جيبه لقوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ..﴾[٤] أو من تحت إبطه، لقوله سبحانه: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ..﴾[٥] وكانت اليد اليمنى وقد رُوى أنها أضاءت له ما بين السماء والأرض»[٦] وهذه من المعجزات التى أيد الله بها رسله لِصدق نبوتهم.

---

(١) روح المعانى للآلوسى جـ٩ ص١٩.
(٢) محاسن التأويل للقاسمى جـ٥ ص٢٢٧.
(٣) المرجع السابق نفس الصفحة وروح المعانى للآلوسى جـ٩ ص٢١.
(٤) الآية رقم ١١٢ من سورة النمل.
(٥) من الآية رقم ٢٣ من سورة طه.
(٦) روح المعانى للآلوسى جـ٩ ص٢١.

٧- قوله تـعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ الآية رقم ١٠٩ من سورة الأعراف.

«أى قال الأشراف منهم وهم أهل مشورته ورؤساء دولته»[١] الذين بيدهم الحل والعقد.

وقوله: ﴿.. لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أى مبالغ فى علم السحر ماهر فيه.

٨- قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ آخر الآية رقم ١١٠ من سورة الأعراف.

«أى ما تشيرون فى أمره»[٢]ـ فهو من الأمر بمعنى المشاورة.

«يقـال آمرته فـآمرنى، أى شـاورته فأشـار علىّ، وقيل من الأمـر المعهود، و(مـاذا) فى محل نصب على أنه مفعـول لتأمرون أى بأى شىء تأمرون.

وقيل (ما) خبر مقدم و(ذا) اسم موصول مبتدأ مؤخر، أى ما الذى تأمرون به»[٣]ـ وهذه بلاغة التعبير القرآنى، فسبحان من هذا كلامه.

واسم فـرعون الذى أرسل مـوسى إليه مـنفتـاح الثانى أحـد ملوك العائلة التاسعة عشرة»[٤]. والملك بالوراثة.

٩- قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ آية رقم ١١١ من سورة الأعراف.

---

(١) المرجع السابق نفس الصفحة وروح المعانى للآلوسى جـ٩ ص٢١.

(٢) روح المعانى للآلوسى جـ٩ ص٢١.

(٣) روح المعانى للآلوسى جـ٩ ص٢١.

(٤) القسم الثانى من الجزء الثامن تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ص٣٥.

يقول الآلوسى: «أى أخر أمرهما ولا تعجل فى أمرهما، حتى ترى رأيك فيهما»[(١)]- وتدبر شأنهما لئلا تنسب إلى الظلم الصريح.

«قال أبو منصور، الأمر بالتأخير دل على أنه تقدم منه أمر آخر وهو الهم بقتله؛ فقالوا أخره لِيتبين حاله للناس.

وأصل أرجه أرجئه»[(٢)]- يعنى أخره.

١٠- قوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ آية رقم ١١٢ من سورة الأعراف.

ومعنى عليم، «أى بالسحر»[(٣)] كما قال القرطبى.

وقوله: ﴿يَأْتُوكَ..﴾ «جزم لأنه جواب الأمر، ولذلك حذفت منه النون.

«وقُرئ بكل سحَّار وقرئ بكل ساحر، وهما مُتقاربان، إلا أن فعَّالا أشد مُبالغة»[(٤)]- وهذا من بلاغة القرآن الكريم.

١١- قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ الآية رقم ١١٣ من سورة الأعراف.

«وجاء السحرة فرعون بعد ما أرسل إليهم الحاشرين.

وقد اختلفوا فى عِدتهم، «فعن ابن عباس أنهم كانوا سبعين ساحرًا»[(٥)] والله أعلم بِعدتهم.

(١) روح المعانى للآلوسى جـ٩ ص٢١.
(٢) محاسن التأويل للقاسمى جـ٧ ص٢٢٨.
(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢٣١.
(٤) المرجع السابق ص٢٣٢.
(٥) روح المعانى للآلوسى جـ٩ ص٢٣.

وقوله: ﴿.. قَالُوا..﴾ استئناف بياني، فماذا قالوا له عند مجيئهم إياه ـ فقيل جاءوا قائلين ﴿.. إِنَّ لَنَا لأَجْراً..﴾ أى عوضًا وجزاء عظيمًا ﴿.. إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ آخر الآية رقم ١١٣ من سورة الأعراف.

والمقصود من الإخبار، إيجاب الأجر واشتراطه، كأنهم قالوا بشرط أن تجعل لنا أجرًا إن غلبنا»[١]ـ إن أراد الله تعالى والله يُخيبهم.

١٢- وقوله تعالى: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ الآية رقم ١١٤ من سورة الأعراف.

أى قال فرعون مُجيبًا لهم إلى ما طلبوا نعم إن لكم أجرًا عظيمًا على ما تقومون به من ذلك العمل الجليل، وأنتم مع ذلك تكونون من المقربين منا فتجمعون بين المال والجاه، وذلك منتهى ما تطمعون فيه من نعيم الدنيا وسَعَادتها.

١٣- قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ الآية رقم ١١٥ من سورة الأعراف.

أى أول من ألقى، خَيَّروا موسى عليه السلام، ولم يبالوا بِتقدمه أو تأخره.

«وتخييرهم إياه أدب حسن راعوه معه ـ كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين، قبل أن يتخاوضوا فى الجدل، والمتصارعين قبل أن يتآخذوا للصراع»[٢]ـ كأنها معركة.

وفى قوله: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾.

---

(١) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٢) تفسير القاسمى جـ٧ ص ٢٢٠.

تأدبوا مع موسى عليه السلام، فكان ذلك سبب إيمانهم، وأن فى موضع نصب عند الكسائى والفراء على معنى إما أن تفعل الإلقاء»[1]- بالعصى لتكون حيات بسحرهم.

١٤- قال تعالى: ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ الآية رقم ١١٦ من سورة الأعراف.

قال ألقوا، قال الفراء فى الكلام حذف، والمعنى: قال لهم موسى إنكم لن تغلبوا ربكم، ولن تبطلوا آياته، وهذا من معجز القرآن الذى لا يأتى مثله فى كلام الناس، ولا يقدرون عليه، يأتى باللفظ اليسير بجميع المعانى الكثيرة فسترون ما يحل بكم من الافتضاح»[2]- لأن الله غالب على أمره.

استرهبه أوقع فى قلبه الرهب والخوف، أى فلما ألقوا ما ألقوا من حبالهم وعصيهم، سحروا أعين النظارة، ومنهم موسى عليه السلام وجعلوها متأثرة بالسحر، بما ألقوا من التخيلات والشعوذة، فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى، وجاءوا بسحر عظيم فى مظهره، كبير فى تأثيره على أعين الناس، أى خيلوا إلى الأبصار أن ما مثلوه له حقيقة فى الخارج ولم يكن إلا مجرد صنعَة وخيال.

«قال ابن عباس رضى الله عنهما، إنهم ألقوا حبالا غِلاظًا وخُشُبًا طوالا. فأقبلت يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى.

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢٣٣.
(٢) تفسير القاسمى جـ٧ ص٢٢٠.

«قال ابن اسحق إن السحرة كانوا حوالى خمسة عشر ألف ساحر، وإن الحيات التى ظهروها بخيال سحرهم، كانت كأمثال الجبال قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضًا»[١].

وسحروا أعين الناس يعنى موهوا عليهم، حتى ظنوا أن حبالهم وعصيهم تسعى، كما قال تعالى:

﴿ .. يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾[٢]»[٣].

فأخبر أن ما ظنوه سعيًا، بل لم يكن سعيًا بل كان خيالا.

يقول الآلوسى: «أنهم طلوا هذه الحبال بالزئبق ولونوها، وجعلوا داخل العصى زئبقًا أبيض، وألقوها على الأرض، فلما أثر حر الشمس فيها تحركت، والتوى بعضها على بعض حتى خُيل للناس أنها حيات.

١٥- قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ الآية رقم ١١٧ من سورة الأعراف.

«وأوحينا إلى موسى بواسطة الملك كما هو ظاهر»[٤]- ولقف يلقف، ولقفت الشىء وتلقفته، أى تبتلع ما يلقونه ويوهمون أنه حق وهو باطل - غير صحيح.

«وما يأفكون أى ما يكذبون»[٥]- أى ما يفترون.

(١) روح المعانى للآلوسى جـ٩ ص٢٥.
(٢) من الآية رقم ٦٦ من سورة طه.
(٣) تفسير المراغى جـ٣ ص٢٥٥.
(٤) روح المعانى للآلوسى جـ٩ ص٢٥.
(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢٣٣.

١٦- قوله تعالى: ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ الآية رقم ١٨ من سورة الأعراف.

«فوقع الحق بأمر موسى عليه السلام»[١]- وثبت الإعجاز وبطل ما كانوا يعملون من السحر لإبطال الإعجاز.

وقوله تعالى: ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ آخر الآية رقم ١٨ من سورة الأعراف.

وظهر بطلان ما كانوا مستمرين على عمله من الباطل.

١٧- قوله تعالى: ﴿ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴾ الآية رقم ١١٩ من سورة الأعراف.

قوله: فغلبوا أى فرعون وقومه ﴿ هُنَالِكَ ﴾ أى فى ذلك الجمع العظيم أى فى المكان الذى اجتمع فيه أهل مصر.

وقوله: ﴿ .. وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴾ «نصب على الحال والفعل منه صَغِر يَصْغَرُ»[٢]. من الذلة.

أى انقلب قوم فرعون وفرعون معهم أذلاء مقهورين مغلوبين.

١٨- قوله تعالى: ﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴾ يعنى آمنوا وكان ذلك بمحضر من فرعون.

١٩- وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

أى أنهم أُلقوا ساجدين حال قولهم: آمنا برب العالمين أى مالك أمرهم والمتصرف فيهم.

(١) روح المعانى للآلوسى جـ٩ ص٢٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢٣٤.

٢٠- وقوله: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ آية رقم ١٢٢ من سورة الأعراف.

«قال الجشمى دلت الآية على أن السحرة عرفوا أن أمر العصا ليس من جنس السحر فآمنوا فى الحال، وتدل على أنهم بتلك الآيات استدلوا على التوحيد والنبوة ولذلك اعترفوا بهما»(١)ـ وهذا هو الحق بإذن الله تعالى.

لما رأت السحرة ما رأت عرفت أن ذلك أمر من السماء وليس بسحر فخروا سجدًا وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون.

أى قالوا صدقنا بما جاءنا به موسى وأن الذى علينا أن نعبده هو رب الإنس والجنِّ وجميع الأشياء المدبر لها رب موسى وهارون.

«وقال الخازن إن الله تعالى لما قذف فى قلوبهم الإيمان خروا سجدًا لله تعالى على ما هداهم إليه، وألهمهم من الإيمان، وقد بادروا إلى السجود تعظيمًا لشأنه تعالى، لما رأوا من عظيم قدرته جل فى علاه»(٢) فهو سبحانه الهادى إلى سواء السبيل.

٢١- قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ آية رقم ١٢٣ من سورة الأعراف.

أى جرت بينكم وبينه مواطأة ومكر مكرتموه ودبرتموه لتستولوا على مصر ولتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون ـ تهديد لهم.

---

(١) تفسير القاسمى محاسن التأويل جـ٧ ص٢٣٢.

(٢) روح المعانى للآلوسى جـ٩ ص٢٧.

«وقـولـه ﴿ .. آمَنتُم بِهِ .. ﴾ بتحقيق الهمـزتين، وإبدال الثانية ألفًا وقوله ﴿بِهِ﴾ أى بموسى، والاستفهام للإنكار والتوبيخ»[١]- يعنى استهتار فرعون بالسحرة الذين آمنوا بموسى - وقوله ﴿ .. لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا .. ﴾ أى القبط وتخلص لكم ولبنى إسرائيل.

وقوله: ﴿ .. فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة ما فعلتم، وهذا وعيد ساقه بطريق الإجمال للتهويل، ثم عَقَّبه بالتفصيل فقال:

٢٢- وقـولـه تـعـالى: ﴿ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِـلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الآية رقم ١٢٤ من سورة الأعراف.

أى من كل جانب عضوا مُغايرا للآخر كاليد من جانب والرجل من آخر»[٢]- منتهى الإرهاب والبطش والتنكيل والعياذ بالله.

وقوله تعالى: ﴿ .. لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ آخر الآية رقم ١٢٤ من سورة الأعراف.

وإنما قال هذا فرعون لما رأى من خُـذلان الله إياه وغلبة موسى عليه السلام وقهره له. والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

«وأول من صـلـب وأول من قطـع الأيدى والأرجل من خـــلاف فرعون»[٣]- الذى عتى عن أمر ربه لعنة الله عليه.

وقوله من خلاف حال أى مُختلفة.

- وقوله تعالى: ﴿ .. لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ آخر الآية رقم ١٢٤ من سورة الأعراف.

---

(١) الفتوحات الإلهية للجمل جـ٣ ص٩٥.

(٢) روح المعانى للآلوسى جـ٩ ص٢٧.

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة.

أى تفضيحًا لكم وتنكيلا لأمثالكم.

«والتصليب مأخوذ من الصلب، وهو الشد علـى خشبة أو غيرها، وشاع فـى تعليق الشخص بنحـو حبل فى عنقـه لِيمـوت وهو المتـعارف اليوم، بالشنق.

والصلب الذى عنـاه الجـبار هـو شد الـشـخص من تحت الإبطين وتَعْليقه حتى يهلك فيموت» منتهى التعذيب والتنكيل والعياذ بالله.

٢٣- قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ الآية رقم ١٢٥ من سورة الأعراف.

أى فلا نبالى بما تهددنا به ـ لأنا إلى ربنا منقلبون.

٢٤- قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا..﴾ من الآية رقم ١٢٦ من سورة الأعراف.

«ونقـمت الشىء إذا أنكـرته إمـا باللسـان وإمـا بالعـقـوبة»[1] أى بالبطش.

أى لست تكره منا سوى أن آمنا بـالله وهو الحق وصدقنا بآيات ربنا بحُجَجِ ربنا وأدلته التى لا يقدر على مـثلها أحد سوى الله الذى له ملك السماوات والأرض، ثم فزعوا إلى الله بمسئلتـه الصبر على عذاب فرعون وقبض أرواحهم على الإسلام.

فقالوا: ﴿.. رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا..﴾ من الآية رقم ١٢٦ من سورة الأعراف.

---

(١) تفسير المراغى جـ٣ ص٢٥٦.

وقـوله: أفرغ أى أنزل علينا حـبسًـا يحـبسنا عن الكفـر بك، عند تعذيب فرعون إيانا.

وقوله تعالى: ﴿.. وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ آخر الآية رقم ١٢٦ من سورة الأعراف.

واقبضنا إليك على دين الإسلام، دين خليلك إبراهيم عليه السلام، كانوا أول النهار سحرة وآخر النهـار شهداء بررة فرضى الله عنهم ورضوا عنه.

٢٥- ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ الآية رقم ١٢٧ من سورة الأعراف.

والمعنى وقالت جمـاعة رجال من قوم فرعون لفـرعون أتدع موسى وقومه من بنى إسرائيل لِيفسدوا فى الأرض، كى يفسدوا خدمك وعبيدك عليك فى أرض مصر.

وقال الأشراف من قوم فرعون لفرعـون أتترك موسى وقومه أحرارًا آمنين، فـتكون عاقـبتـهم أن يفسـدوا عليك قومك بإدخـالهم فى دينهم الإسلام دين موسى عليه السلام، ويتركوك يا فرعون فلا يعبدوك.

وقوله تعالى: ﴿.. قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ..﴾ من الآية رقم ١٢٧ من سورة الأعراف.

أى قال فرعـون مُجيبًـا للملأ سنقتل أبناء قـوم موسى تقتيـلا كُلَّما تناسلوا، ونسـتـبقى نسـاءهم أحـياء كـمـا كنا نفعـل قبل ولادته حـتى ينقرضوا.

وقوله تعالى: ﴿.. وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ آخر الآية رقم ١٢٧ من سورة الأعراف.

أى وإنا مُسْتعلون عليهم بالغلبة والسلطان قاهرون لهم كما كنا من قبل فلا يقدرون على أذانا ولا الإفساد فى أرضنا ولا الخروج عن عبوديتنا.

ولما سمع بنو إسرائيل هذا الوعيد، خافوا من فرعون فطمأنهم موسى كما حكى الله عنه.

٢٦- ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ آية رقم ١٢٨ من سورة الأعراف.

تسلية لبنى إسرائيل «حين تضجروا لما سمعوا»[1]ـ من أقاويل فرعون وتهديده.

وقوله تعالى: ﴿.. اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا..﴾ من الآية رقم ١٢٨ من سورة الأعراف.

اصبروا على ما سمعتم من الأقاويل الباطلة والتهديدات الصارمة

وقوله تعالى: ﴿.. إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ..﴾ جزء من الآية رقم ١٢٨ من سورة الأعراف.

أى أرض مصر أو «الأرض مطلقًا وهى داخلة فيها دخولا أوليًّا»[2]ـ فهى داخلة فى ملك الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض.

---

(١) روح المعانى للآلوسى جـ٩ ص٢٩.

(٢) روح المعانى للآلوسى جـ٩ ص٢٩.

وقوله تعالى: ﴿ .. وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ آخر الآية رقم ١٢٨ من سورة الأعراف.

وهذا تقرير لما سبق يعنى أن الفوز والسعادة والنجاة لمن يراقب ربه تمام المراقبة بمشيئة الله تعالى.

٢٧- ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ الآية رقم ١٢٩ من سورة الأعراف.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا﴾ أى قال قوم موسى عليه السلام ﴿أُوذِينَا﴾ من جهة فرعون ﴿مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ بالرسالة يعنون بذلك قتل الجبار فرعون أولادهم من قبل مولد موسى وبعده، إذ قيل لفرعون يُولد لبنى إسرائيل غلام يسلبك ملكك ويكون هلاكك على يديه.

وقوله تعالى: ﴿ .. وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ..﴾ من الآية رقم ١٢٩ من سورة الأعراف.

«فقد كان بنو إسرائيل قبل مجيء موسى مُستضعفين فى يد فرعون يأخذ منهم إتاوات مختلفة ويستغلهم فى الأعمال الشاقة، ويمنعهم من الترف»[1]- ويقتل أبناءهم، ويستحيى نساءهم، فلما بعث الله موسى، لم يستطع أن ينقذهم من ظلم فرعون، إذ كان يؤذيهم ويظلمهم بعد إرساله، كما كان يؤذيهم من قبل ذلك وأشد، ولما ذكروا ذلك لموسى أجابهم.

بقوله تعالى: ﴿ .. قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ آخر الآية رقم ١٢٩ من سورة الأعراف.

---

(١) تفسير المراغى جـ٣ ص٢٥٩.

أى قال موسى إن رجائى من فضل الله أن يهلك عدوكم الذى ظلمكم ويجعلكم خلفاء فى الأرض التى وعدكموها ومنعكم فرعون من الخروج منها، فينظر سبحانه كيف تعملون بعد استخلافه إياكم فيها، أتشكرون النعمة أم تكفرون، وتصلحون فى الأرض أم تفسدون ويكون جزاؤكم فى الدنيا والآخرة وفق ما تعملون»[١]ـ لعلهم أن ينصلحوا بإذن الله تعالى.

٢٧- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ آية رقم ١٣٠ من سورة الأعراف.

أى إنه تعالى أخذ آل فرعون بالجدب، وضيق المعيشة لعلهم يتذكرون ضعفهم أمام قوة الله وعجز ملكهم العالى الجبار، وعجز آلهتهم، ليرجعوا عن ظلمهم لبنى إسرائيل، ويجيبوا دعوة موسى عليه السلام.

وفى هذا شروع فى تفصيل مبادئ الهلاك الموعود به.

«وكان القحط فى باديتهم وأهل ماشيتهم والنقص فى أمصارهم وقراهم.

ولما أخذ الله تعالى آل فرعون بالسنين يبس كل شىء لهم وذهبت مواشيهم حتى يبس نيل مصر»[٢]ـ وذلك ببغيهم وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، وتلكم عبرة لمن يعتبر ولعلهم يتعظون.

٢٨- قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ..﴾ من الآية رقم ١٣١ من سورة الأعراف.

(١) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٢) روح المعانى للآلوسى جـ٩ ص٣١.

وقوله تـعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ.. ﴾ «أى الخصب والسـعادة والنماء والصحـة، «قالوا لنا هذه أى أعطيناها باستـحقاق»[١]ـ فـنحـن جديرون بها ولم يروا ذلك من فضل الله عليهم فيشكروه على إنعامه.

وقوله تـعالى: ﴿ .. وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ.. ﴾ يعنى من شـدة وقحط والمرض والمسألة وأمثالها من الشدائد والكرب.

وقوله تعالى: ﴿ .. يَطَّيَّرُوا.. ﴾ أى يتشاءموا، والتشاؤم حرام إن استطعت أن تعمل فى الرضا فاعمل وإلا فـفى الصبر على ما تكره الخير الكثير.

وأصله (يتطيروا) يعنى أنهم يقولون هذه بشؤمهم.

«فشدتهم وما كان عليهم من القضاء والقدر عند الله لا عند غيره ـ فالله غالب على أمره.

وقوله تعالى: ﴿ .. وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ آخر الآية رقم ١٣١ من سورة الأعراف.

أى أن ما أصابهم من الله تعالى.

٣٠- ثم أخبـر تعالى عن شدة تمرد فرعـون وقومه وعتـوهم بقوله سبحانه:

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ آيـة رقم ١٣٢ من سورة الأعراف.

وقوله: ﴿ وَقَالُوا ﴾ اى قال آل فرعون لموسى، وقوله: ﴿ مَهْمَا ﴾ اسم شرط جازم، وقال الكسائى أصله مَه أى اكفف ما تأتنا به من آية.

---

(١) الجامع لاحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢٣٨.

وقيل إن مهمـا كلمة مفردة يجازى بها ليجـزم ما بعدها على تقدير إن»[١]ـ والجواب: ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يعنى مُصدقين.

قـال الألوسى: ﴿مَهْمَا﴾ اسم شرط ومحلهـا الرفع على الابتداء وخبرها إما الشرط أو الجزاء»[٢]ـ وتلك من بلاغة القرآن الكريم.

يقول الطبرى: وقـال آل فرعون لموسى يا موسى مـهما تأتنا به من علامة ودلالة لتسـحرنا يعنى لِتلفتنا بها عما نحـن عليه من دين فرعون، فما نحن لك بمؤمنين، فمـا نحن لك فى ذلك بِمصدقين على أنك مُحق فيما تدعونا إليه»[٣]ـ انظر إلى العناد والمكابرة والعياذ بالله.

٣١- قـوله تـعـالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ آية رقـم ١٣٣ من سورة الأعراف.

يقول الطبرى: اختلف أهل التأويل فى معنى الطوفان، قال بعضهم هو الماء.

عن سعيـد بن جبير عن ابن عباس، لما جـاء موسى بالآيات، كان أول الآيات الطوفان، فأرسل عليـهم السماء، وقيل هو الغرق وقـيل غير ذلك.

- وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ..﴾ من الآية رقم ١٣٣ من سورة الأعراف.

(١) الفتوحات الإلهية للجمل جـ٣ ص١٠١ والجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢٤٠.
(٢) روح المعانى للألوسى جـ٩ ص٣٣.
(٣) جامع البيان للقرطبى جـ٩ ص٣٠.

«عقوبةٍ لجرائمهم ـ وقوله ﴿الطُّوفَانَ﴾ ـ أى ما طاف عليهم وغشى أماكنهم، وحروثهم من مطر أو سيل ـ فهو اسم جنس من الطواف ـ وقيل إنه مصدر وهو اسم لكل شىء حادث يُحيط بالجهات ويعم كالماء الكثير، والقتل الذريع والموت الجارف، وقد اشتهر فى طوفان الماء، وقد ورد ذلك عن ابن عباس وغيره، وتفسيره بالموت، وقيل إنه الطاعون أو الجدرى وغير ذلك.

والجراد هو المعروف واحده جرادة، سُمى بذلك لجرده ما على الأرض وهو جند من جنود الله يُسلطه الله على من يشاء من عباده»[١].

﴿وَالْقُمَّلَ﴾ ـ بضم القاف وتشديد الميم ـ وهى حشرة صغيرة تدخل الملابس والرأس ولَهَا لَدْغ.

«والضفادع جمع ضُفْدع وهى الدابة المائية المعروفة»[٢]ـ تقفز لِتأكل العُشْب والحشائش والحشرات الصغيرة.

«والدَّم معروف بتشديد الدال»[٣]ـ وهو سائل أحمر اللون يجرى فى عروق الحيوانات والإنسان فى الشرايين والأوردة، ويتدفق إلى القلب.

قال المراغى: «وقد كانت مياه المصريين تتحول إلى دم[٤]ـ وذلك ابتلاء من الله.

٣٢- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الآية رقم ١٣٤ من سورة الأعراف.

(١) روح المعانى للآلوسى جـ٩ ص٣٤.
(٢)، (٣) المرجع السابق نفس الصفحة.
(٤) تفسير المراغى جـ٣ ص٢٦٣.

«وروى أن موسى عليه السلام لما رأى من فرعون وقومه العناد والإصرار دعا وقال: يا رب إن فرعون علا فى الأرض، وإن قومه قد نقضوا العهد، رب فخذهم بعقوبة تجعلها عليهم نقمة، ولقومى عظة، ولمن بعدهم آية وعبرة، فأرسل الله تعالى عليهم المطر ثمانية أيام فى ظلمة شديدة لم يستطع أحد أن يخرج من بيته، فدخل الماء بيوتهم حتى قاموا فيه إلى تراقيهم - أى حلوقهم - ولم يدخل بيوت بنى إسرائيل منه قطرة، وكانت مشتبكة فى بيوتهم.

وفاض الماء على أرضهم وركد، فمنعهم من الحرث والتصرف، ودام ذلك الماء عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت، فقالوا يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا ذلك ونحن نؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم، فنبت من العشب والكلأ ما لم يعهد مثله قبل، فقالوا ما كان هذا الماء إلا نعمة علينا فلم يؤمنوا» وهكذا العناد ولم يهدهم الله.

ويقول المراغى: «فأرسلنا عليهم عقوبة على جرائمهم، تلك المصايب والنكبات، وهى آيات بينات على صدق رسالة موسى عليه السلام - فاستكبروا عن الإيمان بها لرسوخهم فى الإجرام والإصرار على الذنوب»[1]- وهكذا يجزى الله القوم المجرمين.

يقول القرطبى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ..﴾ من الآية رقم ١٣٤ من سورة الأعراف.

والرجز أى العذاب - قال ابن جبير كان طاعونًا مات به من القبط فى يوم واحد سبعونًا ألفًا، وقيل المراد بالرجز ما تقدم ذكره من الآيات.

(١) تفسير المراغى جـ٣ ص٢٦٢.

٣٣- قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ آية رقم ١٣٥ من سورة الأعراف.

يقول الطبرى: فدعا موسى ربه فأجابه، فلما رفع الله عنهم العذاب الذى أنزله بهم إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون أى ينقضون عهودهم التي عاهدوا بها ربهم وأقاموا على كفرهم وضلالهم»[١]ـ هكذا قال أهل التأويل فانظر كيف كان عنادهم وضلالهم والعياذ بالله.

٣٤- قوله تعالى: ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ آية رقم ١٣٦ من سورة الأعراف.

أى فانتقمنا منهم عند بلوغ الأجل المضروب لهم بأن أغرقناهم فى البحر الأحمر شرقى مصر، وذلك بسبب تكذيبهم بالآيات وعدم تفكرهم فيها، حتى صاروا كالغافلين عنها.

كانوا يظهرون الإيمان عند كل آية من آيات العذاب ثم يكذبون، حتى إذا انقضى الأجل المضروب لهم انتقمنا منهم بسبب أنهم كذبوا بها كلها وكانوا غافلين عما يعقبها من العذاب فى الدينا والآخرة، إذا كانت فى نظر الكثير منهم من قبيل السحر.

«ومنهم من اهتدى إلى الحق وظهر له صدقه فآمن به جهرة ككبار السحرة، ومنهم من كتم إيمانه»[٢]ـ وهكذا تنوعت مواقفهم، فمنهم من آمن ومنهم من كفر.

٣٥- قوله تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا.. ﴾ من الآية رقم ١٣٧ من سورة الأعراف.

---

(١) جامع البيان للطبرى جـ٩ ص٤٢.

(٢) تفسير المراغى جـ٣ ص٢٦٤.

يقول الآلوسي: في قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ..﴾ بالاستعباد وذبح الأبناء، والجمع بين صيغتي الماضي - كانوا - والمستقبل يستضعفون للدلالة على استمرار الاستضعاف وتجدده، والمراد بهم بنو إسرائيل ونصب القوم على أنه مفعول أول لأورثنا، والمفعول الثاني قوله تعالى: ﴿.. مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا..﴾، أى جميع نواحيها والمراد؛ أرض الشام أو أرض الشام ومصر»[1]- وبارك الله فى هذه الأراضى بركات من لدنه سبحانه.

وقوله سبحانه: ﴿.. وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا..﴾ من الآية رقم ١٣٧ من سورة الأعراف.

أى ونفذت كلمة الله ومضت على بنى إسرائيل تامة كاملة بسبب صبرهم على الشدائد التى كابدوها من فرعون وقومه، وقد كان وعد الله تعالى إياهم مقرونًا يأمرهم بالصبر والاستقامة كما أمرهم نبيهم عليه السلام مُبلغًا عن ربه.

وقوله تعالى: ﴿.. وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ آخر الآية رقم ١٣٧ من سورة الأعراف.

أى وخربنا ما كان يصنع فرعون وقومه من المبانى والقصور التى كانوا يبنونها للمصريين وما كانوا يعرشون من الجنات والبساتين.

٣٦- قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ..﴾ من الآية رقم ١٣٨ من سورة الأعراف.

---

(١) روح المعانى للآلوسى جـ٩ ص٣٧.

«يقـال عكف يعـكَف ويعكُف، بمعنى أقـام عـلى الشيء ولزمـه، والمصدر منهـما على عكوف، فُـعول ـ قال قـتادة كان أولـئك القوم من لَخْم، وكانـوا نزولا بالرقة، وقيـل كانت أصنامهـم تماثيل البقـر، ولهذا أخرج لهم السامرى عجلا»[١] جَسَدًا له خُوار.

يقـول المراغى: «جاز الشيء وتجـاوزه عدَّاه وانتـقل عنه، والعكوف على الشيء الإقبال عليـه وملازمته تعظيـمًا له، والأصنام واحدها صنم، وهو ما يصنع من الخشب والحجر أو المـعدن وتماثيل بقر من نحاس. وقد اتخذ بعض العرب فى الجاهلية أصنامًا من عجوة التمر فعبدوها ثم جاعوا فأكلوها.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ..﴾ أى قطعنا البحر بهم.

والمراد، البحر بحر القلزم، وهو البحر الأحمر شرقى مصر.

وقد عـبر بهم مـوسى يوم عاشـوراء بعد مهلك فـرعون وقـومه، فصاموا شُكْرًا لله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿.. قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ آخر الآية رقم ١٣٨ من سورة الأعراف.

«وتعجب مـوسى عليه السلام مـن قولهم هذا بعد مـا شاهدوه من الآية الكبـرى فوصفـهم بالجهل عـلى أتم وجه»[٢] ومـا بعـد ذلك من حماقة.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢٤٥.

(٢) روح المعانى للآلوسى جـ٩ ص٤١.

٣٧- قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ آية رقم ١٣٩ من سورة الأعراف.

﴿إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ..﴾ أى مهلك، والتبار: الهلاك وأمرٌ مُتَبَّر أى إن العابد والمعبود مهلكان ـ وقوله: ﴿..وَبَاطِلٌ..﴾ ـ أى ذاهب مضمحل.

وقوله: ﴿..مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الذى كانوا يعملونه.

٣٨- وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ آية رقم ١٤٠ من سورة الأعراف.

أى أأطلب لكم إلاهًا غير الله تعالى، يقال بَغيته وبغيت له.

وقوله تعالى: ﴿..وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ـ آخر الآية رقم ١٤٠ من سورة الأعراف.

أى على عالمى زمانكم، وقيل فضلكم بإهلاك عدوكم، وبما خَصَّهم به من الآيات»[1]ـ والعِبر والعظات.

أى قال لهم موسى أأطلب لكم معبودًا غير الله رب العالمين وخالق السماوات والأرض، وقد فضلكم على العالمين بما جدد فيكم من التوحيد وهداية الدين بإذن الله تعالى.

٣٩- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ..﴾ من الآية رقم ١٤١ من سورة الأعراف.

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢٤٦.

«وذكرهم مِنته، وقيل هو خطاب ليهود عصر النبى ﷺ، واذكروا إذ أنجينا أسلافكم»[١]- يعنى قدماءكم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ آية رقم ١٤١ من سورة الأعراف.

يكلفونكم ويذيقونكم سوء العذاب وأشده يُقتلون أبناءكم ويستحيون يعنى يستبقون نساءكم للخدمة وفى ذلكم ابتلاء بالإنعام والسراء والضراء على حَدٍّ سواء.

٤٠- قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ..﴾ من الآية رقم ١٤٢ من سورة الأعراف.

قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ..﴾ أى وعدناه بأن نُكلمه عند انتهاء ثلاثين ليلة يصومها.

قال المفسرون إن موسى عليه السلام وعد بنى إسرائيل إذا أهلك الله تعالى عدوهم فرعون، أن يأتيهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما أهلك الله تعالى فرعون، سأل موسى ربه أن ينزل عليه الكتاب الذى وعد بنى إسرائيل، فأمره أن يصوم ثلاثين يومًا فصامها»[٢]- وهكذا كان الصيام قربة إلى الله عز وجل.

قال المراغى: بعد أن ذكر الله ما أنعم به على بنى إسرائيل من النجاة من العبودية، ومن جعلهم أمة حرة مستقلة قادرة على القيام بما شرعه الله لها، من العبادات والأحكام.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢٤٦.

(٢) الفتوحات الإلهية للجمل جـ٣ ص١٠٩.

ذكر هنا بدء وحى الشريعة لموسى عليه السلام، ممتنا عليهم بما حصل لهم من الهداية بتكليم موسى، وإعطائه التوراة، وفيها تفاصيل شرعهم وبيان ما يقربهم من ربهم من الأحكام، وقد روى أن موسى عليه السلام وعد بنى إسرائيل وهو بمصر، إن أهلك الله عدوهم آتاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب، فبينت هذه الآيات كيفية نزول هذا الكتاب وهو التوراة»[١]ـ والتى فيها هدى ونور بمشيئة الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ .. وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً .. ﴾ من الآية رقم ١٤٢ من سورة الأعراف.

«وواعدنا موسى لمناجاتنا ثلاثين ليلة، وقيل إنها ثلاثون ليلة من ذى القعدة، وأتممنا الثلاثين ليلة بعشر ليال الأول من ذى الحجة، فتم ميقات ربه أربعين ليلة فكمل الوقت الذى واعد الله موسى أربعين ليلة.

وأربعين حال وليلة تمييز» ـ فكان وعده لمناجاة ربه إكرامًا له، ليستعد لمناجاة ربه ولمكالمته، وإعطائه الألواح المشتملة على أصول الشريعة»[١]ـ والتى هى قواعد الدين.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ آخر الآية رقم ١٤٢ من سورة الأعراف.

«أى وقال موسى حين أراد الذهاب لميقات ربه، لأخيه هارون وكان الأكبر منه سِنّاً، كن خليفتى فى قومى وراقبهم فيما يأتون ويذرون،

---

(١) تفسير المراغى جـ٣ ص٢٦٨.

(٢) تفسير المراغى جـ٣ ص٢٦٩.

وكانت الرياسة فيهم لموسى، وكان هارون وزيره ونصيره، وأصلح ما يحتاج إلى الإصلاح من أمور دينهم، ولا تتبع سبيل من سلك الإفساد فى الأرض، واتباع سبيل المفسدين.

يشمل مشاركتهم فى أعمالهم، ومساعدتهم عليها، ومعاشرتهم والإقامة معهم، حال اقتراف الإفساد»(١).

وهذه هى قواعد الدين والشريعة، والتى تؤدى إلى صلاح حال الأفراد والجماعات فى الدنيا والآخرة.

«وقال موسى حين أراد المضى للمناجاة والمغيب فيها لأخيه هارون كن خليفتى، فدلَّ على النيابة»(٢)ـ ليكون هارون نائبًا عن موسى فى رياسة قومه بإذن الله تعالى وتوفيقه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ﴾ ـ أمر بالإصلاح، قال ابن جرير، كان من الإصلاح أن يَزْجر السامرى، ويغير عليه، وقيل أى ارفق بهم وأصلح أمرهم، وأصلح نفسك، أى كن مُصْلحا.

وقوله: ﴿.. وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ آخر الآية رقم ١٤٢ من سورة الأعراف.

وقوله تعالى: ﴿.. وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أى لا تسلك سبيل العاصين، ولا تكن عونًا للظالمين»(٣)ـ وهذه هى قواعد الهداية والرشاد للفرد والجماعة إن شاء الله تعالى.

---

(١) تفسير المراغى جـ٣ ص٢٦٩.

(٢) تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢٤٩.

(٣) المرجع السابق جـ٧ ص٢٥٠.

٤١- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي..﴾ من الآية رقم ١٤٣ من سورة الأعراف.

وقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا..﴾ من الآية رقم ١٤٣ من سورة الأعراف.

أى فى الوقت الموعود ﴿.. وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ..﴾ أى أسمعه كلامه من غير واسطة.

﴿.. قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ..﴾، اشتاق إلى رؤيته لما أسمعه كلامه، قال لن ترانى أى فى الدنيا»[1]ـ لأن الجسم البشرى لا يتحمل فى الدنيا رؤية الباقى جل جلاله.

وقوله: ﴿.. قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ..﴾ «الذى هو أقوى منك فإن استقر وثبت مكانه فسوف ترانى، ﴿.. فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ..﴾ أى ظهر من نوره قدر نصف أنملة الخنصر للجبل جعله دكًّا، مدكوكًا مستويًا بالأرض وخر موسى صعقًا مغشيًّا عليه لهول ما رأى، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك من سؤال ما لم أومر به وأنا أول المؤمنين فى زمانى، قال تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾»[2] يعنى شاكرًا بما أنعمت عليك يا موسى قانعًا، والشاكر معرض للمزيد.

٤٢- قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا..﴾ من الآية رقم ١٤٥ من سورة الأعراف.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢٥٠.

(٢) الفتوحات الإلهية للجمل جـ٣ ص١١٢ وص١١٣.

وقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ..﴾ يريد التوراة.

وقال مجاهد كانت الألواح من زمردة خضراء»[١] بتكريم الله عز وجل.

قال الجمل: وكانت من الزبرجد أو الزمرد سبعة أو عشرة ألواح، وقوله ﴿.. مِن كُلِّ شَيْءٍ..﴾ يحتاج إليه فى الدين، وقوله ﴿مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً﴾ تبيانًا (لكل شىء) بدل من الجار والمجرور قبله ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ بجد واجتهاد وحَزْم.

وقوله تعالى: ﴿.. وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا..﴾، الباء زائدة، أى يعملوا بالأوامر ويتركوا النواهى، وأن يمتثلوا بالمواعظ والأخذ بالعفو أحسن من الاقتصاص، والصبر أحسن من الانتصار، وقيل أحسنها الفرائض والنوافل، وقيل إن الأحسن أى البالغ فى الحسن مُطْلَقًا.

وقوله: ﴿.. سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾، قال الكلبى دار الفاسقين ما مروا عليه إذا سافروا من منازل عاد وثمود والقرون التى أهلكوا وقيل هى جهنم، أى فلتكن منكم على ذكر، فاحذروا أن تكونوا منها، وقيل أراد بها مصر، أى سأريكم دار القِبْط ومساكن فرعون خالية عنهم، وقيل سأريكم منازل الكفار التى سكنوها قبلكم من الجبابرة والعمالقة لتعتبروا بها يعنى الشام»[٢]- وفى ذلك ذكرى لمن أراد أن يذكر.

٤٣- قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا..﴾ من الآية رقم ١٤٦ من سورة الأعراف.

---

(١) الجامع لاحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢٥٢.

(٢) الجامع لاحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢٥٣.

استئناف مسوق على ما قاله شيخ الإسلام، لتحذيرهم عن التكبر الموجب لعدم التفكر فى الآيات، التى كتبت فى ألواح التوراة المتضمنة للمواعظ والأحكام أو ما يعمها وغيرها من الآيات التكوينية، التى من جملتها ما وعدوا إراءته من دار الفاسقين، ومعنى صرفهم عنها منعهم بالطبع على قلوبهم، فلا يكادون يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها لإصرارهم على ما هم عليه من التكبر والتجبر»[1]ـ سأصرف المتكبرين عن إبطال الآيات، يتكبرون مُلتبسين بغير الحق، يتكبرون غير مُحقين.

وقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ﴾ استئناف مسوق لتحذيرهم عن التَّكبر الموجب لعدم التفكر فى الآيات التى هى ما كتب فى ألواح التوراة أو ما يعمها وغيرها.

وقوله ﴿عَنْ آيَاتِيَ﴾، أى عن فهمها، فمعنى صرفهم عنها الطبع على قلوبهم بحيث لا يفهمونها.

وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ حال من الذين يتكبرون، أى حال كونهم مُلتبسين بالدين غير الحق، وقوله: وإن يروا معطوف على يتكبرون.

وقوله: كل آية أىْ أىّ آية كانت لا يؤمنوا بها.

وقوله: ﴿.. وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ..﴾ أى الهدى الذى جاء من عند الله ﴿.. لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً..﴾، فلا يسلكوه. ﴿.. وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ..﴾ أى الضلال ﴿.. يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً..﴾، ذلك الصرف ﴿.. بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ..﴾ ضالين جاهلين.

---

(١) روح المعانى للآلوسى جـ٩ ص٦١.

٤٤- قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ آية رقم ١٤٧ من سورة الأعراف.

«يعنى كذبوا بالبعث وغيره، حبطت أعمالهم، يعنى بطلت أعمالهم التى عملوها فى الدنيا من خير كصلة رحم وصدقة فلا ثواب لها لعدم شرطه وموافقته للشرع، فهل يُجْزَون إلا جزاء ما كانوا يعملون من التكذيب والمعاصى»[1]ـ ووجدوا ما عملوا حاضرًا ولا يَظْلم ربك أحدا.

٤٥- قوله تعالى: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ .. ﴾ من الآية رقم ١٤٨ من سورة الأعراف.

أى بعد ذهاب موسى إلى الجبل لمناجاة ربه سبحانه، اتخذ قومه من حُليهم جَمْع حُلىٍّ، وهو ما يُتخذ للزينة، ويُتحلى به من الذهب والفضة، والجار والمجرور متعلق باتخذ، وقوله ﴿عِجْلاً﴾ مفعول اتخذ بمعنى صاغ وعَمِل.

«وقيل إن اتخذ متعد إلى اثنين، وهو بمعنى صَيَّر، والمفعول الثانى محذوف أى إلاهًا.

والعجل ولد البقر خاصة ـ وقوله تعالى جسدًا بدل من ﴿عِجْلاً﴾ أو عطف بيان أو نَعْت له بتأويل مُتجسدًا، ﴿لَّهُ خُوَارٌ﴾ هو صوت البقر خاصة، وخوار مبتدأ»[2]ـ وهكذا زيَّن لهم الشيطان أعمالهم.

وقوله تعالى: ﴿ .. أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً .. ﴾ من الآية رقم ١٤٨ من سورة الأعراف.

(١) الفتوحات الإلهية للجمل جـ٣ ص١١٦.
(٢) روح المعانى للآلوسى جـ٩ ص٦٣، ص٦٤.

تقريع لهم وتشنيع على فرط ضلالهم؛ أى ألم يروا أنه لا يقدر على ما يقدر عليه آحاد البشر من الكلام، وإرشاد السبيل بوجه من الوجوه، فكيف عدلوه بخالق الأجسام والقوى والقدر.

وقوله اتخذوه تكرار لجميع ما سلف.

وقوله تعالى: ﴿.. وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ اعتراض تذييلى، فهم قد ظلموا أنفسهم بهذا الاعتقاد الباطل.

٤٦- وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ أى ندموا على عبادة العجل، ورأوا وعلموا أنهم قد ضلوا، وذلك بعد رجوع موسى، ﴿.. قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ..﴾ آخر الآية رقم ١٤٩ من سورة الأعراف.

وقوله: ﴿لَئِن﴾ اللام لام القسم.. وقال بعضهم لبعض لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين الضالين المضلين.

٤٧- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا..﴾ من الآية رقم ١٥٠ من سورة الأعراف.

«﴿غَضْبَانَ﴾ نصب على الحال، ﴿أَسِفًا﴾ شديد الغضب، والأسيف أيضًا الحزين»[1]ـ رجع حَزِينًا من صَنيع قومه.

«أخبر الله عز وجل موسى قبل رجوعه، أنهم قد فتنوا بالعجل، فلذلك رجع وهو غضبان»[2]ـ لِضلالهم وكفرهم.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢٥٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢٥٧.

ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا، أى شديد الغضب على قومه لعبادتهم العجل وحزينًا عليهم، قال بئسما خلفتمونى من بعدى، أى بئس ما عملتم خلفى.

وقوله تعالى: ﴿.. أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ..﴾ من الآية رقم ١٥٠ من سورة الأعراف.

أى أعجلتم عما أمركم به ربكم، وهو انتظار موسى عليه السلام حال كونهم حافظين لعهده.

﴿.. وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ..﴾ من الآية رقم ١٥٠ من سورة الأعراف.

«ووضع الألواح كالطارح لها ليأخذ برأس أخيه يجره إليه»[1]- من شدة الغضب «وأخذ بشعر أخيه بيمينه ولحيته بشماله»[2]- يعنى برأسه ولحيته.

﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ﴾ بكسر الميم وفتحها أراد أُمّى، وذكرها أعطف لقلبه، ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي﴾، وكادوا وقاربوا يقتلوننى، فلا تشمت ولا تفرح بى الأعداء، بإهانتك إياى ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ بعبادة العجل فى المؤاخذة.

٤٧- قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ آية رقم ١٥١ من سورة الأعراف.

قال موسى رب اغفر لى واغفر لأخى بتفريطه فى عدم منعهم، ولما قد يكون قد حدث، وطلبه بأن يدخلهم جميعًا فى رحمته الواسعة بمزيد الإنعام عليهم، وأنت يا رب أرحم الراحمين فرحمتك وسعت كل شىء.

---

(١) روح المعانى للآلوسى جـ٩ ص٦٦.

(٢) الفتوحات الإلهية للجمل جـ٣ ص١٢٠.

٤٨- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ آية رقم ١٥٢ من سورة الأعراف.

أى من افترى بِدعة وخالف الرسالة فعلى كتفيه يذوق بِدْعته، وقوله وكذلك نجزى المفترين، لِكل مفتر إلى يوم القيامة.

ثم نبه تعالى وأرشدهم، أنه يقبل التوبة من أى ذنب كان بقوله تعالى:

٤٩- ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ آية رقم ١٥٣ من سورة الأعراف.

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا..﴾ وأخلصوا ﴿.. إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أى محاء لِذنوبهم، مُنْعم عليهم بالجنة بمشيئة الله سبحانه وفضله.

٥٠- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ آية رقم ١٥٤ من سورة الأعراف.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ أى سكن عن موسى الغضب أخذ الألواح التى كان قد ألقاها من شدة الغضب فتكسرت، ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ أى ما نسخ فيها أى كتب هُدى من الضلالة ورحمة ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ أى يخافون، وهم مبتدأ ويرهبون خبره، والجملة صلة الموصول، وقوله ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ مُتعلق بِيرهبون واللام زائدة لِتقوية العامل»[1]ـ وهذه من بلاغة القرآن الكريم.

(١) الفتوحات الإلهية جـ٣ ص١٢٢.

«وأصل السكون الإمساك، يُقال جرى الوادى ثلاثًا ثم سكن أى أمسك عن الجرى.

وأخذ الألواح التى ألقاها، ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾، أى هدى من الضلالة، ورحمة من العذاب.

وقيل لما تكسرت الألواح صام موسى أربعين يومًا، وأعيدت تلك الألواح فى لوحين لم يفقد منها شيئًا، وذلك من فضل الله تعالى.

٥١- قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ..﴾ من الآية رقم ١٥٥ من سورة الأعراف.

«وفى قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ..﴾، تتمة لشرح أحوال بنى إسرائيل، وقال البعض إنه شروع فى بيان كيفية استدعاء التوبة وكيفية وقوعها»[1]- لتقع مَقبُولة إن شاء الله تعالى.

﴿.. فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ..﴾ أى ماتوا، والرجفة فى اللغة الزلزلة الشديدة، ويروى أنهم زُلزلوا حتى ماتوا، بِقَدَرِ الله عز وجل.

﴿.. قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ..﴾، أى أمتهم، وإياى عطف، والمعنى لو شئت أمتنا من قبل أن نخرج إلى الميقات[2]- يعنى الميعاد المحدد.

﴿.. فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ..﴾ اختلفوا، هل كان مع الرجفة موت أم لا، معظم الروايات على أنهم ماتوا بها، وقال وهب لم يموتوا،

---

(١) روح المعانى للآلوسى جـ٩ ص٧١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢٦٤.

ولكنهم لما رأوا الهيبة أخذتهم الرعدة، فلما رأى موسى منهم ذلك خاف عليهم الموت، فدعا ربه وبكى، فكشف الله عنهم تلك الرجفة»[1]- والله أعلم والله غالب على أمره، والله يفعل ما يشاء.

قال موسى ﴿.. رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ..﴾ أى قبل خروجى بهم، ﴿.. أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا..﴾؟ استفهام استعطاف، أى لا تُعذبنا بذنب غيرنا وأنت أرحم الراحمين.

أى قال موسى لربه مستعطفًا لا تهلكنا، بما فعل السفهاء منا من العناد وسوء الأدب أو عبادة العجل، وفى هذا إيماء إلى أن عقلاء بنى إسرائيل وأصحاب الروية منهم لم يعبدوا العجل وإنما عبده السفهاء.

- قوله تعالى: ﴿.. إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ آخر الآية رقم ١٥٥ من سورة الأعراف.

وما تلك الغفلة التى كانت سببًا فى أخذهم بالرجفة إلا محنة منك وابتلاء، ﴿.. تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ..﴾، وتقديرك يا رب دائر بين العدل والفَضْل.

وبهذا ينتهى بفضل الله المبحث التاسع والذى ضم قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه، وضم الآيات من أول ١٠٣ من سورة الأعراف بقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ..﴾ إلى آخر الآية رقم ١٥٥ من السورة بقوله تعالى: ﴿.. فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ وظهر منها كما ظهر من قصص الأنبياء السابقين،

---

(١) الفتوحات الإلهية للجمل جـ٣ ص١٢٤.

عدم تقـوى الله والتكذيب وانعدام الأمانـة وعدم الوفاء بالعـهد وهكذا، كذلك قص الله تعالى على رسـوله ﷺ والمؤمنين قصص المكذبين للعظة والعبرة، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

وتنتقل الدراسة بعد ذلك إلى الباب الثانى فى قضايا متنوعة إن شاء الله تعالى.

الباب الثانى

قضايا متنوعة

المبحث الأول

فى بعض قواعد الإيمان

وتضم الآيات من أول رقم ١٥٦ بقوله تعالى: ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ .. ﴾.

إلى آخر قوله تعالى فى الآية رقم ١٦٧ بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

والتى تؤدى إلى سعادة الفرد فى الدنيا وإلى نعيم الآخرة بمشيئة الله تعالى.

﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ

إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩) وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢) وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٧) ﴾ .

أ- معانى بعض المفردات:

- ﴿ .. هُدْنَا .. ﴾ من الآية رقم ١٥٦ من سورة الأعراف.

أى رجعنا وتبنا إليك.

- ﴿ .. النَّبِيَّ الأُمِّيَّ.. ﴾ من الآية رقم ١٥٧ من سورة الأعراف.

الأُمى: الذى لا يقرأ ولا يكتب.

- ﴿ .. الْخَبَائِثَ.. ﴾ من الآية رقم ١٥٧ من سورة الأعراف.

أى القبائح.

﴿ .. إِصْرَهُمْ.. ﴾ من الآية ١٥٧ من سورة الأعراف.

الإِصر هو الثِّقل الذى يحبس صاحبه عن الحركة.

- ﴿ .. الأَغْلالَ.. ﴾ - من الآية رقم ١٥٧ من سورة الأعراف.

التكاليف الشاقة فى التوراة ومفردها غِلّ.

- ﴿ .. عَزَّرُوهُ.. ﴾ من الآية رقم ١٥٧ من سورة الأعراف.

وقَّرُوه وعظَّموه.

- ﴿ .. يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ من الآية رقم ١٥٩ من سورة الأعراف.

أى بالحق يحكمون فى الخصومات بينهم.

- ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ.. ﴾ - من الآية رقم ١٦٠ من سورة الأعراف.

أى فَرَّقْناهم.

﴿ .. اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا.. ﴾ جماعات كالقبائل عند العرب والسبط ولد الولد، فهو كالحفيد - وقد يطلق السِّبط على الولد.

- ﴿ .. اسْتَسْقَاهُ.. ﴾ من الآية رقم ١٦٠ من سورة الأعراف.

أى طلب منه قومه السُّقْيا وهى الماء ولكن بتضرع وخشوع، ومنه صلاة الاستسقاء التى يضرع العباد فيها ويخشعون فى الدعاء إلى الله لنزول القطر عند الجدب، لِنزول المطر.

- ﴿ .. فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا .. ﴾ من الآية رقم ١٦٠ من سورة الأعراف.

أى انفجرت وقيل الانبجاس والانفجار واحد.

- ﴿ .. مَّشْرَبَهُمْ .. ﴾ ـ من الآية رقم ١٦٠ من سورة الأعراف.

أى عينهم الخاصة بهم، التى منها شُربهم.

- ﴿ .. الْغَمَامَ .. ﴾ من الآية رقم ١٦٠ من سورة الأعراف.

جمع غمامة، والمراد بها السحاب الأبيض الرقيق.

- ﴿ .. الْمَنَّ .. ﴾ ـ من الآية رقم ١٦٠ من سورة الأعراف.

وهو مادة صمغية تسقط على الشجر تشبه حلاوته حلاوة العسل.

- ﴿ .. وَالسَّلْوَى .. ﴾ من الآية رقم ١٦٠ من سورة الأعراف.

هو الطائر البرى المعروف بالسمان، وهو لذيذ اللحم سهل الهضم.

- ﴿ .. وَقُولُوا حِطَّةٌ .. ﴾ من الآية رقم ١٦١ من سورة الأعراف.

أى مسألتنا حَطٌّ ذنوبنا عنا، وهى من الحط بمعنى الإنزال، والأصل أن تكون منصوبة، ولكن الرفع يُعطيها معنى الثبات.

- ﴿ .. رِجْزًا .. ﴾ من الآية رقم ١٦٢ من سورة الأعراف.

أى عذابًا أليمًا سواء أكان بأمراض الطاعون أم بغيرها.

- ﴿ .. عَتَوْا .. ﴾ من الآية رقم ١٦٦ من سورة الأعراف.

أى تكبروا.

- ﴿ .. قِرَدَةً خَاسِئِينَ .. ﴾ من الآية رقم ١٦٦ من سورة الأعراف.

أى أذلاء مُبْعدين مقهورين.

﴿ .. تَأَذَّنَ .. ﴾ من الآية رقم ١٦٧ من سورة الأعراف.

بِمعنى آذن أى أعْلم.

ب- مناسبة الآيات لما قبلها:

بعد أن ساقت الآيات السابقات قصة موسى مع فرعون وبنى إسرائيل، عَقَّبت الآيات بعدها بالقواعد الإيمانية الرشيدة التى تؤدى إلى سعادة الفرد فى الدنيا والآخرة بمشيئة الله تعالى.

جـ- التفسير التحليلى للآيات من أول الآية رقم ١٥٦ من سورة الأعراف إلى آخر الآية رقم ١٦٧ بقوله تعالى: ﴿ .. وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾:

١- قوله تعالى: ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ .. ﴾.

أى وفقنا للأعمال الصالحات التى تكتب لنا بها الحسنات والتوفيق للطاعات فى الدنيا وفى الآخرة وتُوفينا بها جزاء الجنة ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ أى تبنا إليك ـ «قاله مجاهد وأبو العالية وقتادة والهود التوبة»[1] والرجوع إلى الله تبارك وتعالى.

«إنى امرؤ مما جنيت هائد»[2]ـ يعنى راجع إلى الله تبارك وتعالى: «وقوله تعالى: ﴿ قَالَ ﴾ استئناف وقوع جوابًا عن سؤال ينساق إليه الكلام

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢٦٦.
(٢) تفسير القاسمى محاسن التأويل جـ٧ ص٢٦٣.

كأنه قيل فماذا قال تعالى فى جواب دعاء موسى؟ فقيل ﴿ .. قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ .. ﴾ أى تعذيبى للعُصاة، ﴿ .. وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ .. ﴾، وتطلق الرحمة على التعطف والمغفرة والإحسان والجنة، فسأكتب هذه الرحمة ﴿ .. لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ .. ﴾ أى الكفر والشرك والفواحش ﴿ .. وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ .. ﴾ أى يُعطون زكاة أموالهم خالصة مُخلصة، ﴿ .. وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا .. ﴾ أى بكتابنا ورسولنا ﴿ .. يُؤْمِنُونَ ﴾ أى يُصدقون»[1] ـ ويعملون بما يعلمون.

وتدل هذه الآيات على أن الرحمة لا تُنال بمجرد الإيمان الذى هو التصديق، حتى ينضم إليه الطاعات الموصلات إلى روضات الجنات.

٢- قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ .. ﴾ من الآية رقم ١٥٧ من سورة الأعراف.

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ .. ﴾ محمدًا ﷺ، نسبه إلى الأم، لأنه باق على حالته التى ولد عليها ـ منصوب على المدح»[2] ـ ﴿ .. الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ .. ﴾ باسمه وصفته.

والمراد بالأُمِّى الذى لا يقرأ الخط ولا يكتب، وهذا الوصف من خصوصيات النبى محمد ﷺ، إذ كثير من الأنبياء كان يكتب ويقرأ»[3] ـ حسب البيئة التى تربى فيها.

الذين يتبعون الرسول الذى أرسل إلى الخلائق لِتكميلهم بأكمل الاعتقادات والأخلاق والأحوال والمقامات من جهة الوحى.

---

(١) القاسمى محاسن التأويل جـ٧ ص٢٦٣.
(٢) الفتوحات الإلهية للجمل جـ٣ ص١٢٧.
(٣) الفتوحات الإلهية للجمل جـ٣ ص١٢٧.

الذى يجدونه مكتوبًا عندهم باسمه (محمد وأحمد) ونعوته عندهم، يُحل لهم الطيبات مما حرم فى الشرائع السابقة، ويُحرم عليهم الخبائث من الميتة ونحوها، ويضع عنهم إصرهم وثقلهم والأغلال يعنى الشدائد التى كانت عليهم كقتل النفس فى التوبة وقطع أثر النجاسة.

﴿ .. فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ آخر الآية رقم ١٥٧ من سورة الأعراف.

أولئك هم الفائزون والسعداء فى الدنيا والآخرة بمشيئة الله تعالى.

إشارة إلى المذكورين، من حيث اتصافهم بما فضل من الصفات الفاضلة.

٣- قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ..﴾ من الآية رقم ١٥٨ من سورة الأعراف.

وذكر أن موسى عليه السلام بَشَّر به وأن عيسى عليه السلام بشر به، ثم أمر رسوله ﷺ أن يقول بنفسه إنى رسول الله إليكم جميعًا.

بعد أن حكى عز اسمه ما فى التوراة والإنجيل من نعوته ﷺ وذكر شرف من يتبعه من أهلهما ونيلهما سعادة الدنيا والآخرة، قَفَّى على ذلك ببيان عموم بعثته ﷺ ودعوة الناس كافة إلى الإيمان به وأمره بتبليغهم دعوته فقال:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا..﴾ - أى قل لجميع البشر من عرب وعجم إنى رسول الله إليكم كافة، لا إلى قومى خاصة، فهو بمعنى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾(١)- فهم أكثرهم لا يعلمون أنه ﷺ رسول الله إلى الناس جميعًا ـ كذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(٢). فهو رحمة للناس كافة من فضل الله تعالى.

وتوحيد الربوبية بالإيمان، وتوحيد الألوهية بالإيمان والعمل أى بعبادة الله وحده، وهما أصل الدين والركن الأول فى العقيدة، والركن الثانى الإيمان برسالة محمد ﷺ، والركن الثالث البعث بعد الموت، وهى تتضمن الإحياء والإماتة وتصرف الرب فى خلقه.

وقوله تعالى: ﴿.. فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ..﴾ من الآية رقم ١٥٨ من سورة الأعراف.

أى الذى ينبئ بما يُرشد الخلائق كلهم، مع كونه أميًا، وفى نعته بذلك زيادة تقرير أمره، وتحقيق أنه المكتوب فى الكتابين التوراة والإنجيل ـ الذى يؤمن بالله وكلماته أى ما أنزل عليه وعلى من تقدمه من الرسل من كتب ومن وَحْى، واتبعوه لعلكم تهتدون، يَعْنى لعلكم ترشدون وتسعدون فى الدنيا والآخرة بمشيئة الله تعالى.

٤- قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ الآية رقم ١٥٩ من سورة الأعراف.

«بعد أن بَيَّن عز اسمه كتابته للرحمة لمن يتبع محمدًا من قوم موسى عليه السلام ووصفهم بأنهم هم المفلحون.. ذكر هنا حال خواص أتباع

(١) آية رقم ٢٨ من سورة سبأ.
(٢) آية رقم ١٠٧ من سورة الأنبياء.

موسى عليه السلام الذين كانوا متبعين له حق الاتباع وعطفهم على المهتدين باتباع خاتم النبيين.

والأمةُ الجماعة الكثيرة ويهدون يرشدون ويدلون، والعدل الحكم بين الناس بالحق.

ومن قوم موسى جماعة عظيمة يهدون الناس بالحق الذى جاءهم به من عند الله فلا يتبعون هوى ولا يأكلون سُحْتًا، وهؤلاء من كانوا فى عصر موسى وممن بعد عصره، والأمم الكبيرة لا تخلوا من أهل الحق والعدل»[1] حتى تقوم الساعة.

٥- قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا..﴾ من الآية رقم ١٦٠ من سورة الأعراف.

قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا..﴾ أى عدد سبحانه نعمه على بنى إسرائيل، وجعلهم أسباطًا ليكون أمر كل سبط معروفًا من جهة رئيسهم، فيخف الأمر على موسى، وقيل أراد بالأسباط القبائل والفرق، والأسباط مأخوذ من السَّبط وهو شجر تَعْلِفه الإبل»[2] يعنى تأكله الإبل.

وقطعناهم أى صيرناهم قِطعًا وفِرقًا، كل فرقة منها سِبط والسِّبط ولد الولد مطلقًا، وقد يخص بولد البنت، وأسباط بنى إسرائيل سلائل أولاده العشرة»[3]ـ يعنى نسل هذه الأولاد.

---

(١) تفسير المراغى جـ٣ ص٢٨٦.

(٢) الجامع لاحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢٧٢.

(٣) تفسير المراغى جـ٣ ص٢٨٦.

ذكر سبحانه فى هذه الآية حالين من أحوال بنى إسرائيل، أولاهما أنه قسمهم اثنتى عشرة فرقة، بعدد أسباطهم الاثنى عشر، ثانيتهما أنهم لما استسقوا موسى ضرب الحجر فانبجس منه اثنتا عشرة عينا بقدر عدد الأسباط.

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا .. ﴾، أى وفرقنا قوم موسى الذين كان منهم أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ومنهم الظالمون والفاسقون، فجعلناهم اثنتى عشرة فرقة تسمى أسباطًا أى أمما وجماعات يمتاز كل منهم بنظام خاص فى معيشته وبعض شؤونه.

وقوله تعالى: ﴿ .. وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا .. ﴾ من الآية رقم ١٦٠ من سورة الأعراف.

«فنبعت منه عقب ضربه إياه اثنتا عشرة عينا من الماء بقدر عدد أسباطهم. وخص كل واحد بعين منها منعًا للزحام وحفظًا للنظام»(١)ـ وذلك من فضل الله تعالى.

﴿ .. وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ .. ﴾، أى سخرنا لهم الغمام، يُلقى عليهم ظِلَّه فيقيهم لفح الشمس من حيث لا يُحرمون فائدة نورها وحَرِّها المعتدل ولولا السحاب فى التيه لأحرقتهم حرارتها، إذ لم يكن هناك من الشجر ما يستظلون به.

﴿ .. وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ .. ﴾، فسهلنا عليهم الطعام والشراب على أحسن الوجوه، وكان المن يقوم مقام الخبز عندهم، ويكفى الألوف من الناس، ويقوم السمانى مقام اللحوم والطيور الأخرى.

(١) المرجع السابق نفس الصفحة.

وقوله: ﴿.. كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ..﴾ من الآية رقم ١٦٠ من سورة الأعراف.

أى وأنزلنا عليهم ما ذكر قائلين لهم كلوا من طيبات ما رزقناكم، وفى ذلك تنبيه وتذكير بما كان يجب عليهم من شكر هذه النعم.

وقوله تعالى: ﴿.. وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ آخر الآية رقم ١٦٠ من سورة الأعراف

أى وما ظلمونا بكفرهم بهذه النعم، بل ظلموا أنفسهم وضرُّوها بهذا الجحود والإنكار، وقد كان ذلك دأبهم وعادتهم آنًا بعد آن»[1].

وهكذا عدد الله نعمه على بنى إسرائيل ولكنهم جحدوا والعياذ بالله.

٦- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ..﴾ من الآية رقم ١٦١ من سورة الأعراف.

واذكر ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ بيت المقدس، بعد أن خرجوا من التيه، وكلوا من القرية حيث شئتم، ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أى ادخلوا باب القرية سجدًا سجود انحناء لا سجود شرعى، بأن يكونوا على هيئة الراكعين، ﴿.. نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ آخر الآية رقم ١٦١ من سورة الأعراف.

٧- قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ..﴾ فقالوا حَبة فى شعرة، ودخلوا يزحفون على أستاههم أى

---

(١) تفسير المراغى جـ٣ ص٢٨٧.

أدبارهـم ـ ﴿ .. فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ آخـر الآية رقم ١٦٢ من سورة الأعراف.

بما كانوا يفترون، ولم ينصاعوا إلى أمر ربِّهم.

٨- قوله تـعالى: ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ.. ﴾ من الآية رقم ١٦٣ من سورة الأعراف.

«القرية هى أيلة، وقـيل مَدْين وقيل طبرية، والعـرب تسمى المدينة قرية.

﴿ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾ أى قريبة منه على شاطئه، مجاورة لبحر القلزم «البحر الأحـمر» شرقى مصر ـ ويعدون فى السـبت يتجاوزون حكم الله بالصيد المحرم عليه وتخـصيصه للعبادة، و﴿ يَوْمَ سَبْتِهِمْ ﴾ أى تعظيـمهم للسبت»[1] للعبادة والطاعة.

والخطاب للنبى ﷺ، والسؤال للتـقرير المتضمن للتـقريع والتوبيخ، وبيان أن كفـر أهل الكتاب بمحمد ، وبمعجـزاته ليس بدعًا جديداً منهم، فإن أسلافهم أقدموا على هذا الذنب القبيح.

«إذ يعدون فى السبت بصـيد السمك المأمور بتركـه فيه، وإذ ظرف ليـعدون، ﴿ .. تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا .. ﴾ ظاهرة عـلى الماء، ويوم لا يسبتـون لا تأتيهم، ابتلاء من الله ﴿ .. كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾»[2]ـ وهذا البلاء بسبب فسقهم وخروجهم عن شرع الله.

---

(١) الفتوحات الإلهية للجمل جـ٣ ص١٣٢.

(٢) الفتوحات الإلهية للجمل جـ٣ ص١٣٢.

وهـذا بلاء مـن الله ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ﴾ والله عزيز ذو انتقام.

٩- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا..﴾ من الآية رقم ١٦٤ من سورة الأعراف.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ﴾ عطف على إذ قبله ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ من الآية ١٦٤ من سورة الأعراف.

ولعلهم يتقون الصيد الذى حُرِّم عليهم.

١٠- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ..﴾ من الآية رقم ١٦٥ من سورة الأعراف.

أى تركوا مـا ذكروا به وما وعظوا به، فلم يرجـعوا، ﴿.. أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾»[1]- بما كانوا يعتدون ولم يراعوا ما حَرَّم الله.

١١- قوله تـعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ - الآية رقم ١٦٦ من سورة الأعراف.

«أى تكبروا وأبوا أن يتركـوا ما نهوا عنه ﴿.. قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ - أى صاغـرين أذلاء بُعَداء عن الناس»[2]- وهكذا انتـقم الله منهم وغضب عليهم لعصيانهم أمره سبحانه.

(١) الفتوحات الإلهية للجمل جـ٣ ص١٣٦.

(٢) محاسن التأويل للقاسمى جـ٧ ص٢٨٥.

«وقـوله ﴿كُونُوا﴾ أمـر تكـوينـى بمعنى الفعل لا الكلام، قال ابن عباس ما أدرى ما فعل بالفرقـة الساكتة، وقال عكرمة لم تُهْلك لأنها كرهت ما فعلوه، وقالت لم تعظون. . .»[1]ـ فنجاهم الله سبحانه.

١٢- قوله تـعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ..﴾ من الآية رقم ١٦٧ من سورة الأعراف.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ..﴾ أى آذن كتوعد بمعنى أوعد، من الإيذان بمعنى الإعلام، أُجرى مـجرى فعل القسم، كـعلم الله وشهد الله ولذلك أجيب بما يُجاب بـه القسم، وهو قوله ﴿.. لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ..﴾، والمعنى حكم ربك ليسلطن على اليهود إلى يوم القـيامة من يسومهم سوء العـذاب، كـالإذلال، وضرب الجـزية وغـيـر ذلك بـسـبب عصـيـانهم ومخـالفتهم أوامـر الله وشرعه واحـتيالهم على المحـارم، وقد بعث الله تعالى بعد سليمان عليه السلام بختنصر ملك بابل، فخرب ديارهم وسبى نساءهم وذراريهم، وضرب الجزية على من بقى منهم، وجـلا كثيراً منهم إلى بابل وأقاموا فيها سبعين سنة، ثم تَسلطت عليهم ملوك شتى، ولبثوا زمانًا طويلا يكابدون بلاء عنيـفًا من تواتر الحروب على بلادهم، إلى أن صاروا جميـعًا تحت سلطة الرومان بعد ولادة عيسى علـيه السلام بإحدى وسبـعين سنة واستـؤصلوا من أرضـهم وتفرقـوا فى البلاد شـذر مذر، صاغرين مقهورين.

وقـوله تـعـالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ..﴾ من الآية رقـم ١٦٧ من سورة الأعراف.

---

(١) الفتوحات الإلهية للجمل جـ٣ ص١٣٧.

فهو سريع العقاب لمن أقام على كفره ونبذ وصاياه.

وقوله تعالى: ﴿.. وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ آخر الآية رقم ١٦٧ من سورة الأعراف.

فإنه غفور رحيم لمن تاب وأناب وعمل صالحًا ثم اهتدى.

وبهذا ينتهى المبحث الأول فى بعض قواعد الإيمان من الباب الثانى فى قضايا متنوعة.

وتضم الآيات من أول رقم ١٥٦ بقوله تعالى: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ..﴾.

إلى آخر قوله تعالى فى الآية رقم ١٦٧ بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

والتى تؤدى إلى سعادة الفرد فى الدنيا وإلى نعيم الآخرة بمشيئة الله تبارك وتعالى.

المبحث الثانى

بعض مناظر فساد بنى إسرائيل

والتى تدل على عدم مراعاتهم لأوامر الله وانتقام الله منهم.

ويضم الآيات من أول رقم ١٦٨ بقوله تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ.. ﴾ إلى آخر الآية رقم ١٧١ بقوله تعالى: ﴿ .. خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠) وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١) ﴾.

أ- المفردات:

- ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ.. ﴾: من الآية رقم ١٦٩ من سورة الأعراف.

الخلف هو من يخلف غيره مُطْلقًا، والمراد هنا خلف السوء.

- ﴿ .. عَـــرَضَ هَذَا الأَدْنَى.. ﴾: من الآية رقم ١٦٩ مـــن ســـورة الأعراف.

أى ما يُعرض من حُطام الدنيا الزائل.

- ﴿ .. دَرَسُوا مَا فِيهِ.. ﴾: من الآية رقم ١٦٩ من سورة الأعراف.

أى قرءُوا وعَلِموا ما فى التوراة.

- ﴿ .. نَتَقْنَا الْجَبَلَ.. ﴾: من الآية رقم ١٧١ من سورة الأعراف.

أى قلعناه ورفعناه.

- ﴿ .. ظُلَّةٌ.. ﴾: من الآية رقم ١٧١ من سورة الأعراف.

أى كالغمامة.

ب- المناسبة:

بعد أن بينت الآيات السابقات، مـا وقع فيه بعض بنى إسرائيل من الاعتداء فى يوم السبت، وكـيف انقسم القوم إلى طوائف ثلاث، وكيف كان عاقبة المعتدين.

ثم بَينت حكم الله عليـهم بأن جـعلهم فى الأرض مـتفـرقين أذلاء وسَـيُسلط عليـهم من يسومـهم سـوء العذاب، ثم خـتم ببيـان تفرقـهم وتشتيتهم فى الأرض وبين أنهم ليسوا فى العصيان والتمرد طبقة واحدة، بل مُتفاوتون، منهم الصالحون ومنهم دون ذلك.

وختم ببيان بلائه لهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ويتوبون.

جاءت الآيات التى معنا، لتوضح أحوال الأجـيال المتعاقبة من أبناء إسرائيل وتفاوتهم فى حب الدنيا، والطمع فى عرضها الزائل.

ثم ختمت الآيات ببيان العهد والميثاق الذى أخذه الله على ذرية آدم فى عالم الذر، وأشهدهم على أنفسهم، أنه الخالق الذى يستحق العبادة دون سواه.

جـ- التفسير التحليلى:

١- قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ..﴾ من الآية رقم ١٦٨ من سورة الأعراف.

«أى فَرَّقْنا بنى إسرائيل فى الأرض، وجعلنا كل فرقة منهم فى قُطْر من أقطارها، بحيث لا تخلو ناحية منها منهم، حتى لا تكون لهم شوكة، ﴿.. مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ..﴾، أى من ينحط عن درجة الصلاح لِكُفْر أو فسق، ﴿.. وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ..﴾ أى بالنعم والنِّقم ﴿.. لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، أى عن أسباب السيئات إلى الحسنات»(١)ـ ولكنهم مكروا وفسقوا كثير منهم.

٢- قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا..﴾ من الآية رقم ١٦٩ من سورة الأعراف.

«قوله ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ..﴾، يعنى أولاد الذين فرقهم فى الأرض. قال أبو حاتم الخَلْف بسكون اللام الأولاد الواحد والجمع منه سواء، وقال ابن الأعرابى الخَلَف بالفتح الصالح، وبالجَزْم الطالح.

(١) محاسن التأويل للقاسمى جـ٧ ص٢٨٩ إلى ص٢٩٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢٧٨ والفتوحات الإلهية للجمل جـ٣ ص١٣٩ وص١٤٠.

قوله: ﴿.. وَرِثُوا الْكِتَابَ..﴾ أى التوراة عن آبائهم، ﴿.. يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى..﴾ أى حطام هذا الشىء الدنىء أى الدنيا من حلال وحرام.

﴿.. وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا..﴾ ما فعلناه، ﴿.. وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ..﴾، الجملة حال، أى يرجون المغفرة، وهم عائدون إلى ما فعلوه مُصرون عليه، وليس فى التوراة وعد المغفرة مع الإصرار، ﴿..وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ آخر الآية رقم ١٦٩ من سورة الأعراف.

فيؤثرون الآخرة على الدنيا. وهكذا نرى منطقهم المعكوس فى حب الدنيا على الآخرة.

٣- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ الآية رقم ١٧٠ من سورة الأعراف.

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ..﴾ أى بالتوراة والعمل بها، يقال مسك به وتمسك به أى استمسك به وفيها معنى التكرير والتكثير للتمسك بكتاب الله تعالى وبدينه، فبذلك يُمدحون، فالتمسك بكتاب الله وبالدين يحتاج إلى الملازمة والتكرير لفعل ذلك»[1]ـ وهكذا يمدح الله من يتمسك بدينه ويعمل به، فلهؤلاء المصلحين الثواب العظيم.

وخص إقام الصلاة بالذكر مع دخولها فيما قبلها إظهارًا لمزيتها ولكونها عماد الدين وناهية عن الفحشاء والمنكر فالتمسك بالكتاب مشتمل على كل عبادة.

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢٨٠.

٤- وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ..﴾ من الآية رقم ١٧١ من سورة الأعراف.

وقوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ..﴾ أى رفعنا جبل الطور وقلعناه من أصله كأنه ظلة أى سحابة، وظنوا وأيقنوا أنه واقع بهم، أى ساقط عليهم، لأن الجبل لا يثبت فى الجو.

وقوله: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم﴾ يعنى أحكام التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أى عزيمة ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أى بالعمل ولا تتركوه كالمنسى وراء ظهوركم.

وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ـ مساوئ الأعمال أو راجين أن تنظموا فى سلك المتقين، الفائزين والسعداء فى الدنيا والآخرة بمشيئة الله تعالى.

«وقد رُوى عن ابن عباس رضى الله عنه أنهم راجعوا موسى فى فرائض التوراة وشرائعها، حتى رفع الله الجبل فوق رءوسهم فقال لهم موسى: ألا ترون ما يقول ربى عز وجل، لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا، فخروا سجدًا خوفًا من أن يسقط عليهم»[1]ـ وهكذا بلاء الله تعالى لهم.

---

(١) محاسن التأويل للقاسمى جـ٧ ص٢٩٢.

المبحث الثالث

أخذ ربك العهد من بنى آدم
فمنهم من آمن ومنهم من كفر

ويضم الآيات من رقم ١٧٢ من سورة الأعراف بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ.. ﴾ إلى آخر الآية رقم ١٧٩ بقوله تعالى: ﴿ .. أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤) وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨) وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾.

أ- المفردات:

- ﴿ وَإِذْ أَخَذَ.. ﴾: من الآية رقم ١٧٢ من سورة الأعراف.

وأخذ بمعنى أَخْرج.

- ﴿ .. مِن ظُهُورِهِمْ.. ﴾: من الآية رقم ١٧٢ من سورة الأعراف.

الظَّهر هو الجزء المهم من جسم الإنسان، وهو ما فيه العمود الفَقَرى.

- ﴿ .. نَبَأَ.. ﴾: من الآية رقم ١٧٥ من سورة الأعراف.

أى خبر والنبأ هو الخبر المهم.

- ﴿ .. فَانسَلَخَ مِنْهَا.. ﴾: من الآية رقم ١٧٥ من سورة الأعراف.

أى خرج ورجع كافرًا، والتعبير يوحى بِشدة بُعْده وطرده عن الإسلام.

- ﴿ .. فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ.. ﴾: من الآية رقم ١٧٥ من سورة الأعراف.

أى فلحقه وأدركه وصار قرينه.

- ﴿ .. مِنَ الْغَاوِينَ ﴾: آخر الآية رقم ١٧٥ من سورة الأعراف.

الضالين الهالكين.

- ﴿ .. أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ.. ﴾: من الآية رقم ١٧٦ من سورة الأعراف.

أى سكن إليها ورضى بمتاع الدنيا الزائل.

- ﴿ .. تَحْمِلْ عَلَيْهِ .. ﴾: من الآية رقم ١٧٦ من سورة الأعراف.

تشدد عليه وتزجره.

- ﴿ .. يَلْهَثْ .. ﴾: من الآية رقم ١٧٦ من سورة الأعراف.

يخرج لِسانه بالنفس الشديد.

- ﴿ .. مَثَلُ .. ﴾: فى الآية رقم ١٧٦ من سورة الأعراف.

- المثل: هى الصفة الغريبة غير المرغوب فيها.

- ﴿ .. ذَرَأْنَا .. ﴾: من الآية رقم ١٧٩ من سورة الأعراف.

خلقنا وأوجدنا.

ب- المناسبة:

بعد أن بينت الآيات السابقات ذلك العهد والميثاق الذى أخذه الحق سبحانه على ذرية آدم وهم فى عالم الذر، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا بلى وأقروا بذلك الإقرار الذى من أجله كان الإنسان مَفْطوراً على الخير والإيمان وحسن العلاقة بالله وكتبه ورسله، قد جاءت هذه الآيات لتبين فى أولها نموذجًا من نماذج الانحراف والانسلاخ والتنصل والنكوص على ذلك العهد من الإيمان بآيات الله بعد رؤيتها فى عالم الواقع.

جـ- التفسير التحليلى للآيات:

١- قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ .. ﴾ من الآيةرقم ١٧٢ من سورة الأعراف.

«واذكر إذا حين أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم» بدل اشتمال مما قبله بإعـادة الجار «ذرياتهم» بأن أخـرجهم من صلب آدم نسـلاً بعد نسل كنحو ما يتوالدون.

ورأى آخر يقـول لا إخراج ولا قول ولا شهـادة بالفعل، وإنما هذا كله على سبيل المجاز التمثيلى»[١]ـ وعلى سبيل التصوير.

«﴿مِن ظُهُـورِهِمْ﴾ بدل من بنى آدم بدل البـعض ﴿وَأَشْـهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِـهِمْ﴾ أى أشهد كل واحدة من أولئك الذريات المأخوذين من ظهور آبائهم على أنفسهم تقريرًا لهم بربـوبيته التامة»[٢]ـ أنه الإله الواحد الفرد الصمد الجدير بالعبودية والطاعة من خلقه.

«قال الجشمى: أى أشهـدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من دلائل وعجـائب خلقتـه وغرائب صنعتـه من أعضـاء سوية، وحواس مـدركة وجوارح ظاهرة وأعـصاب وعروق وغـير ذلك، وكلها تدل على صـفاته ووحدانيته فبالإشهاد بالأدلة صار كأنه أشهدهم بقوله:

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ على إرادة القول، أى قائلا: ألست بربكم ومالك أمركم ومربيكم على الإطلاق من غير أن يكون لأحد مَدخل فى شأن من شؤونكم فينتظم استحقاق المعبودية، ويستلزم اختصاصه بها تعالى:

﴿قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ أى على أنفسنا بأنك ربنا وإلاهنا لا رب غيرك وإن لم يكن هناك قول باللسان، فالآية من باب التمثيل المعروف فى كلام العرب.

---

(١) الفتوحات الإلهية للجمل جـ٣ ص١٤٣.

(٢) محاسن التأويل للقاسمى جـ٧ ص٢٩٣.

مثل الله تعالى خلقهم على فطرة التوحيد وإخراجهم من ظهور آبائهم، شاهدين بربوبيته شهادة لا يخالجها ريب.

والقصد من الآية الاحتجاج على المشركين بمعرفتهم ربوبيته تعالى معرفة فطرية لازمة لهم لزوم الإقرار منهم والشهادة.

وقوله: ﴿أَن تَقُولُوا﴾ أى كراهية ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا﴾ أى عن ربوبيته وتوحيده ﴿غَافِلِينَ﴾، أى لم نُنَبَّه عليه.

فإنهم حيث جبلوا على ما ذكر، صاروا محجوبين عاجزين عن الاعتذار بذلك إذ لا سبيل لأحد إلى إنكار ما ذكر من خلقهم على الفطرة السليمة»[١] - التى فطر الله الناس عليها، بتوحيده سبحانه وعبادته لا شريك له.

٢- قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ آية رقم ١٧٣ من سورة الأعراف.

﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ﴾، أى قبلنا ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ﴾ فاقتدينا بهم ﴿أَفَتُهْلِكُنَا﴾ أى أتعذبنا ﴿بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ من آبائنا، فلا يمكنهم الاحتجاج بذلك.

٣- قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الآية رقم ١٧٤ من سورة الأعراف.

«يعنى نبينها مثل ما بينا الميثاق ليتدبروها ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن كفرهم»[٢]- أى مثل ما ذكرنا نبين الأدلة والحجج ليرجعوا إلى الحق.

---

(١) محاسن التأويل للقاسمى جـ٧ ص٢٩٥.

(٢) الفتوحات الإلهية للجمل جـ٣ ص١٤٧.

٤- قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ آية رقم ١٧٥ من سورة الأعراف.

«﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أى على قومك أو على اليهود ﴿نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ أى علم الكتاب حتى تعلم وفهم المعانى وصار عالمًا بها وكان فى زمن موسى، فانسلخ من آيتنا ونزع الله العلم عنه، فكفر بها، وخرج منها خروج الحية من جلدها، ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أى فلحقه وأدركه وصار قرينًا له حتى أضله ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾»[1] من الضالين المضلين، والعياذ بالله رب العالمين.

قال مالك بن دينار: بُعث بلعم بن باعوراء إلى ملك مدين ليدعوه إلى الإيمان فأعطاه وأقطعه فاتبع دينه وترك دين موسى، فنزلت هذه الآيات وكان بلعم مُجاب الدعوة[2] ولكنه نكص على عقبيه.

٥- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ..﴾ من الآية رقم ١٧٦ من سورة الأعراف.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا..﴾ أى ولو أردنا أن نرفعه بتلك الآيات والعمل بها، إلى درجات الكمال والعرفان لفعلنا، بأن نخلق به الهداية خلقًا، ونلزمه العمل بها طوعًا أو كرهًا، إذ لا يعجزنا ذلك، ولكنه مخالف لِسنتنا.

قوله تعالى: ﴿.. وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ..﴾ - أى ولكنه ركن إلى الدنيا ومال إليها، وجعل كل حظه من حياته التمتع من لذائذها

(١) تفسير القاسمى محاسن التأويل جـ٧ ص٠٣٠.
(٢) الفتوحات الإلهية للجمل جـ٣ ص١٤٧.

الجسدية، فلم يوجه إلى الحياة الروحية عندما ركب رأسه، فلم يراع الاهتداء بشىء مما آتيناه من آياتنا.

وقد قَضَت سنة الله فى الإنسان، أن يجعله مُختاراً فى عمله المستعد له بحسب فطرته، ليكون جزاؤه، كِفاء ما قدمت يداه من خير أو شر، وأن يمتحنه الله بما خلق فى هذه الأرض من زينة ومُتعة، ثم يولى كل امرئ منهم وجهته التى هو موليها، فيختار منها ناحية بحسب استعداده وميله الفطرى.

وقوله تعالى: ﴿.. وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ..﴾ من الآية رقم ١٧٦ من سورة الأعراف.

أى ركن إليها. عن ابن جبير والسدى ومجاهد سكن إليها أى سكن إلى لذاتها، وأصل الإخلاد اللزوم، يقال أخلد فلان بالمكان، إذا أقام به ولزمه.

فكان المعنى لزم لِذات الأرض، فعبر عنها بالأرض، لأن متاع الدنيا على وجه الأرض، واتبع هواه أى ما زين له الشيطان.

فمثله كمثل الكلب ابتداء وخبر، إن تحمل عليه يلهث شرط وجوابه وهو فى موضع الحال، أى فمثله كمثل الكلب لاهِثًا، والمعنى أنه على شىء واحد لا يرعوى عن المعصية، كمثل الكلب الذى هذه حالته، فالمعنى أنه لاهث على كل حال، طردته أو لم تطرده.

فإنه يلهث فى حال الكلال وحال الراحة وحال المرض، وحال الصحة وحال الرِّى وحال العطش، فضرب الله مثلا لمن كذب بآياته، فقال إن وعظته ضَلّ وإن تركته ضل، فهو كالكلب إن تركته لهث وإن طردته لهث.

وقوله تعالى: ﴿ .. ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ آخر الآية رقم ١٧٦ من سورة الأعراف.

أى هو مثل جميع الكفار، والعياذ بالله تعالى.

٦- وقوله تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ الآية رقم ١٧٧ من سورة الأعراف.

﴿سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ﴾، يقال ساء الشىء قَبُحَ، وساء يسوء مساءة.

«فهو متعد أى قبح مثلهم، وتقديره ساء مثلا مثل القوم فحذف المضاف ونصب مثلا على التميز، والقوم مرفوع بالابتداء، أو على إضمار مبتدأ»[1]- وهكذا يضرب الله الأمثال، لعلهم يتفكرون ولعلهم يتعظون.

٧- قوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ آية رقم ١٧٨ من سورة الأعراف.

أى من يوفقه الله لسلوك سبل الهداية باستعماله عقله وحواسه فيما خُلِقَا له بمقتضى الفطرة، وإرشاد الدين ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ الذى شكر نعم الله عليه، ففاز بسعادة الدنيا وسعادة الآخرة بمشيئة الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ .. وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ آخر الآية رقم ١٧٨ من سورة الأعراف.

أى ومن يخذله الله ويحرمه التوفيق، فيتبع شيطانه وهواه، ويترك استعمال عقله وحواسه فى فقه آياته وشكر ما أنعم به عليه، فهو الكفور

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢٨٨ وص٢٨٩.

الضال الذى خسر سعادة الدنيا وسعادة الآخرة فقد خسر تلك المواهب التى كان بها إنسانًا مُستعدًا للسعادتين الدنيوية والأخروية.

«ولا شك أن الهداية الإلهية، نوع واحد، وهو الإيمان الذى ثمرته العمل الصالح، أما أنواع الضلال، فلا حَصْر لها، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1]ـ فسبيل الله واحد لا عوج فيه والسبل هى طرق الشيطان المتعددة التى تؤدى إلى الضلال والانحراف والاعوجاج، فالهدى هدى الله وهو الصراط المستقيم.

٨- قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ.. ﴾ من الآية رقم ١٧٩ من سورة الأعراف.

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا ﴾ أى خلقنا للنار أهلاً، وصفهم الله تعالى بقوله ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾، لا يفقهون بها الحق، فهم بمنزلة من لا يفقه، لأنهم لا ينتفعون بها، ولا يعقلون ثوابًا، ولا يخافون عقابًا، ﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ هدى الله ودلائل قدرته بعين الاعتبار ﴿ وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ الآيات والمواعظ سماع تدبر واتعاظ وليس الغرض نفى الإدراكات عن حواسهم جملة، ﴿ أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ ﴾، فى عدم الفقه والبصر والاستماع، لأنهم لا يهتدون إلى ثواب فهم كالأنعام، أى همهم الأكل والشرب ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ لأن الأنعام تُبصر منافعها ومضارها.

وقال عطاء الأنعام مُطيعة لله تعالى والكافر غير مطيع.

---

(١) الآية رقم ١٥٣ من سورة الأنعام.

وقـوله: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ ـ أى تركوا التدبـر وأعرضوا عن الجنة والنار»[١]ـ فخسروا دنياهم وأخراهم والعياذ بالله.

وبهذا ينتهى المبحث الثالث فـى أخذ ربك العهد من بنى آدم فمنهم من آمن ومنهم من كـفـر، والذى ضم الآيات من رقم ١٧٢ من سـورة الأعراف إلى آخر الآية رقم ١٧٩ من نفس السـورة، وتنتقل الدراسة إلى المبحث الرابع فى قدرة الله فى الأنفس والآفاق.

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢٩٠ والفتوحات الإلهية للجمل جـ٣ ص١٥١.

المبحث الرابع

قدرة الله فى الأنفس والآفاق

ويضم الآيات من أول رقم ١٨٠ بقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا .. ﴾ إلى آخر الآية رقم ٢٠٦ بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ وهى آخر سورة الأعراف.

﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (١٨٧) قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا

لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٧) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (١٩٨) خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣) وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦) ﴾. وهى آخر سورة الأعراف.

أ- المفردات:

- ﴿ .. **سَنَسْتَدْرِجُهُم** .. ﴾: من الآية رقم ١٨٢ من سورة الأعراف.

سنستميلهم إلى الهلاك بالإمهال، والأخذ بالتدريج منزلة بعد منزلة.

- ﴿ **وَأُمْلِي لَهُمْ** .. ﴾: من الآية رقم ١٨٣ من سورة الأعراف.

أى أمهلهم فى العقوبة والإملاء الإمداد فى الزمن.

- ﴿ .. **إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ** ﴾: من الآية رقم ١٨٣ من سورة الأعراف.

أخذى شديد قوى.

- ﴿ .. **مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ** .. ﴾: من الآية رقم ١٨٤ من سورة الأعراف.

مصدر جَنَّ من الجنون.

- ﴿ .. **مَلَكُوتِ** .. ﴾: من الآية رقم ١٨٥ من سورة الأعراف.

هو الملك العظيم فى السماوات والأرض وزيدت التاء للمبالغة.

- ﴿ .. **طُغْيَانِهِمْ** .. ﴾: من الآية رقم ١٨٦ من سورة الأعراف.

تكبرهم وتجاوزهم الحد فى الكفر.

- ﴿ .. **يَعْمَهُونَ** .. ﴾: من الآية رقم ١٨٦ من سورة الأعراف.

يعمهون عن الرشد، أى يتخبطون.

- ﴿ .. **أَيَّانَ مُرْسَاهَا** .. ﴾: من الآية رقم ١٨٧ من سورة الأعراف.

متى وقوع الساعة أى القيامة.

- ﴿ .. **لا يُجَلِّيهَا** .. ﴾: من الآية رقم ١٨٧ من سورة الأعراف.

لا يظهرها ولا يكشف عنها إلا هو سبحانه.

- قوله: ﴿.. ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ..﴾ - من الآية رقم ١٨٧ من سورة الأعراف.

أى عظمت لشدتها.

- قوله: ﴿.. يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا..﴾ من الآية رقم ١٨٧ من سورة الأعراف.

كأنك باحث عنها عالم بها.

- وقوله: ﴿.. وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا..﴾ من الآية رقم ١٨٩ من سورة الأعراف.

أى ليطمئن إليها، لأن الجنس إلى الجنس أَمْيل وبه آنس.

وقوله: ﴿.. فَلَمَّا تَغَشَّاهَا..﴾ من الآية رقم ١٨٩ من سورة الأعراف أى أتاها لقضاء وطره الجنسى، فالتغشى كناية عن الجماع.

وقوله: ﴿.. حَمَلَتْ..﴾ من الآية رقم ١٨٩ من سورة الأعراف، والحمل ما كان فى البطن، وهو المقصود هنا.

وقوله تعالى: ﴿.. صَالِحًا..﴾ من الآية رقم ١٨٩ من سورة الأعراف.

أى: «نسلا صالحًا» - أى ولدًا سليمًا مثلنا.

وقوله: ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَت﴾ أى ثقل حملها وصارت به ثقيلة لكبر الحمل فى بطنها ﴿دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾، أى دعوا الله مُربيهما ومالك أمرهما ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ - أى لئن رزقتنا ولدًا صالحًا سوى الخلقة لنشكرنك على نعمائك، ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾، أى

فلما وهبهما الولد الصالح السوى، ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾، أى جعل هؤلاء الأولاد والذرية شركاء مع الله فعبدوا الأوثان والأصنام، ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أى تنزه وتقدس الله عما ينسبه إليه المشركون.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ..﴾ من الآية رقم ١٩٤ من سورة الأعراف.

الدعاء: النداء وهو ما يكون لدفع ضر أو جلب نفع.

قوله تعالى: ﴿.. أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا..﴾ من الآية رقم ١٩٥ من سورة الأعراف.

أى يصولون بها.

- قوله تعالى: ﴿.. قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ﴾ آخر الآية رقم ١٩٥ من سورة الأعراف.

أى فلا تمهلون.

وقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ..﴾ من الآية رقم ١٩٩ من سورة الأعراف.

والعفو: هو السهل من غير كلفة ولا مشقة.

خذ ما عفا وسهل وتيسر من أخلاق الناس وأعمالهم.

وقوله: ﴿.. وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ..﴾ من الآية رقم ١٩٩ من سورة الأعراف.

أى ما تعارف حسنه فى الشرع وبالتالى العقل:

وقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ..﴾ من الآية رقم ٢٠٠ من سورة الأعراف.

يعنى يُصيبنك.

وقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ..﴾ من الآية رقم ٢٠٠ من سورة الأعراف.

يعنى وسوسة.

وقوله تعالى: ﴿.. مَسَّهُمْ طَائِفٌ..﴾ من الآية رقم ٢٠١ من سورة الأعراف.

أى أصابتهم لمة أو وسوسة ما.

- ﴿.. تَذَكَّرُوا..﴾ من الآية رقم ٢٠١ من سورة الأعراف.

أى أمر الله ونهيه وعداوة الشيطان.

قوله تعالى: ﴿.. يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ..﴾ من الآية رقم ٢٠٢ من سورة الأعراف.

يعنى إخوان الشياطين يتعاونون فى الضلال والإضلال.

- قوله تعالى: ﴿.. لا يُقْصِرُونَ﴾ آخر الآية رقم ٢٠٢ من سورة الأعراف.

أى لا يكفون عن إغوائهم.

- ﴿.. لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا..﴾ من الآية رقم ٢٠٣ من سورة الأعراف.

اختلقتها واخترعتها من عند نفسك وليست وحيًا.

- قوله تـعالى: ﴿.. بَصَـائِرُ..﴾ من الآية رقم ٢٠٣ من سـورة الأعراف.

أي: القرآن حجج بيِّنة وبراهين نيِّرة.

- قوله تـعالى: ﴿.. تَضَرُّعًا..﴾ من الآية رقم ٢٠٥ من سـورة الأعراف.

مُظهرًا الضراعة والذلة في الدعاء.

- قوله تـعالى: ﴿.. خِيفَةً..﴾ من الآية رقم ٢٠٥ من سـورة الأعراف.

أى خائفًا من عِقَابه.

- قوله تعالى: ﴿.. بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ..﴾ من الآية رقم ٢٠٥ من سورة الأعراف.

أى أوائل النهار وأواخره. والمراد فى كل وقت.

- قوله تـعالى: ﴿.. يَسْجُدُونَ﴾ من الآية رقم ٢٠٦ من سـورة الأعراف.

أى يُصَلُّون ويَعْبدون.

ب- المناسبة:

لما تكلم الحق سبحانه عن الضـالين الخاسرين الذين جعلهم الله بِناء على علمه بحقيقتهم، وقود جهنم لإهمالهم نعم الله عليهم من الأسماع والأبصار والقلوب.

يأتى هنا لِيتكلم سبحانه عن قدرة الله فى الأنفس والآفاق.

جـ- التفسير التحليلى للآيات:

١- قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا..﴾ من الآية رقم ١٨٠ من سورة الأعراف.

أمر بإخلاص العبادة لله ومجانبة المشركين والملحدين، قيل نزلت الآية فى رجل من المسلمين كان يقول فى صلاته يا رحمن يا رحيم، فقال رجل من مشركى مكة أليس يزعم محمد وأصحابه، أنهم يعبدون ربًا واحدًا فما بال هذا يدعو ربَّين اثنين، فأنزل الله سبحانه هذه الآية.

جاء فى الترمذى وابن ماجه وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ إن لله تسعة وتسعين اسما»[1]- فعلينا أن نضعها نُصْب أعيننا بمشيئة الله تعالى، ونعمل بمقتضاها لنسعد إن شاء الله تعالى.

والمعنى لله الأسماء التى هى أحسن الأسماء وأجلها لإنبائها عن أحسن المعانى وأشرفها، ﴿فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ أى يميلون عن الإقرار بها ويجحدونها ويعدلون عنها كفرًا»[2].

﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ سموه بها، ﴿وَذَرُوا﴾ أى اتركوا ﴿الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾، من ألحد ولحد، يعنى يميلون عن الحق فى أسمائه، حيث اشتقوا منها أسماء لآلهتهم.

سمى الله سبحانه أسماءه بالحسنى، لأنها حسنة فى الأسماع والقلوب، فإنها تدل على توحيده وكرمه وجوده ورحمته وإفضاله.

(١) الترمذى فى الدعوات ٣٥٠٧ باب ٨٣ وابن ماجه فى الدعاء ٣٨٦١ باب أسماء الله الحسنى عز وجل.

(٢) تفسير القاسمى محاسن التأويل جـ٧ ص٣٠٧.

وقوله فادعوه بها أى اطلبوا منه بأسمائه، فيطلب بكل اسم ما يليق به، فتقول يا رحيم ارحمنى.

وإن دعوت بالاسم الأعم الأعظم فقلت يا ألله ـ جل جلاله فى علاه.

وقوله تعالى: ﴿.. وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ آخر الآية رقم ١٨٠ من سورة الأعراف.

يعنى فى الآخرة ـ من جحدهم إياها ونفورهم عن الإيمان بها.

ولا يدل أن أسماءه تعالى محصورة فى التسع والتسعين، لقول الرسول ﷺ:

«ما قال عبد أصابه هم أو حزن: اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتى بيدك ماض فىَّ حكمك، عدل فىَّ قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب، أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء حزنى وذهاب همى وغمى، إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكان حزنه فرحًا»[1].

وللذكر فوائد منها تغذية الإيمان، ومراقبة الله تعالى، والخشوع له والرغبة فيما عنده واحتقار آلام الدنيا، وقلة المبالاة بما يفوت المؤمن من نعيمها»[2].

وهكذا يقوى إيمان المؤمن بذكر الله جل فى علاه، الا بذكر الله تطمئن القلوب، وتصل إلى حضرة علام الغيوب.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٣٩١ من الجزء الأول طبعة الحلبى.

(٢) تفسير المراغى جـ٣ ص٢٠٢.

«وقد سرد الأسماء التسعة والتسعين، الترمذى والحاكم من طريق الوليد بن مسلم قال:

هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهمين العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلى الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوى المتين، الولى الحميد المحصى المبدئ المعيد المحيى المميت الحى القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالى المتعالى، البر التواب، المنتقم، العفو الرؤوف، مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغنى المغنى المانع الضار النافع النور الهادى البديع الباقى الوارث الرشيد الصبور»(١).

وقوله تعالى: ﴿.. وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ..﴾ من الآية رقم ١٨٠ من سورة الأعراف.

أى ادعوه أيها المؤمنون، واتركوا جميع الذين يلحدون فى أسمائه بالميل بألفاظها أو معانيها عن نهج الحق الوسط إلى متفرق السبل من تحريف أو تأويل، أو تكذيب أو زيادة أو نقصان، أو ما ينافى وصفها بالحسنى كأن يوصف بما لا يصح وصفه به أو تتأول أوصافه على ما لا يليق به.

ثم بين العِلة فى تركهم فى خوضهم يلعبون فقال:

(١) تفسير المراغى جـ٣ ص٣٠٣.

﴿.. سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ آخر الآية رقم ١٨٠ من سورة الأعراف.

أى لأنهم سيلقون جزاء عملهم وتحل بهم العقوبة فى الدنيا قبل الآخرة، فاجتنبوا إلحادهم كى لا يصيبكم مثل ما أصابهم.

٢- قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ الآية رقم ١٨١ من سورة الأعراف.

تدل الآية على أن الله عز وجل لا يخلى الدنيا فى وقت من الأوقات من داع يدعو إلى الحق.

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا..﴾ أى للجنة لأنه فى مقابلة ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ..﴾ الآية رقم ١٧٩ من سورة الأعراف.

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ..﴾ أى يدعون إليه ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ آخر الآية رقم ١٨١ من سورة الأعراف.

أى يعملون ويقضون.

وفى الصحيحين عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق**» حديث رقم ٦٢.

٥- قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ الآية رقم ١٨٤ من سورة الأعراف.

«فالهمزة للإنكار والتوبيخ، والواو للعطف على مقدر يستدعيه السياق السابق.

ومن تحتمل أن تكون استفهامية إنكارية فى محل الرفع بالابتداء والخبر بصاحبهم.

والجِنَّة مصدر كالجلسة بمعنى الجنون.

والتنكير للتقليل والتحقير، والتفكر التأمل وإعمال الخاطر فى الأمر.

أى أكذبوا ولم يتفكروا فى أى شىء من جنون ما كائن بصاحبهم الذى هو أعظم الهادين إلى الحق، وعليه أنزلت الآيات، أو فى أنه ليس بصاحبهم شىء من جنة حتى يؤديهم إلى التفكر فى ذلك إلى الوقوف على صدقه وصحة نبوته فيؤمنوا به وبما أنزل عليه من الآيات»[1].

ولكن العناد عن الحق هو دأب المكذبين الذين لا يهتدون بالرسول الكريم ﷺ ما هو إلا نذير وبشير يهدى إلى الحق بإذن ربه، ويهتدى إلى الحق من شاء له الهداية.

فالرسول الكريم ﷺ ما هو إلا نذير وبشير يهدى إلى الحق بإذن ربه لمن شاء الله له الهداية.

٦- قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ..﴾ من الآية رقم ١٨٥ من سورة الأعراف.

وهذا التعبير مسوق للإنكار والتوبيخ لإضلالهم بالتأمل بالآيات التكوينية.

«فالهمزة للإنكار والتوبيخ، والواو للعطف على مقدر، والملكوت الملك العظيم.

أى أكذبوا أولم يتفكروا فيما ذكر، ولم ينظروا نظر تأمل واستدلال فيما يدل على كمال قدرة الصانع ووحدة المبدع، وعظيم شأن الملك؛ ليظهر لهم صحة ما يدعوهم إليه ذاك الرسول الكريم ﷺ، وكأن التعبير

(١) روح المعانى للآلوسى جـ٩ ص١٢٧.

بالنظر هنا دون التفكر الذى عبر به فيما قبل للإشارة إلى أن الدليل هنا أوضح منه فيما تقدم»[١]ـ فسبحان من أبدع التعبير.

قوله تعالى: ﴿ .. وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ آخر الآية رقم ١٨٥ من سورة الأعراف.

«وفى آجالهم التى عسى أن تكون قد قربت فى موضع خفض معطوف على ما قبله.

فبأى قرآن غير ما جاء به محمد ﷺ يصدقون، وقيل الهاء للأجل على معنى بأى حديث بعد الأجل يؤمنون حين لا ينفع الإيمان، لأن الآخرة ليست بدار تكليف»[٢].

فلو نظروا فى توقع قرب أجلهم وقدومهم على ربهم يسوء عملهم لاحتاطوا لأنفسهم، ورأوا أن من الحكمة أن يقبلوا إنذاره ﷺ لهم.

وقوله تعالى: ﴿ .. فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ أى فبأى حديث بعد القرآن يؤمنون إذا لم يؤمنوا به، وهو أكمل كتب الله بيانًا وأقواها برهانًا، فمن لم يؤمن به فلا مطمع فى إيمانه بغيره.

٧- ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ الآية رقم ١٨٦ من سورة الأعراف.

«استئناف مقرر لما قبله مبنى على الطبع على قلوبهم»[٣]ـ يعنى ختم على قلوبهم فهم يعمهون.

---

(١) روح المعانى للآلوسى جـ٩ ص١٢٨.
(٢) الجامع لاحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٢٩٩.
(٣) روح المعانى للآلوسى جـ٩ ص١٢٩.

أى أن الله قد جعل هذا الكتاب أعظم أسباب الهداية للمتقين لا الجاحدين المعاندين.

وجعل الرسول ﷺ المبلغ له أقوى الرسل برهانًا وأكملهم عقلا وأجملهم أخلاقًا، فمن فقد الاستعداد للإيمان بهذا الكتاب وهذا الرسول، فهو الذى أضله الله وصار راسخًا فى الضلال، فمن يهديه من بعد الله؟!

وهو جلت قدرته يترك هؤلاء الضالين فى طغيانهم يترددون فى حيرة ولا يهتدون سبيلا.

والخلاصة إنه ليس معنى إضلال الله لهم أنه أجبرهم على الضلال، فكان ضلالهم جبرًا لا اختيارًا، بل المراد أنهم لما مرنت قلوبهم على الكفر والضلال وأسرفوا فيهما حتى وصلوا إلى حد العمه فى الطغيان، فأصبحت نفوسهم لا تستنير بالهدى وقلوبهم لا ترتوى لدى الذكرى.

فيقول تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1]- يعنى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وأبصارهم فهم يعمهون ويتخبطون.

٨- قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ..﴾ من الآية رقم ١٨٧ من سورة الأعراف.

يعنى يسألونك عن يوم القيامة متى هو؟

«والساعة فى الأصل اسم لمقدار قليل من الزمان غير معين، وهى عند المنجمين جزء من أربعة وعشرين جزءًا من الليل والنهار، وتطلق فى

(١) آية رقم ١٤ من سورة المطففين.

عرف الشرع على يوم موت الخلق»[١]ـ وعلى يوم قيام الناس لرب العالمين وفسروها بيوم القيامة والمشهور فيه باليوم الآخر، ويوم التغابن وهو يوم التظالم يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يُغنيه ـ لا تأتيكم إلا بغتة إلا فجأة.

«وقيل إن السائل عن ذلك أناس من اليهود»[٢]ـ وعمومًا العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ بفتح همزة أيان وهى ظرف زمان متضمن لمعنى الاستفهام.

وأيان خبر مقدم ومرساها مبتدأ مؤخر»[٣]. وأيان سؤال عن الزمان مثل متى.

فقيام الساعة هو انتهاء أمر هذا العالم، وانقضاء عمر هذه الأرض التى تدور بما فيها من العوالم المتحركة.

«وروى أن المشركين قالوا ذلك لفرط الإنكار والجحود.

«وأيان ظرف مبنى على الفتح، بنى لأن فيه معنى الاستفهام»[٤]ـ أى متى وقوع الساعة.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ ابتداء وخبر، أى لم يُبيِّنها لأحد، حتى يكون العبد أبدًا على حذر، ﴿.. لا يُجَلِّيهَا..﴾ أى لا يُظهرها ﴿..لِوَقْتِهَا..﴾ أى فى وقتها ﴿..إِلاَّ هُوَ..﴾ جل جلاله.

(١) روح المعانى للآلوسى جـ٩ ص١٣١.

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٤) الجامع لاحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص٣٠٠.

ومعنى ﴿ .. ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ.. ﴾ يعنى خَفِى علمها على أهل السماوات والأرض، وكل ما خفى علمه فهو ثقيل على الفؤاد.

﴿ .. لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً.. ﴾ أى فجأة مصدر فى موضع الحال ﴿ ..يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا.. ﴾ كأنك حفى عنها، عالم بها.

يسألونك عنها كأنك فرح بسؤالهم. ثم يأتى إخبار الله تعالى:

﴿ .. قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أى علمها عند الله تعالى وحده، لا عندى ولا عند غيرى من الخلق.

«والإنذار إنما يكون بالساعة وأهوالها، لا للإخبار عن الغيوب بأعيانها وأوقاتها»(١).

وهناك حكمة بالغة فى إبهام أمر الساعة العامة للعالم والخاصة بالأفراد والأمم والأجيال يجعلها من الغيب الذى استأثر الله تعالى به.

﴿ .. لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ.. ﴾ إذ لا وساطة بينه وبين عباده فى إظهارها ولا الإعلام بميقاتها وإنما وساطة الرسل فى الإنذار بها.

«وقوله ﴿ .. ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ.. ﴾، أى ثقل وقتها وعظم أمرها فى السماوات والأرض على أهلهما من الملائكة والإنس والجن، لأن الله أنبأهم بأهوالها، ولم يشعرهم بميقاتها، فهم دائمًا يتوقعون أمرًا عظيمًا لا يدرون متى يفجؤهم وقوعه»(٢).

فأمر الساعة إذن من الغيبيات التى استأثر الله تعالى بعلمها.

---

(١) تفسير المراغى جـ٣ ص٣٠٩.

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

وإذا قامت الساعة على أحدنا وفى يده فسيلة فليغرسها.

وقد أخفى سبحانه أمر الساعة لاقتضاء الحكمة التشريعية فإنه أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية، كما أن إخفاء الأجل الخاص للإنسان كذلك.

٩- قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ..﴾ من الآية رقم ١٨٨ من سورة الأعراف.

أى لا أملك لأجل نفسى جلب نفع ولا دفع ضر ولا أملك ذلك فى وقت من الأوقات.

وقوله تعالى: ﴿.. إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ..﴾، أى إلا وقت مشيئته سبحانه بأن يمكننى من ذلك، فإننى حينئذ أملكه بمشيئته، فالاستثناء متصل، وفيه دليل على أن قُدرة العبد مؤثرة بإذن الله تعالى ومشيئته، وقيل الاستثناء مُنْقطع، أى لكن ما شاء الله تعالى من ذلك كائن، والكلام مَسُوق لإثبات عجزه ﷺ عن العلم بالساعة على أتم وجه.

وقوله تعالى: ﴿.. وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ آخر الآية رقم ١٨٨ من سورة الأعراف.

استكثرت من الخير أى النفع أو المال بترتيب أسبابه، فكنت مثلا أعد للسنة المجدبة من المخصبة، ولوقت الغلاء من الرخص، وما مسنى السوء أى الضر للتوقى عن أسبابه لأجتنب ما يكون من الشر واتقيه ﴿..إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ..﴾، أى عَبْد أرسلت نذيراً وبشيراً، وما من شأنى أن أعلم الغيب، وقوله تعالى: ﴿.. لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يجوز أن يتعلق بنذير وبشير جميعًا، لأن المؤمنين هم المتفعون بالنذارة والبشارة، بمشيئة الله جل فى علاه.

فالرسل عليهم الصلاة والسلام عباد مكرمون، لا يشاركون الله فى صفاته ولا فى أفعاله، ولا سلطان لهم على التأثير فى علمه ولا من تدبيره، وإنما يمتازون باختصاص الله تعالى إياهم بوحيه، واصطفائهم لتبليغ رسالته لعباده، وجعلهم قدوة صالحة للناس من العمل بما جاؤوا به من عند الله من الصلاح والتقوى والأخلاق الفاضلة بمشيئة الله تعالى.

١٠- قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا..﴾ من الآية رقم ١٨٩ من سورة الأعراف.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم..﴾ استئناف لبيان ما يقتضيه التوحيد الذى هو المقصد الأعظم، «وهو سبحانه ذلك العظيم الشأن الذى خلقكم جميعًا وحده من غير أن يكون لغيره فى ذلك أصلا ولا صاحبًا ـ وقوله: ﴿.. مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ..﴾ وهى آدم عليه السلام، ﴿.. وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا..﴾ أى من جنسها، فمن ابتدائية، والمشهور أنها تبعيضية، أى من جنسها ـ فهو سبحانه خلق حواء من ضلع آدم اليسرى، والكيفية مجهولة لنا، ولا يعجز الله تعالى شىء»[1] سبحانه على كل شىء قدير.

١٠- قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا..﴾ من الآية رقم ١٨٩ من سورة الأعراف.

﴿.. خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ..﴾ أى من آدم ﴿.. وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا..﴾ أى خلق منها زوجها حواء، ﴿.. لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا..﴾ أى يألفها، ﴿.. فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ..﴾ أى صار جنينًا.

وقوله تعالى: ﴿.. فَلَمَّا تَغَشَّاهَا..﴾ أى جامعها ﴿.. حَمَلَتْ حَمْلاً

(١) روح المعانى للآلوسى جـ٩ ص١٣٧، ص١٣٨.

خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ..﴾، من غير مشقة ولا كلفة، ﴿.. فَلَمَّا أَثْقَلَت..﴾ أى صارت ذات ثقل، بِكبر الولد فى بطنها وأثقلها حملها.

وقوله ﴿دَّعَوَا اللَّهَ﴾ أى آدم وحواء عليهما السلام، لما خاف عاقبة الأمر وتضرعا إليه عز وجل ﴿.. رَبَّهُمَا..﴾ ومالك أمرهما الحقيقى وخص ربهما بالدعاء أن يؤتيَهما نسلا صالحًا ﴿.. لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا..﴾ أى نسلا من جنسنا سويّا، وقيل ولدا سليمًا من فساد الخلقة كنقص بعض الأعضاء ونحو ذلك، وقوله ﴿.. لَّنَكُونَنَّ..﴾ نحن أو نحن ونسلنا ﴿..مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، الراسخين فى الشكر لك على إيتائك ونعمائك.

١١- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا..﴾ وهو ما سألاه وما طلباه»[1] بأن استجاب الله تعالى لهما جعلا له شركاء فيما آتاهما أى أخلا بالشكر، فى مقابلة نعمة الولد الصالح أسوأ إخلال إذ استبدلوه بالإشراك.

وقوله تعالى: ﴿.. فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ آخر الآية رقم ١٩٠ من سورة الأعراف.

هذه الآية سيقت توبيخًا للمشركين من جناياتهم بالشرك ونقضهم ميثاقهم فى جريهم على خلاف ما يُعاهدون الله عليه، وذلك أنه تعالى ذكر ما أنعم به عليهم مِنَ الخلق من نفس واحدة، وجعل أزواجهم من أنفسهم، لِيأنسوا بهن، ثم إنشائه إياهم بعد الغشيان متدرجين من أطوار الخلق من العدم إلى الوجود، ومن الضعف إلى القوة، ثم بين إعطاءهم المواثيق، إن آتاهم ما يطلبون، وولد لهم ما يشتهون ليكونن من الشاكرين، ثم أخبر عن غدرهم وكفرانهم هذه النعم التى امتن سبحانه

(١) روح المعانى للآلوسى جـ٩ ص١٣٩.

بها عليهم ونقضهم ميثاقهم فى إفراده بالشكر، حيث أشركوا معه غيره فى ذلك وهكذا يُضل الله الكافرين، فتعالى الله عما يشركون ـ يعنى تنزه سبحانه عن أن يكون له شركاء.

١٢- قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ آية رقم ١٩١ من سورة الأعراف.

أيشركون به تعالى ما لا يخلق شيئًا، أى ما لا يقدر على أن يخلق شيئًا من الأشياء.

وقوله تعالى: ﴿.. وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ آخر الآية رقم ١٩١ من سورة الأعراف.

أى بل هم مخلوقون مصنوعون.

١٣- قوله تعالى: ﴿وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ الآية رقم ١٩٢ من سورة الأعراف.

أى لعبدتهم إذا حزبهم أمر ﴿نَصْرًا﴾، أى بِجلب نفع أو دفع ضر، ﴿وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ إذا اعترتهم حادثة من الحوادث.

وتدل الآية على أن المستحق للعبادة الذى يخلق وينعم ويقدر على النفع والضر هو الله تعالى ـ لا شريك له سبحانه.

١٤- قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ الآية رقم ١٩٣ من سورة الأعراف.

أى وإن تدعوهم، إلى أن يهدوكم إلى ما تحصلونه برغباتكم، وتنجون به من المكاره، التى تحيق بكم لا يتبعوكم فلا يستجيبوا لكم ولا يتبعوكم.

فقوله سبحانه: ﴿.. سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ أى مستوٍ لديكم دعاؤكم إياهم وبقاؤكم على صمتكم، فإنه لا يتغير حالكم فى كلتا الحالين إذ هم لا يفهمون دعاءكم ولا يسمعون أصواتكم ولا يعقلون ما يُقال لهم.

فالرب المعبود هو النافع وهو الضار وهو الهادى إلى الرشاد.

١٥- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ الآية رقم ١٩٤ من سورة الأعراف.

«حاجهم فى عبادة الأصنام، وتدعون يعنى تعبدون ﴿.. مِن دُونِ اللَّهِ..﴾ أى من غير الله وسميت الأوثان عباداً لأنها مملوكة لله مسخرة، فالأصنام مخلوقة أمثالكم.

ولما اعتقد المشركون أن الأصنام تضر وتنفع أجراها مجرى الناس فقال ﴿فَادْعُوهُمْ﴾ ولم يقل فادعوهن.

والمعنى: ﴿.. الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ..﴾ أى هى حجارة وخشب فأنتم تعبدون ما أنتم أشرف منه.

١٦- قوله تعالى: ﴿.. أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا..﴾ من الآية رقم ١٩٥ من سورة الأعراف.

تبكيت إثر تبكيت مؤكداً لما يفيده الأمر التعجيزى من عدم الاستجابة ببيان فقدان آلاتها بالكلية»[١].

يعنى عدم استجابة هذه الآلهة المزعومة لأن تنفع خيراً أو تدفع ضراً.

(١) روح المعانى للآلوسى جـ٩ ص١٤٤.

«كأنه قيل ألهم هذه الآلات التى بها تتحقق الاستجابة الآلات الأربع على حدة تكريراً للتبكيت»[(١)] فما لهذه الآلهة من دون الله أن تستجيب لكم؟!

«أى أن هؤلاء الآلهة من دون الله، فقدوا وسائل الكسب التى يُناط بها النفع والضر فى هذه الحياة، فليس لهم أرجل يسعون بها إلى دفع ضر أو جلب نفع وليس لهم أيد يبطشون بها.

فبما ترجون منهم من خير أو تخافون من شر، وليس لهم أعين يبصرون بها حالكم، ولا آذان يسمعون بها أقوالكم فيعرفون بها مطالبكم، فهم ليسوا مثلكم، بل دونكم فى الصفات والقوى التى أودعها الله فى الخلق فكيف ترهَبُونهم»[(٢)].

هكذا سفّه الله أحلامهم ـ فالاستفهام إنكارى فى كلها.

«ولما بين تعالى أن شركاءهم عاجزون، أمر تعالى رسوله أن يناصبهم المحاجة، ويكرر عليهم التّبكيت.

فقال سبحانه: ﴿ .. قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ.. ﴾ أى استنصروا بها علىَّ ثم ﴿ كِيدُونِ ﴾ ـ أى اعملوا أنتم وهم فى هلاكى من حيث لا أشعر به، ثم ﴿ ..كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ ﴾ آخر الآية رقم ١٩٥ من سورة الأعراف.

«يعنى لا تمهلون فإنى لا أبالى بكم»[(٣)].

---

(١) محاسن التأويل للقاسمى جـ٧ ص٣٢٢.

(٢) تفسير المراغى جـ٣ ص٣١٧.

(٣) الفتوحات الإلهية للجمل جـ٣ ص١٦٣.

هكذا يدافع الله عن رسوله ﷺ ويثبت فؤاده.

١٧- قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ آية رقم ١٩٦ من سورة الأعراف.

بعد أن تكلم سبحانه عن المشركين الضالين، بدأ يتكلم على أضدادهم من الصالحين المصلحين.

إن وليي الله الذى يتولى حفظى ونصرتى، وهو الذى أنزل الكتاب المشتمل على هذه العلوم النافعة وأل فى الكتاب للعهد، والمراد به القرآن كأنه قيل لا أبالى بكم وبشركائكم، لأن وليي هو الله الذى نزل الكتاب الناطق بأنه وليي وناصرى وبأن شركاءكم لا يستطيعون نصر أنفسهم فضلا عن نصركم.

وقوله تعالى وهو يتولى الصالحين تذييل لما قبله، أى من عادته أنه يتولى الصالحين من عباده، ونصرهم ولا يخذلهم، وفيه تعريض لمن فقد الصلاح وضل وأضل.

١٨- وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ الآية رقم ١٩٧ من سورة الأعراف.

أى لا يتولون أحدًا لأنهم لا يستطيعون نصركم.

١٩- قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ الآية رقم ١٩٨ من سورة الأعراف.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ ..﴾ أى الأصنام ﴿.. إِلَى الْهُدَى ..﴾ لا يسمعون ﴿و.. وَتَرَاهُمْ ..﴾ أى الأصنام يا محمد (صلى الله عليك وسلم) ـ حال

من المفعول، فهذه الأصنام لا تسمع ولا تعقل إن دعوتموهم إلى الهدى لا يهتدوا.

وبذلك تكون هذه الآيات الكريمات، قد وبخت المشركين وآلهتهم أعظم توبيخ، وأثبتت بالأدلة المنطقية الحكيمة، وبوسائل الحس والمشاهدة أن هذه الأصنام لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا، وأن الذين قالوا فى شأنها ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، هم قوم غافلون جاهلون، قد هبطوا بعقولهم إلى أحط الدركات، لأنهم يتقربون إلى الله زلفى عن طريق من لا يسمع ولا يبصر، ولا يغنى عنهم شيئًا، بل لا يستطيع أن يدفع الأذى عن نفسه.

وفى الوقت نفسه فالآيات دعوة قويّة لكل عاقل إلى أن يجعل عبادته وخضوعه لله الواحد القهار.

ثم تتجه السورة بعد ذلك إلى شخص الرسول ﷺ فترسم له ولكل عاقل طريق معاملته للخلق على وجه يقيه شر الحرج والضيق فيقول سبحانه:

٢٠- ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الآية رقم ١٩٩ من سورة الأعراف.

بعد أن ذكر سبحانه، أنه هو الذى يتولى أمر رسوله وينصره وأن الأصنام وعابديها لا يقدرون على إيذائه وإيصال الضر إليه، بين فى هذه الآية النهج القويم والصراط المستقيم فى معاملة الناس.

وهذه الآية تشمل أصول الفضائل، فهى من أسس التشريع التى تلى فى المرتبة أصول العقيدة المبنية على التوحيد والتى تفرد ما سلف

بأبلغ برهان.

«وقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ..﴾ أى مكان الغضب، ليكون أقبل للنصيحة، ﴿.. وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ..﴾ أى بالجميل المستحسن من الأفعال، فإنها قريبة من قبول الناس من غير نكير.

﴿.. وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾، أى المصرين على جهلهم، فلا تكافئ السفهاء بمثل سفههم، واحلم عنهم وأغض على ما يسوؤك منهم»[1]- والإعراض عن السفهاء بحسن معاشرتهم والدفع بالحسنى.

وهكذا يدعو الدين إلى التأليف بين القلوب والدفع بالحسنى، ادفع بالتى هى أحسن السيئة، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم - كأنه صديق مُخلص.

٢١- قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ آية رقم ٢٠٠ من سورة الأعراف، فالله سميع لما تقول وعليم بما فى النفوس والصدور.

والنزغ كالنخس والوكز؛ إصابة الجسد برأس محددة كالإبرة والرمح والمراد به هنا نزغ الشيطان بإثارته داعية الشر والفساد فى النفس بغضب كما تُنخس الدابة بالعصى لِتُسْرِع.

والاستعاذة بالله الالتجاء إليه لِيقيك من شر هذا النزغ.

بعد أن ذكر سبحانه فى الآيات السابقة، أمثل الطرق فى معاملة الناس بعضهم بعضًا، مما لو عملوا بهديه، لم يجد الفساد إلى نفوسهم سبيلا، قَفَّى على ذلك بالوصية التى تتضمنها هذه الآيات الثلاث، وهى

(١) محاسن التأويل للقاسمى جـ٧ ص٣٢٥.

إتقاء إفساد الشياطين وهم شياطين الجن المستترة، فالآية السالفة أمرت بالإعراض عن الجاهلين وهم السفهاء اتقاءً لشرهم وبالاستعاذة بالله من الشياطين اتقاء لشرهم والعياذ بالله.

أى وإن حملك الشيطان إلى الفساد بسبب غضب أو شهوة فيجعلك تتأثر وتتحرك للعمل به، فالجأ إلى الله وتوجه إليه بقلبك لِيعُيذك من شر هذا النزغ.

وعبر عن ذلك بلسانك، فقل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فإنه سميع لما تقول عليم بما تحدثك به نفسك ويضيق به صدرك، فهو يصرف عنك تأثير نزغه بتزيين الشر، وقد دلت التجربة على أن الالتجاء إلى الله تعالى وذكره بالقلب واللسان يصرف عن النفس وسوسة الشيطان كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾(١).

فالله تعالى يصرف وسوسة الشيطان عنك بمشيئة الله تعالى.

٢٢- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ آية رقم ٢٠١ من سورة الأعراف.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا..﴾ استئناف مُقرر لما قبله من الأمر ببيان أن الاستعاذة سنة مسلوكة للمتقين، والإخلال بها شنشنة الغاوين، أى إن الذين اتصفوا بتقوى الله، ﴿.. إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ..﴾ أى لمة منه، والتنوين للتحقير، والمراد وسوسة ما، وطائف اسم فاعل من طاف بالشىء. إذا دار حوله، وجعل الوسوسة طائفًا للإيذان بأنها وإن مسته لا تؤثر فيه، فكأنها طافت حولهم، ولم تصل إليهم.

---

(١) آية رقم ٩٨ من سورة النحل.

وهذه الآية تأكيد وتقرير لما قبلها من وجوب الاستعاذة بالله تعالى عند النزغ وأن المتقين هذه عادتهم يتذكرون ويُميِّزون المحق من غيره فيرجعون.

٢٣- قوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ﴾ الآية رقم ٢٠٢ من سورة الأعراف.

أى إخوان الشياطين الذين لم يتقوا، وهو مبتدأ، وقوله سبحانه ﴿.. يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ..﴾ خبره أى تعاقدتهم الشياطين فى الضلال بأن يزينوه لهم ويحملوهم عليه، إخوان الشياطين يمدون الشياطين بالاتباع والامتثال.

وقوله: ﴿.. ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ﴾ أى لا يمسكون ولا يكفون عن إغوائهم حتى يردوهم بالكلية. وهكذا يكون الضلال بفعل الشياطين وإخوانهم.

٢٤- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا..﴾ من الآية رقم ٢٠٣ من سورة الأعراف.

«وقوله ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ..﴾ من القرآن عند تراخى الوحى أو بآية مقترحة ﴿.. قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا..﴾، أى هلا جمعتها ولفقتها من عند نفسك أو هلا أخذتها من الله تعالى بطلب منه، وهو تهكم منهم لعنهم الله، فاجتبى لها معنيان جمع وأخذ. ويختلف المراد حسب الاختلاف من تفسير الآية والاجتباء فى الأصل الاستخراج ومنه جباية الخراج»[1] وهكذا يوضح المولى قصدهم.

وقيل أصله الجمع من جبيت الماء فى الحوض، أى جمعته، ومنه قيل للحوض جابية، لجمعه الماء، فجبى الشىء جمعه مختاراً.

---

(١) روح المعانى للآلوسى جـ٩ ص١٤٩.

يقال اجتبيت الكلام واختلقته، وارتجلته إذا افتعلته من قبل نفسك وكذا اخترعته.

﴿.. قُلْ..﴾ يا رسول الله ردًّا عليهم: ﴿.. إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي..﴾ من غير أن يكون لى دخل ما فى ذلك أصلا على معنى تخصيص حاله عليه الصلاة والسلام باتباع ما يوحى إليه منه تعالى.

وقوله تعالى: ﴿.. هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ..﴾ إشارة إلى القرآن الجليل المدلول عليه بما يوحى إلىَّ ﴿.. بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ..﴾ أى بمنزلة البصائر للقلوب بها تبصر الحق، وتدرك الصواب، أو حجج بينة وبراهين نيرة تغنى عن غيرها ـ فالكلام خارج مخرج التشبيه البليغ، وجوز أن تكون البصائر مستعارة لإرشاد القرآن الخَلْقَ إلى إدراك الحقائق، وهذا مبتدأ وبصائر خبره.

وقوله تعالى: ﴿.. وَهُدًى وَرَحْمَةٌ..﴾ عطف على بصائر، تنوينهما للتفخيم وتعقيبهما بقوله تعالى: ﴿.. لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ للإيذان بأن كون القرآن بصائر متحقق بالنسبة إلى الكل وبه تقوم الحجة على الجميع، وأما كونه هدى ورحمة فمختص بالمؤمنين إذ هم المقتبسون من أنواره. وهكذا يدافع الله تعالى عن رسوله ﷺ وعن قرآنه الذى أنزله الله تعالى.

٢٥- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الآية رقم ٢٠٤ من سورة الأعراف.

بعد أن ذكر سبحانه مزايا القرآن الكريم، وأنه آيات بينات للمؤمنين وهدى ورحمة لهم، قَفَّى على ذلك بذكر الدلائل على الطريق الموصلة لنيل الرحمة والفوز بالمنافع الجليلة.

أى وإذا قرئ القرآن عليكم أيها المؤمنون، فأصغوا له أسماعكم

لتتفهموا آياته وتعتبروا بمواعظه، وأنصتوا له لتعقلوه وتتدبروه ليرحمكم ربكم باتعاظكم بمواعظه واعتبروا بِعبره، فمن استمع وأنصت كان جديراً أن يفهم ويتدبر ومن كان كذلك كان حريًا أن يُرحم.

والآية تدل على وجوب الاستماع والإنصات للقرآن، إذا قرئ سواء فى الصلاة أو خارجها.

٢٦- قوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ آية رقم ٢٠٥ من سورة الأعراف.

وبالخطاب للنبى ﷺ، والمراد عام، عام لكل ذكر، الإخفاء أدخل فى الإخلاص، وأقرب إلى القبول، فمن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسي، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[(١)].

والمراد بالذكر فى النفس، أن يكون عارفًا بمعانى الأذكار التى يقولها بلسانه مُستحضرًا لصفات الكمال والعز والعظمة والجلال، وذلك لأن الذكر باللسان عاريًا عن الذكر بالقلب كأنه عديم الفائدة.

ويشمل الذكر قراءة القرآن والدعاء والتسبيح والتهليل يعنى قول لا إله إلا الله، وغير ذلك.

وقوله تضرعًا وخيفة فى موضع الحال بتأويل اسم الفاعل أى مُتضرعًا وخائفًا أو بتقرير مضاف أى ذا تضرع وخيفة، يعنى خائفًا من جلال الله جل فى علاه.

---

(١) آية رقم ٤١ من سورة الأحزاب.

والإخفاء أدخل فى الإخلاص وأقرب إلى الإجابة وأبعد عن الرياء.

وأن يكون على سبيل التضرع، وهو التذلل والخضوع، والاعتراف بالتقصير تحقيقًا بذلة العبودية وعزة الربوبية ولتخشع النفس وليخضع القلب.

وأن يكون الذكر دون الجهر، لأنه أقرب إلى حسن التفكر بإذن الله.

وأن يكون الذكر باللسان لا بالقلب وحده، مُستفادة من قوله ﴿ ..وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ.. ﴾.

وأن يكون ﴿ .. بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ.. ﴾، أى فى البكرة والعشى، فيكون ابتداء العمل وختامه بالذكر ـ أوائل النهار وأواخره.

ثم نهى تعالى عن الغفلة عن ذكره بقوله تعالى: ﴿ .. وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ آخر الآية رقم ٢٠٥ من سورة الأعراف.

من الغافلين أى الساهين عن ذكره وعن شكره.

٢٧- قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ آية رقم ٢٠٦ من سورة الأعراف وهى آخر آية فى السورة.

«﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ.. ﴾ وهم ملائكة الملأ الأعلى، وقيل عند عرش ربك ﴿ .. لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ.. ﴾، بل يؤدونها حسبما أمروا به ﴿ .. وَيُسَبِّحُونَهُ.. ﴾ أى ينزهونه عما لا يليق بحضرة كبريائه.

وقوله: ﴿ .. وَلَهُ يَسْجُدُونَ.. ﴾ ويخصونه بغاية العبودية والتذلل لا يشركون به غيره جل شأنه»[1]، فهم يقدسونه ويعظمونه جل فى علاه.

المبحث الخامس

ما اشتملت عليه السورة الكريمة

١- التوحيد:

وهو يتضمن دعاء الله وحده، وإخلاص الدين له وتخصيصه بالعبادة واتباع ما أنزله الله، وأن جميع ما شرعه لِعباده حسن، وما سواه قبيح، ونحن مأمورون بذكره تضرعًا وخيفة سرًّا وجهرًا.

٢- الإيمان بالوحى والكتب:

ويتضمن ذلك إنزل القرآن الكريم على النبى ﷺ للإنذار به والأمر باستماعه، والإنصات له، رجاء الرحمة بسماعه والاهتداء به وأمر المؤمنين باتباع المنزل عليهم من ربهم.

٣- **الإيمان بالرسالة والرسل**، ويشمل ذلك بعثة الرسل إلى جميع بنى آدم وسُؤالهم يوم القيامة عن التبليغ، وسؤال الأمم عن الإجابة ومجىء الرسل بالبينات من الله تعالى، وعقاب الأمم على تكذيب الرسل، كما ذكر فى قصص نوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام.

٤- **الإيمان بعالم الآخرة**، ويتضمن ذلك البعث والنشور، ووزن الأعمال يوم القيامة، وترتيب الجزاء على ثِقل الموازين وخِفتها، والحجاب بين أهل الجنة، وأهل النار، ونِداء أصحاب النار أصحاب الجنة، واعتراف أهل النار فى الآخرة بصدق الرسل، وقيام الساعة بمشيئة الله وأنها لا تأتى إلا بغتة.

٥- أصول التشريع ويتضمن هذا وجوب اتباع الدين والتفكير لتحصيل العِلم ومعرفة آيات الله وسننه فى خلقه، والأمر بالعدل فى الأحكام وحصر أنواع المحرمات وغيرها.

٦- آيات الله وسننه فى الكون وخلق السماوات والأرض فى ستة أيام واستواءه على العرش، ونظام الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والنجوم بأمره، وخلق عوالم الطبيعة، وخلق بنى آدم، وإشهاد الرب إياهم على أنفسهم أنه ربهم وعداوة إبليس والشياطين لبنى آدم.

٧- سننه تعالى فى الاجتماع والعمران البشرى، ويتضمن ذلك إهلاك الأمم بِظلمها لِنفسها ولغيرها، وابتلاء الله للأمم بالبأساء والضراء وبالرخاء والنعماء، ويسلب الله النعم من قوم ويورثها آخرين والعاقبة للمتقين، والصبر على المكاره وينبغى للمسلمين أن يتقوه والعاقبة للتقوى؛ وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

• أهم المــراجع •

أولا: القرآن الكريم

ثانيًا: السنة النبوية المطهرة.

ثالثا: أهم مراجع التفسير:

١- البحر المحيط: لمحمد بن يوسف الشهير بأبى حيان الأندلسى الغِرناطى - المتوفى سنة ٧٥٤هـ رضى الله عنه - دار الفكر بيروت سنة ١٩٩٢م.

٢- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل: للإمام أبى القاسم جار الله محمد بن عمر الزمخشرى - المتوفى ٥٢٨هـ رضى الله عنه - طبعة دار المصحف.

٣- غرائب القرآن ورغائب الفرقان: للعلامة نظام الدين الحسن بن محمد ابن حسين القِمى النيسابورى - المتوفى ٧٢٨هـ رضى الله عنه - دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٦م.

٤- روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى: للإمام العلامة أبى الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسى البغدادى - المتوفى ١٢٧٠هـ رضى الله عنه - دار الفكر بيروت سنة ١٩٩٣م.

٥- تفسير القرآن العظيم: للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبى الفداء إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى - المتوفى ٧٧٤هـ رضى الله عنه - طبعة عيسى الحلبى.

٦- التفسير الكبير «مفاتيح الغيب»: للإمام محمد الرازى فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر - المتوفى ٦٠٤هـ رضى الله عنه - دار الفكر بيروت سنة ١٩٩٥م.

٧- الجامع لأحكام القرآن: لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى - المتوفى ٦٧١هـ رضى الله عنه - دار الفكر بيروت سنة ١٩٩٥م.
٨- محاسن التأويل: للإمام محمد جمال الدين القاسمى - المتوفى سنة ١٩١٤م - رضى الله عنه - دار الفكر بيروت سنة ١٩٧٨م.
٩- روح البيان: للإمام الشيخ إسماعيل حقى البروسوى - المتوفى ١١٣٧هـ - دار الفكر للطباعة والنشر بيروت لبنان.
١٠- فى ظلال القرآن: لسيد قطب رضى الله عنه - دار الشروق سنة ١٩٩٤م.
١١- حاشية الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين: للإمام سليمان ابن عمر العجيلى الشافعى الشهير بالجمل - المتوفى سنة ١٢٠٦هـ رضى الله عنه - دار الفكر للطباعة والنشر بيروت سنة ١٩٩٤م.
١٢- نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور: للإمام برهان الدين أبى الحسن إبراهيم بن عمر البقاعى المتوفى سنة ٨٨٥هـ - رضى الله عنه - دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٩٩٥م.
١٣- تفسير الطبرى: لأبى جعفر محسن بن جرير الطبرى - المتوفى سنة ٣١٠هـ - طبعة دار المعارف بالقاهرة ١٣٧٤هـ.
١٤- تفسير المنار.
١٥- تفسير المراغى.
١٦- التحرير والتنوير لابن عاشور.
١٧- أنوار التنزيل للبيضاوى.
١٨- تفسير صفوة البيان للشيخ حسنين مخلوف.

١٩- فتح القدير للشوكانى.

رابعًا: علوم قرآن.

١- البرهان فى علوم القرآن للزركشى.

٢- معانى القرآن وإعرابه للزجاج.

٣- أسباب النزول للنيسابورى.

٤- المستنير فى القراءات لمحيسن.

٥- إتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربع عشر للبناء.

٦- قصص الأنبياء للشيخ عبد الوهاب النجار.

خامسًا: السنة النبوية المطهرة:

١- صحيح البخارى.

٢- سنن الترمذى.

٣- سنن ابن ماجه.

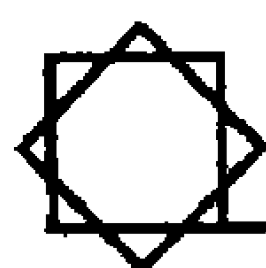
٤- مسند أحمد بن حنبل.

الفهـــرس

الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

١٧٩٥٥ / ٢٠١٠

إسلاميك جرافيك

٠١٠ ١٥٥٥٩٢٧ - ٢٣٩٢٨٧٠٠



ذلكم الكتاب

- يتناول تفسيراً تحليليًّا وروحيًّا لِسورة من سور القرآن المكى ، وهى سورة الأعراف ، وهى قبسة من نور الحق المبين، والتى زخرت بالعديد والعديد من الصفات الإيمانية الخالصة والتى يجب أن يتحلى بها المؤمن فى علاقاته ومعاملاته ، وما حوته من قصص الأنبياء مع أقوامهم ، فمنهم من آمن ، وكثير منهم قد كفر.
- كما تناولت أحكام الدين كما شرع الله بالصورة العادلة النافعة للجماعة والفرد على حد سواء .

لعل الله العلى القدير أن ينفع بها ، ذكرى ،

والذكرى تنفع المؤمنين .

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم.

المؤلـف